د. مشعل عبد العزيز الفلاحي

قصص الناهضين



قراءة في الأفكار والرؤى والقرارات
التي صنعت أصحابها يوماً من الزمان.



دمشق


قَصَصُ
النَّاهضين



الطَّبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

تُطلبُ جميعُ كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

kalam-sy@hotmail.com

الدَّار الشَّاميَّة - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزَّع جميعُ كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدَّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



قراءة في الأفكار والرؤى والقرارات
التي صنعت أصحابها

تأليف
د. مشعل عبد العزيز الفلاحي



دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم





الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فهذه قراءة في الأفكار والرؤى والقرارات التي صنعت كلّاً من (عبد الوهاب المسيري، وسليمان الراجحي، وزكي مبارك، وعمر فروخ، وأحمد أمين) من خلال سيرهم الذاتية (رحلتي الفكرية للمسيري، ولقاءات سليمان العلي مع سليمان الراجحي، وزكي مبارك سيرة ذاتية، وغبار السنين لعمر فروخ، وحياتي لأحمد أمين)، وأحسب أن قُرّاء السيرة الذاتية يتهافتون عليها من أجل تلك الأفكار والرؤى والقرارات التي جمعْتُها لهم في كتابي (قصص الناهضين) وتحملت عنهم عناء القراءة والتنقيب عن تلك المعادن النفيسة زمناً من الدهر، وها أنا أُلقي إليهم بأدهش ما جرى في سطور تلك السير.

عشْتُ زمناً من عمري متيماً بفن السيرة الذاتية وعاشقاً للقراءة فيها وباحثاً عن الحياة من خلالها، لإدراكي أن سطر التجربة أعظم ألف مرة من قراءة عشرات الكتب في ذات الطريق، وخضت غمار هذه الأماني زمناً من عمري، وبقيت أبحث في مرات كثيرة عن تلك الفكرة الحالمة وذلك القرار الجريء في تلك السير، فينقطع نفسي وأنا في سطور لا تصنع بريقاً في مشاعري ولا تلهم فكري ولا تحدث أثراً ملهماً في واقعي حتى يأذن

الله تعالى باللقاء بعد طول زمــن، وأعود مرة أخرى في ذات المعاناة على ندرة أوقاتي التي أُفرّغها لهذه الســير في البحث عن هــذه المعاني حتى أجدها، إذ إن كثيرين من كتّاب السير يسردون لك تفاصيل حياتهم الدقيقة والتي لا ينتفع منها القارئ بشيء في الغالب الأعم، وقررت بعد كل ذلك أن أختار لك خمس سير ذاتية هي من وجهة نظري الأجمل والأدهش، أو قُل الأقرب للفكرة التي أحملها، بما تحمل فــي طياتها من (أفكار ورؤى وقرارات)، قرأت لك هذه الســير الخمســة كاملة واســتلّيت منها أعجب وأدهش تلك الأحداث التي كونتهم، والأفكار التي بنتهم، والمعاني التي صنعت منهم شــيئاً مع الأيام، وعَلّقتُ على كل تلك المواقف والأحداث والقراءات والرؤى في تلك السير، وأثريتها بقلمي ووسعت فيها، وأحسب أنني لم أترك شــيئاً في تلك السير يســتحق التدوين مما يتعلق بالأفكار والمفاهيم والتصورات والمشاريع إلا وجعلته بين يديك.

ولا يفتك ـ ومثلك أوعى ـ أن كتابــي هذا لا يدعوك إلى قراءة تراث أولئك أو تركه فذاك شأنٌ، وكتابي الذي بنيت من أجله فكرتي شأنٌ آخر، وقد نذرت نفسي ألا أضع عيني إلا على أحلامها الكبار، ومشاهد الدهشة في حياة الآخرين، ومساحات الجمال والفأل والربيع في نفوس العالمين، والله المســؤول أن يتقبل هذا الجهد ويجعله من الباقيات الصالحات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلف

د / مشعل عبد العزيز الفلاحي

المملكة العربية السعودية ـ حلي

Mashal001@gmail.com



عبدالوهاب المسيري

"

الفكرة والمشروع أضخم قضية في سيرة المسـيري، ولن تقرأ في هذه السيرة الذاتية أنفس لك وأبهج لقلبك ومشاعرك من هذا المعنـى الكبيـر، وقد حكـى لك مـا يغريك بالحماس للأفكار الناهضة والعيش للقضايا الكبرى واسـتيلاء المشاريع على فكر إنسان وقلبه ومشاعره، ومثلك أوعى بالحيـاة.

كنت أصدر وأنا في السنة الأولى من المرحلة الثانوية حينما كان عمري لا يتجاوز المرحلة الحادية عشرة مجلةً مكتوبةً بخط اليد يتداولها أقراني، هذا غير مجلات الحائط، ومجلة دمنهور الثانوية المطبوعة التي قمت بتحريرها وشهدت أول مقال منشور لي وكان عن السلام وضروراته، ولم أكن فريداً في هذا فعشرات غيري من أقراني كانوا يفعلون ذلك.

❖ معرفة النابغين مسـؤولية الأسـرة، ومسـؤولية المدرسة كذلك، ومسؤولية النابهين في المجتمعات، لقد كان نبوغ المسيري ظاهراً وهو في باكر عمره، وهذا العمر الإنتاجي الذي صنعه المسيري من خلال مشاريعه التي أنتجها للأمة بعد ذلك من أعظم الأدلة على ذلك البكور العاجل في حياته، ولو أنك قلّبت النظر في سير الأمة لرأيت أن جملة كبيرة من هؤلاء المبدعين كانـوا صناعة حاذق عرف ذلك النبوغ مبكـراً ثم تولاه بالعناية حتى أصبح شيئاً في مستقبل الأيام، وما أكثر الصور والشواهد في مثل هذا المعنى الكبير!

❖ (تستطيع)! من أكثر المعاني التي تحتاجها أجيال الأمة اليوم! وكل إنسـان لديه من الطاقات والقدرات والإمكانات ما لو ركّز عليها ومنحها وقتاً ووجهها باتجاه فكرة ومشـروع عمر وقضية حياة لأثمرتْ. ومن أكثر الأزمات التي تواجه شـبابنا اليوم (صعب، غير ممكن، مسـتحيل) حتى ولّدت قاعدين عن كل شيء.

❖ ما أحوجنا اليوم إلى هذا الفقه، فقه النخب الذي يركز على العناية بهذه الطاقات وتبنّيها من خلال جمعيات ومؤسسات متخصصة قادرة على توجيه هذه الطاقات والقدرات في فنها الخاص ومشروعها الشخصي ومجالها المناسب، وتخصصها الذي ينطلق من طاقاتها وقدراتها وإمكاناتها حتى نستطيع أن نستثمرها من بداية الطريق وألا نخسر مزيداً من الأوقات، ولعل قارئاً ينهض لهذا المعنى ويقيم له واقعاً ويصنع من خلاله ألف معنًى للحياة.

كنت مختلفاً إلى حدٍّ ما عن أقراني، فلم أكن أحب لعب الكرة، وبرغم أني مارست لعبتي كرة السلة والبنج بوينج بعض الوقت فقد فعلت ذلك بدون حماسة واضحة وتوقفت عنهما في سن مبكرة، وكنت أكره الألعاب التي تعتمد على الحسابات الرياضية.

❖ كان المسيري مشروعاً مبكراً، كما ترى هذه الشخصية في بعض الشباب الذين لا علاقة لهم باللعب عموماً وبالكرة على وجه الخصوص، والتي أصبحت هوس الجماهير من الأمة كباراً وصغاراً ورجالاً ونساءً، ومسابقات محلية وعالمية وإعلام ينفخ فيها بكل ما أوتي من قوة للدرجة التي أذهبت عقول كثيرين وقضت على أوقاتهم، والتهمت كل ممكن من تلك الطاقات والقدرات والإمكانات.

❖ من حق الإنسان أن يلعب ويمارس أي هواية ما دامت ضمن المباحات الشرعية، ولكن نزع الله تعالى حب هذه الكرة من قلب

المسـيري فتوجه على الأقل واسـتطاع أن يركز، وكم أتت على قلوب ومشاعر كثيرين في زمانك فلم تبقِ منهم شيئاً صالحاً للحياة!

الأفراد في الغرب يصلون إلى سن الإنتاج الفكري وهم في العشرينات، ومستوى التعليم الجامعي مرتفع، مما يعني أن الطالب يتم إعداده للحياة الفكرية المثمرة في هذه المرحلة.

❖ إعداد الإنسان مختلف في الغرب، ويأتون إلى أحلامهم من خلال التعليم مـن أقرب الطرق، ويصلون إليه من مسـافة أقل، وهم يقدّسـون الجوانب العملية التطبيقية، ولهـم عناية ببعث قضية القـراءة في نفوس الناشـئة، وتحولت إلى عادة للفرد والأسـرة، وللصغير والكبير، والرجل والمرأة لا فرق، والعناية بهذين الأمرين مؤذِنة بالوصول إلى سـن الإنتاج في سـن مبكرة، وما حاجتنا إلى شـيء حاجتنا إلى بناء هذه المعاني في واقعنا بأسرع ما يكون. أولئك يصل الواحد منهم إلى سن الإنتاج في سن مبكرة، في مقابل أن الشاب في زمانك يتأخر كثيراً عن هذا المعنى؛ وذلك لفقدان التطبيق في التعليم، وفقدان عادة القراءة في حياة الأجيال.

❖ ماذا لو عرف الإنسـان أن القراءة وحدها كفيلة بصناعة الإنسان وتأهيله للحياة وجعله باعثاً للأماني الكبار؟! ماذا لو خصص كل شـاب عشرين دقيقة يومية لبناء عادة القراءة؟ حين تكون القراءة عادة في حياة إنسـان، فانتظر أباً رائعاً وزوجاً مدهشـاً وقائداً فذاً وصديقاً يملأ الدنيا حياة!



المجتمع الدمنهوري شأنه شأن المجتمعات التقليدية يرفض التبذير ويقدّر نعمة الله تعالى، فإذا سرنا ووجدنا قطعة من الخبز كان علينا أن نلتقطها، وبعضنا كان يُقبّلها ثلاث مرات ثم يضعها إلى جوار الحائط حتى لا يطأها أحد بقدميه، وكانت خبرات التدوير قوية في المجتمع فكان لا يُلقى في القمامة إلا أقل القليل، وبقية الأشياء يتم تدويرها (كأوراق الجرائد، علب الأكل المحفوظ، قشر البطيخ ولبّه، بقايا الطعام)، ويبدو أنني ورثت شيئاً من هذا سواء كان حبي للأشياء القديمة أو استخدامي للورق الذي سبق استخدامه لأكتب على ظهره، أو ارتدائي للملابس حتى تبلى تماماً، وتشكو زوجتي من أن بعض الفقراء الذين نعطيهم ملابسي القديمة يقولون: بلاش حاجات البيه، لأنهم لا ينتفعون بها على الإطلاق، وابني لا يختلف عني كثيراً فهو لا يمتلك كثيراً من الملابس.

❖ تقديـــر نِعَم الله تعالى موجـــب لبقائها في حيـــاة صاحبها، ومؤذن بالخيرات في المســـاحة التي يجري فيها هذا المعنـــى الكبير، وما رأيت حافظاً لها قائماً بحقها إلا أجرى الله تعالى له الخيرات حاضراً ومستقبلاً. لقد رأيت من التجار الكبار مَنْ يأكل المتساقط من الطعام، ولا يكاد يبقي شيئاً إجلالاً لهذا المعنى الكبير، وبعضهم يتوضأ لا يكاد يبل الأرض من وضوئه، ويغتسل بأقل ممكن من الماء، وترى في المقابل من يجري ألف فصل للعبث والفوضى والضياع في نعم الله تعالى.

❖ كان هذا الرجل يستهلك الورق حين الكتابة للدرجة التي لا يبقي فيها مساحةً يمكن أن ينتفع بها، ويلبس ثيابه زمناً من الدهر، ثم إذا تلفت بالكلية أو تكاد للدرجة التي قد لا يُنتفـع بها، تصدَّق بها على الآخرين، وهذا من الفقه والوعي والتوفيق، وهو نافذة على إجلال النعم واحترامها والقيام بحقها، وما أكثر صور التبذير في زمانك! وما دخل على الناس من رق الديون إلا من خلال التفريط في مثل هذه المعاني الكبار.

"كنت حين أشتري جوارب فإنني أشتري ثلاثة من نفس اللون، فإن فقدت فردة شراب أو إن اهترأت فإنه يمكن تعويضها من الجوارب بالأخرى، ويعلم الله أن هذا ليس بخلاً دمنهورياً، وإنما هو تأكيد لفرديتي ومقدرتي على الحرب ضد المؤسسات."

❖ لله ما أشـد الحاجة في زمانك إلى هذا المعنـى الكبير (وإنما هو تأكيد لفرديتي ومقدرتي على الحرب ضد المؤسسـات) لقد غمرتْ هذه المؤسسات اليوم الأفراد بسـيلٍ وركامٍ من الأوهام، واستنزفت منهم كل شيء، شركة تصدر كل عام ذات المنتج لا فرق بينه وبين غيره وبفارق من المال ضخم، وينتظم الناس في طوابير أمام أبوابها لانتظار ذلك الجديد، وهو لا يعدو أن يكون وسـيلة من الوسائل، ومؤسسات تصنع تخفيضات وهمية فترفع الأسعار بطريقةٍ ما، ثم تعلن أن ثمة تنزيلات تصل إلى (٥٠٪) وهي في الحقيقة مجرد وهم لا علاقة له بالحقيقة في شيء، وقد تكتشف أنهم جعلوا مـا أعلنوا عنه في منتجات محدودة حتـى تجري اللعبة على كثيرين، وما أكثر الزحام على تلك الأمكنة في أيام ذلك الإعلان!

❖ نحن اليوم في أمس الحاجة إلى اليقظة المالية وألا يخرج ريالك الذي دخل جيبك من خلال جهدك وعرقك وتعبك وعنائك، إلا بعرقٍ وجهدٍ وعناءٍ مساوٍ أو يزيد على ما بذل أول وهلة. إن من الغبن أن تدفع وقتاً وجهداً وفكراً في الحصول على ذلك الريال ثم تخرجه لأدنى طلب ولأقل رغبة، ولا حاجة إلى ذلك الإخراج في أوقات كثيرة.

❖ فرق كبير بين الضرورة التي تحتاج أن تدفع فيها كل شيء، والحاجة التي تدفع فيها بعض الشيء، والتحسيني الذي لست بحاجة في مرات كثيرة أن تدفع فيه شيئاً، ولذلك لا أعلم اليوم أزمة تحيط بالأفراد والأسر كأزمة المال للدرجة التي تُشل فيها حركة الإنسان وفكره، وتقعِده في البيت بالكلية، وإذا كان كذلك فمن حقنا أن نعرف له حقه وألا نجري في فلك الأوهام.

كانت أمي رحمها الله تعالى تتعامل بكفاءة عالية مع كل أجزاء الدجاجة، تأكل لحمها وتمصُّ عظمها وترمي ما تبقى للقطط، وقد أكون أقل كفاءة من أمي في التعامل مع الدجاجة المطبوخة، ولكن يمكنني أن آكلها بيدي فأعرف كيف أقطّعها، وكيف آكل كل أجزائها، ولكن أولادي الذين يستخدمون الشوكة والسكين يشكلون أزمة بيئية حقيقية، إذ يتركون أجزاء كثيرة من الدجاجة. وحينما عقدت حفل زفاف ابني كنت أعرف أنه سيبقى كثير من الطعام، فذهبت إلى السيد المدير المسؤول في الفندق وسألته عما سيحدث لبقايا مأدبة العشاء، فأجابني بعجرفة غير عادية وباللغة الإنجليزية:

جاربيج (أي: قمامة)، فقلت له بهدوء شديد: إني ضد التبديد، وطلبت منه ألا يُلقي بشيء وسأحضر كراتين وأواني لآخذ ما تبقى لتوزيعه على المحتاجين في المنطقة التي أسكن بها، فنظر إليّ بامتعاض على أني شخص غير متحضّر، ولكني أصررت على موقفي، وحين قَرُبت نهاية الحفل جاء كبير الجرسونات وأخبرني أن ما قاله المدير لا أساس له من الصحة، فالعاملون يأخذون البقايا ليوزعوها على أسرهم، وهنا أصبح للمسألة بُعد بيئي إنساني مختلف، فاتفقنا على اقتسام بقية الأكل: يأخذون هم النصف، ونحن النصف الآخر لتوزيعه على المحتاجين في مكان سكننا وقد كان، وتحوّل حفل الزفاف من لحظة تبديد وقمع إلى لحظة تدوير ورخاء ومشاركة.

❖ فقه النعمة يملي على صاحبه أن يحسِنَ التعامل مع تلك النعم ويقدّرها ويُجلّها، وإذا تهيأ له منها شيء عرف قدره وحفظه ووضعه في مكانه المناسب دون إسراف وتبذير. هذا التعامل الذي يتعامل به المسيري مع الدجاجة هو نوع من حفظ المال وتقدير النعمة، وألا يبقى منها شيء قابل لأن يكون في النفايات، وإجلال هذا المعنى درس صالح للحياة، وأمه كذلك، ويحكي لك الفرق بينه وبين أجيال الشوكة والسكين التي لا تأكل كل ما أخذت، بل تعتبر هذا من الشره، ومن الذوق أن تُبقي بعضاً من تلك المأكولات بقايا يراها الآخرون، وهو تعبير عند هؤلاء عن الرقي والحضارة التي يتعامل بها الإنسان مع أشيائه ومكتسباته.

❖ أجيال اليوم تأكل جزءاً من الساندوتش وترمي بالباقي من نافذة السيارة، وتأخذ في مرات كثيرة أكثر من حاجتها، ولا يضيرها أن تبقيه أو



تبقـي أجزاء منه بعد ذلـك صالحاً للرمـي في النفايـات، وإذا رأت من يتحدث بلغة المسـيري اعتبرت ذلك نوعاً من البخل لا يليق بالإنسـان. فكيف إذا أخذْتَ نظرة على مناسـبة عامة من مناسـبات المسلمين اليوم لترى تلك الأكوام التي يمكـن أن يُغاث بها العالم مـن حولك، ولكنها تطرح في النفايات؟! وما أكثرهم في زمانك!

❖ سـافرت ذات مرة مع صديق إلى الخارج وبقيت معه أسبوعاً، ولا أعلم أنَّا جلسـنا علـى وجبة ثم تُرِكَ منها شـيء، لقـد كان يُكلّم أصحاب المطعم لتوزيع الباقي في علب صالحة ومناسبة ليوزعه على الفقراء، ولا أعرف يوماً أنه بقي ذلك الطعام في يده وقتاً، وإنما يستقبله أقرب أولئك الفقراء إليـه، فضلاً عن أنه كان يأخذ حتـى بقايا الطعام المستهلكة ولا يسمح برميها، ثم يبقيها في كيس معه ليضعها بعد ذلك للطيور، وكان في مرات يبقى واقفاً مستمتعاً باستثمار هذه النعمة وعدم ضياعها، وقد قال الله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وجلست مرات مع بعض الموسرين على مائدة فرأيت عنايتهم بما هو على أطراف السـفرة، والمتسـاقط منها، ويحرصون علـى أكله، ولا يجدون أدنى غضاضـة في ذلك، ورأيت من يجمـع قوارير الماء التي شُرب منها بعد نهاية المناسبة ثم يستثمرها في سقي الزروع والأشجار، أو إعادتها في خزانات المياه التي تسـتخدم للغسـيل، ونحو ذلك مما يكرّس به هؤلاء مفهوم الحفاظ على نعم الله تعالـى، وما حاجتنا إلى شـيء حاجتنا لحفظ هذه النعم وتكوين قدوات لرعايـة هذه المعاني الكبار!

وقد حدث الشيء نفسه حينما دخلت المستشفى لإجراء عملية جراحية في عمودي الفقري، فقد فوجئت بالقدر الكبير من الورد والشيكولاته والذي يعبّر عن حب أصدقائي، ولكن حسي البيئي الدمنهوري استيقظ مرة أخرى وطلبت من مساعدي أن يتصل بأصدقائي ليخبرهم بمواعيد الزيارة وشروطها: ألا يحضر أحداً ورداً أو شيكولاته، وأن يعطي لأحد المساكين مالاً ويطلب منه أن يدعو لي بالشفاء.

❖ الإنسان مولع بالتقليد، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الناس كسرب القطا يتبع بعضهم بعضاً، والثقافات تسري في الناس كالنار في الهشيم، وفي زمانك ينقل لك الإعلام صورة أو موقفاً أو تصرفاً هامشياً، فإذا به حديث الناس، وتمتد صوره بعد ذلك إلى مساحات ما كانت لك على بال.

❖ كم يُصرف على هذا الورد الذي يؤتى به في مثل هذه المناسبات ثم يُرمى في النفايات! وتظل ثقافة الصورة والشكل والعادة مؤثرة في الناس رغم معرفتهم أن كل هذا يصير في النهايات إلى النفايات، وما أكثر تأثير العادات في حياة الناس!

❖ كم هي حاجة الأسر والبيوت، فضلاً عن الناس والأمم إلى قدوات! كم نحن بحاجة إلى أن تسري الثقافة الشرعية التي تنطلق من الوحي وتؤسس للناس وعياً متيناً مع الأيام حتى تجد أرضاً خصبة في حياة العامة

بعد ذلك. إن شعور المثقف بدوره ومسؤوليته بات ضرورة من الضروريات، وإلا ستتحوّل هذه الثقافات إلى ركام في عقول أصحابها لا علاقة لها بالحياة في شيء. ما قيمة هذه الثقافة التي يُكاثر بها معرفياً ولا أثر لها في واقع صاحبها فضلاً عن دورها وأثرها الكبير في حياة الآخرين؟! ما دور هذه الشهادات العلمية التي يبذل فيها الإنسان عمره، ثم لا تُملّكه قيماً يحيا بها ويناضل من أجلها ويسعى لتكوينها في واقع العالمين؟!

❖ لقد شعر المسيري بدوره، وقامت تلك الثقافة بواجبها الكبير في واقعه، ووقف أمام تلك العادات التي لا تصنع إلا ضياع الأموال وضيق الأمكنة وملء النفايات في النهاية، فأوقفها وصنع شيئاً حضارياً رائعاً وحوّل البوصلة إلى قضية الصدقة التي تعود بآثارها عليه عاجلاً وآجلاً. كم نحن بحاجة إلى نُسخ من شخصية المسيري نُعيد بها دور المثقف في بيته وأسرته، وحيّه ومجتمعه، ودوره في صناعة القدوة الحية التي تكتب حظوظ العمل في كل مساحة تتواجد فيها حيناً من الدهر!

❖ إن التغيير صناعة مجموعة من المثقفين في مساحة ما! لقد كان العزاء على سبيل المثال في كثير من مجتمعاتنا فوضى عارمة، بحيث يموت الميت ويبقى بيتك مفتوحاً أربعاً وعشرين ساعة للمعزِّين، ولا عبرة بوقت نومك أو راحتك أو أكلك، يُطرق بابك في الوقت الواحد عشرات المرات باسم المواساة، قاتل الله تعالى الجهل والفوضى ألف مرة! حتى منَّ الله تعالى علينا بصُنّاع للمبادرات الحية فأعلنوا أن العزاء عندهم من بعد صلاة العصر إلى أذان العشاء فحسب، ثم سرت هذه العادة في كثير من المجتمعات. وفي أزمة كرونا نهضت أسر واستثمرت الحدث فزوجت بناتها في البيوت وتخلصت من القصور وبتكاليف يسيرة وليلة واحدة،



فصنعت فـألاً للأزمات لا يأتـي إلا في حياة الناهضيـن، وكم هم الذين أوقفوا نزيف هذه المناسبات التي يتم فيها دعوات من أماكن نائية وبعيدة جداً في زواج أبنائهم، فاقتصـروا على زواج عائلي وتمـردوا على تلك العاداتِ فصنعوا ألف معنى للجمال! وما زلنا نطمح إلى مثقفين يحملون راية التغييـر والتمرد على العادات السـلبية وصناعة واقـع الأحلام عما قريب، والله المسؤول أن يمدَّ في هذه المعاني ويضع لها واقعاً جميلاً مع الأيام.

> أزعم أن المطلوب ليس تحرير المرأة وإنما تقييد الرجل، فالذي حدث أن حركة الرجل في العصر الحديث قد زادت بشكل غير انسيابي، مما يعني بُعده أو غيابه عن المنزل، فيقع عبء تنشئة الأطفال على كاهل الأم وحدها إلى جانب أعبائها الأخرى.

❖ هذه هي الحقيقة تراها في زمانك رأي عين! حركة الرجل وتفاعله وكونه المسـؤول عن تلك البيوت مطلوبة، ولا سـبيل له إلى تلبية تلك المتطلبات، وتكوين نفسـه إلا بذلك، ولكن في المقابل زادت في مرات كثيرة وتجاوزت الحد، وأصبحت الأسرة مشلولة كلياً أو جزئياً على الأقل بسـبب غيابه، وترتب على ذلك جملة كبيرة من المشـكلات. فكيف إذا انضاف إلى ذلك خروج المرأة لذات المعنى والسـعي في سـد حاجيات البيت والأسرة، فتحولت إلى عاملة في الشرق وزوجها في الغرب وتركت



مسؤولية الأسـرة إلى خدم يلقون بكل ما يحملون من ثقافات وأفكار في عقول هؤلاء الناشـئة، أو قاربت بينهم وبين هذه الأجهزة التي تقوم بدور التربية المشوهة خلال خمس ساعات يومية، لتأتي في النهاية على تشكيل أفكار ومفاهيم وتصـورات خطيرة وكبيرة لدى أجيال الأمة في مسـتقبل الأيام؟!

إيقاع الحياة سريع، كنت مرةً أقود السيارة وتوقفت للزحام، وكان أحد السائقين يقف ورائي بسيارته في الساعة الثالثة ظهراً أمام جامع ابن طولون في أحد الاختناقات الشهيرة في الأسبوع الأخير من رمضان، وظل هو الآخر يضغط على الكلاكس ويطلب أن أتقدم عجلة للأمام، فقلت له: كلنا واقفون، فلماذا أتحرك؟ قال: علشان تعطيني شوية أمل، ويبدو أن هذا السائق قد قرر ألا يستسلم لليأس.

❖ ولا يعلم زماناً إيقاع الحياة فيه أسرع من زمانك للدرجة التي ترى فيها كل إنسان يلهث ولم يصل إلى شيء، ولو أنك احتجت من يعينك في شـيء لايكلفه وقتاً كبيراً لاعتذر منـك من أول ما تحدثـه وأخبرك بأنه مشغول ولديه مسؤوليات لم ينتهِ منها بعد، ويتفق الناس على تصرم الأيام والأعوام وكل واحـد من هؤلاء لم يقـضِ من نهمته شـيئاً، فضلاً عمَّن تتوقف سيارته لأنه نسـي البنزين، أو فات عليه موعد دائرة لانشغاله عن موعدها، أو تفاجأ بمرض جسده وعلته المزمنة ولم يكتشفها إلا بعد فوات الأوان، ولا يكاد يتوقف يوماً أو يمنح نفسه وقتاً للهدوء إلا حين يأتي عليه حادث فيقعده في المستشفى، أو يغادر به الدنيا بالكلية، وصدق الله تعالى:

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢]! وهذه الصورة التي عرضها المسيري لصاحبه صورة حية جداً وواقعية، وتزداد مع الأيام في حياة كل فرد، وصورها تزداد كل يوم.

❖ كل الناس من حولك تضرب على أبواق السيارات مستعجلة، وإذا تأخرتَ قليلاً عند الإشارة الضوئية صاح عليك بكل صوته وخاصمك مخاصمة عدوك اللدود، وتراه يتجاوزك بسرعة كبيرة جداً ثم يتوقف بعدك بقليل، فتدرك أنه صنع كل ذلك للوصول إلى مطعم أو بقالة أو لشراء بعض حاجياته على طرف الطريق، ولو قُدّر عليك بأن توقفتْ سيارتُك في طريق سفرك فلا سبيل أن يتوقف لك أحد ليعينك، وكل واحد منهم يلهث، وفي النهاية لا إلى شيء.

❖ لقد أثّر إيقاع الحياة على مركزية الآخرة، فتسلل هذا الإيقاع بكل ما فيه إلى عباداتنا، فتجد الواحد لا يأتي الصلاة إلا بعد الإقامة ويصلي ويخرج مسرعاً، ولو قدر له يوماً أن يأتي قبل الإقامة وكان غائباً طول عمره لأقام المسجد بمن فيه: لماذا تأخرتم في إقامة الصلاة؟! وأثر هذا الإيقاع كذلك على رؤية الإنسان وأهدافه في الحياة، فلم يبقَ له شيء صالح يمكن أن يستثمر فيه عمره، فتجد لا يملك أهدافاً، ولا رؤية له في الأصل، ولا يجد وقتاً ليقرأ، ولم يتمكن من البقاء عدداً من الدقائق حتى يتعرف على مشروع عمره وفكرته الملهمة، وما يزال يجري في فلك هذه الأماني من دون شيء.

❖ في هذا الإيقاع خسرنا كثيراً، خسرنا بيوتنا وربما أسرنا، وأرحامنا فتقاطع الناس أو كادوا، وربما الباب بالباب ولا يكادان يلتقيان إلا في



المناسبات العامة، فضلاً عن شعث قلوبنا ومشاعرنا وأرواحنا وضياع أولوياتنا وأهدافنا الكبرى في الحياة.

❖ لن يقاوم هذا الشعث إلا قدوات تستطيع أن تقف في وجه الرياح العاتية وتثبت رغم شدتها، كم نحن بحاجة إلى من يأتي للصلاة في بيوت الله تعالى مع أول تكبير المؤذن للأذان، ويقرر ألا يخرج حتى يشبع من الذكر وتلاوة القرآن، قدوات لديها أهداف وبرامج ومشاريع إيمانية كصيام الاثنين والخميس والأيام البيض مثلاً، ووجود ورد ثابت في الصلاة وفي كتاب الله تعالى وفي صلة الرحم، وورد في بناء عادة ـ القراءة كمثال ـ حتى تجري مشاهد الإيمان والجلال في قلبك ومشاعرك إلى أقصى مدى.

❖ نحتاج أن ندمن ذكر الله تعالى في آناء الليل وأطراف النهار، ونكثر من (لاحول ولا قوة إلا بالله)، وندفع بعضاً أو كثيراً من أموالنا في سبيل الله تعالى وتكون لنا خبايا صالحة لا يعلمها إلا الله تعالى في كل وقت وحين.

❖ نحتاج إلى أوقات مقدّسة للقراءة، وأوقات للعائلة، وأوقات لمشاريع عمرك وشغفك ومجالك، وأوقات للراحة، وقد قال ﷺ: «**وإنَّ لجسدكَ عليكَ حقاً، ولأهلكَ عليكَ حقاً، ولنفسكَ عليكَ حقاً فاعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقه**»، وحين تجري هذه الفصول والمعاني في حياة الواحد منا يستطيع أن يقف في وجه ذلك الإيقاع، ويكتب له حياة جديدة بإذن الله تعالى في قادم الأيام.



حب المصري للنكتة يعود إلى تجربته التاريخية الطويلة التي جعلته يعيش كثيراً من التناقضات ولحظات الانتصار والانكسار ويشعر بالقوة والعجز، الأمر الذي جعله قادراً على تطوير رؤية فلسفية قادرة على تقبّل التناقضات وتجاوزها من خلال النكتة، وإن كان هذا لا ينفي مقدرته على التجاوز من خلال الثورة.

❖ كثرة التجارب في مرات كثيرة مفضية بصاحبها إلى النضج والكمال، وجعله أكثـرَ تفاعلاً مع من حولـه، وأقدرَ على الوصول إلـى ما يريده في التعامل مع الآخريـن، فإذا ما انضاف إلى ذلك التناقضات التي أشـار إليها المسيري ولحظات النصر والهزيمة والقوة والانكسار، جعلته هذه الأحداث مجتمعةً قادراً على تقبل كل ما يجري من حوله من حقائق وتناقضات.

❖ إنك ترى المصـري فترى صوراً من النضج التـي كونتها تجارب الحياة في فكره، وعقله، وترى في المقابل قدرةً على التفاعل مع الآخرين وفي أحلك الظروف، ويسعك في مرات بكل ما فيك، ولا يعجز عن الرد وفي أسرع وقت، ويقدم لك ما يريد في صورة نكتة، ومتى ما وجد العمل في حياة إنسان وكثرتْ تجاربه اتسعت خبراته وأمكنه التفاعل مع أي قضية في مستقبل الأيام ومن دون عناء.

❖ إن الأسرة مسـؤولة عن بناء هذه الخبرات والتجارب في حياة أبنائها في سن مبكرة من خلال إعطائه مصروفه الأسبوعي والشهري، وترتيب غرفته وغسـيل ثيابه وتكليفه ببعض المسـؤوليات، وتحمله جزءاً من أعباء البيت، ومقابلـة الجماهير والتعامل معهم، ويكون دور

الأسـرة بعد ذلك التوجيه والتصحيـح ومدّه بالخبـرات اللازمة في الأحداث التي يواجهها.

❖ فرق كبير جداً بين شـابين، الأول ظل فارغاً في أسرته متلقياً في بيته ولم يكلّف بشـيء يصنع قدراته ويكوّن طاقاته، وآخر في أسرة ألقت إليه بكل شيء وظلت ترعاه من بعيد وتوجه وتصحح في كل حين. وفرق بين شـاب يتعامل في حدود البيـت أو المجتمع ثم يعود، وآخر سـافر وتغرب وذهب وعاد حتى كان في النهاية كل شيء.

"أي مؤلّف لا يكتب للناس جميعاً وإنما لمجموعة محدودة من البشر، وكل كاتب في تصوري يحتاج إلى مجموعة من القرّاء تتوافر فيهم عدة شروط: أن يكونوا مهتمين بالقضية التي يتناولها، وأن يكونوا على مستوى فكري يمكنهم من الحكم على أعماله."

❖ لكل إنسان توجهه وميوله، وله في ذات الوقت جمهوره، والكتاب الذي يخرج موجهاً لفئة معينة يصنع تأثيراً في مرات كثيرة، والكشكولية لا تخلق جديداً، ولا تمكّنك من التركيز في غالب الأحيان.

❖ ثمة كُتّاب يصنعون نهضة في أجيال الشباب، وكُتّاب يوجّهون حرفاً متيناً لطلاب العلم، وكتّاب يسـتطيعون أن يخاطبوا العامة ويوصلوا إليهم الرسـالة واضحة متينة، وكُتّاب للمرأة، وآخرون للرجل، وصنف للصغار، وغيرهم للطلاب. المهم أن يدرك الكاتب دوره ومهارته وفنه وشغفه ودائرة تأثيره فلا يبعد عنهـا كثيراً فيضل الطريق، إلا أفـراداً من الخلق جعل الله

تعالى لهم قدرات ومكّن فيهم من أدوات التأثيـر، وجعل لهم قدرةً على الوصول لأي طبقة من هذه الطبقات، وكلٌ بحسبه.

❖ يقرر المسيري أن أي كاتب تكوّن له جمهور يملك هاتين الصفتين (اهتمام بالقضية التي يكتب فيها، وأن يكونوا على مستوى فكري متين) فقد تكّون له كل شيء في النهاية. إن الجمهور الذي تتوافر فيه هاتان الصفتان يمنحك رؤية الحقيقة كاملةً ومن كل الأبعاد، وإذا وُجِد في فرد اهتمام بفكرته وتوافر له فكر رصين فقد بلغ أمانيه.

❖ لو قلت لك اليوم على رغم كثرة إنتاجي، وهو موجّه في أصله إلى فئات محدودة، وإن كان ما فيه صالح للاستفادة والاستثمار بصورة كبيرة بحمد الله تعالى، إلا أني حتى هذه اللحظة لم أتلقّ فكرة من الجمهور تجعلني أعيد بناء الأفكار التي بثثتها في تلك الكتب بصورة مختلفة، والأصوات التي تصل إما مباركة بنجاح الرسالة أو موجهة لمعالجة أخطاء طباعية فحسب. وكم يتوق الإنسان إلى ملهم يبعث في فكرته الحياة، فضلاً عن مجرد اقتراح!

❖ يجب أن ندرك أن الكاتب (صاحب المشروع) يكتب منهجية ويطرح مشروعاً ويبث فكرة يراد لها البقاء، وإذا كان كذلك فينبغي أن يجد من أنصاره ومستقبلي أفكاره تغذية راجعة مليئة بالمعاني الحية والأفكار العملية تحاكم ما يطرح، وتعينه في ذات الوقت على الترقي نحو تلك الأهداف الكبرى التي يرومها مع الأيام.

من أطرف الأشياء أنني حينما كنت طالباً في الثانوية كنت كلما أرسلت خطاباً لإحدى الصحف لأعبّر عن إعجابي بشيء ما، أو

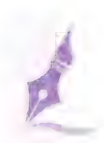
لأستنكره أفاجأ بأن خطابي يجد طريقه للنشر، بل ويُعطى الصدارة أحياناً، وكنت أحار لهذه الظاهرة، وكان زملائي في المدرسة يفسرونها بأن أسلوبي راق، فكنت أصدقهم وترتفع معنوياتي وتزداد ثقتي بنفسي، إلى أن اكتشفت أن المسألة مجرد تشابه أسماء، وأن كثيراً من محرري الصحف كانوا يظنون أن عبد الوهاب المسيري من دمنهور هو عبد المعطي المسيري الأديب صاحب المقهى من نفس المدينة.

✣ ظل اعتبار الأسماء ـ وما يزال ـ في مرات كثيرة باسطاً واقعه على حساب التخصص والفكرة التي يحملها صاحبها، ولا تستغرب أن تجد لفلان عموداً في صحيفة سيّارة تقرؤها الجماهير ويتناقلها الناس ولا علاقة له بالإبداع في شيء، وآخر لو كتب معلّقة من المعلقات أو رسم بياناً ملهماً أو صنع إبداعاً فلا سبيل إلى خروج تلك المباهج للجماهير، وقد وصل الحال بجملة من الكُتّاب وأصحاب الموهبة في ذلك الزمن أن يختبئ خلف ستار الأسماء الوهمية أو الألقاب الفضفاضة ليخرج بعضاً من تلك الموهبة خوفاً أن تخرج باسمه فلا تلقى رواجاً، أو تُواجه بنقد يقتلها وهي في مهدها، ثم ولّى زمن تلك الصحف، زمن لا تنشر شيئاً إلا بعد أن يرضى عنك فلان أو يجيزك فلان، وجاء زمان وسائل التواصل الاجتماعي التي كونت مساحات مشاعة لكل إنسان بغض النظر عن علمه وتخصصه وثقافته، وشارك فيها من يملك موهبة وفناً وتخصصاً ومشروعاً ومن لا يملك من تلك المعاني شيئاً، وطال زمانها وتلاشت كل تلك الأقلام التي لا تملك رصيداً من المعرفة، وعرف الناس الحقائق وقصدوا البحار وتركوا القنوات.

❖ لقد كان المسيري وهو طالب في الثانوية تُنشَر مقالاته في الصحف لا لأنه المسيري طالب المرحلة الثانوية، فذلك أبعد ما يكون إليه، بل للخطأ العارض، لأنهم حينها لم يفرقوا بين عبد المعطي المسيري المعروف صاحب التجربة وبين عبد الوهاب طالب الثانوية، وتلوّث بهذا الفكر مؤسسات علمية فكانت الرسالة العلمية يُنظر لها بالإعجاب والدهشة بمجرد كثرة صفحاتها بغض النظر عما فيها، أو بالازدراء لقلة تلك الصفحات، وثمة صور مبشرة بتصحيح التصورات في كل ما مضى، ولا تبقى إلا الحقائق وإن طال زمان الانتظار!

من التناقض الذي تراه في سلوك الناس ما يحدث داخل المسجد وخارجه؛ فهم في صلاة الجمعة يُفسحون المكان لبعضهم البعض ويصطفون صفاً واحداً ويحرصون على أن يكون صفاً مستقيماً، ويخرجون من المسجد بشكل هادئ، ولكن على بعد خطوات منه إن كان يقف هناك بائع بطيخ تجدهم يتدافعون ويتشاجرون ولا يحترمون الطابور أو الدور، ولا يمكن تفسير هذا التناقض البيّن إلا من خلال إدراك المفهوم التقليدي للقيم الأخلاقية بحسبانها ذات فاعلية في مجال الحياة الخاصة فحسب، وأن الحياة العامة تقع خارج الأخلاق.

❖ ثمة مشكلة ضخمة في مفاهيم العبادة، وإن قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى بأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة



والباطنة إلا أنك تلحظ تناقضاً كبيراً وفصلاً عريضاً وبوناً شاسعاً في حياة رجل واحد داخل المسجد وخارجه، أو في تعامله مع ربه وتعامله مع الآخرين، فتجده حريصاً على صلاته مهتماً بها محافظاً على تكبيرة الإحرام وصفّها الأول من سنين، وتتفاجأ أنه يخاصم زوجه في اللحظة الواحدة عشرات المرات، وينازع ولده في كل شيء، وبينه وبين أرحامه وجيرانه نزاع عريض، وتتفاجأ في ذات الوقت أنه يحضر مبكراً ومنتظماً في صلاته ويأتي في ذات الوقت متخلفاً ومتأخراً في عمله، يقيم شأن العبادة هنا، ثم لا يتحرَّج من الغش والكذب والفوضى هناك.

❖ ما زالت الناس وستظل تعاني إشكالاً خطيراً في الفصل بين ما يقام في بيوت الله تعالى وما يقام خارج أسوار المسجد، وهذا الفصل مؤذن بأخطار كبيرة وكثيرة على مستوى الأمة، ويحتاج إلى جهود كبيرة جداً، فهذا الذي يشاركك في الجماعة في اليوم الواحد خمس مرات، ويتعبد الله تعالى بمصافتك في الصلاة وموعود بأعظم الزواجر إن تخلف عن مصافتك كما أمره رسول الله ﷺ، ثم لا تكوّن هذه المشاركة والمصافة المتعددة وتلك اللقاءات مجتمعة الروحَ بينك وبينه، وبينه وبين الآخرين من حوله زمناً طويلاً، بحاجة إلى إعادة مراجعة على مستوى الأفكار والمفاهيم والتصورات.

❖ الحديث عن مقاصد العبادات من أهم القضايا التي ينبغي أن يعتني بها الخطاب الإسلامي حتى تأتلف تلك الأرواح وتتقارب تلك النفوس وتجري آثار هذه المعاني في قلوب المؤمنين كما يريد لها شرع الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه**».

❖ إنك لو تأملت على مستوى الفرائض الكبرى في دين الله تعالى كـ (الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج) فسترى أنها تتم في صور جماعية لمقاصد كبرى، ومع ذلك ننشغل في مرات كثيرة بصور هذه العبادات على حساب مقاصدها الكبرى، وتجد من يدفع فيها ماله وفكره وجهده وعمره ثم لا تُشكّل في فكره ذلك التصوّر الكبير الذي يريده الإسلام، يدخل فيها فرداً في شكل جماعة، ويخرج منها بذات الفردية، ولا تكاد ترى جديداً على مستوى الفردية في كل صورها.

"معظم المصريين يحافظون على مستوًى عالٍ من النظافة داخل شققهم، وهذا جزء من منظومتهم الأخلاقية التقليدية، أما خارجها فمباح ويتحول إلى ملقف للقمامة."

❖ الروح الجماعية من أعظم مقاصد هذا الدين، وقد ننجح جميعاً في الحفاظ على مستوى معين على صعيد الجانب الشخصي والأسري، ونخفق في ذات الوقت على صعيد المستوى العام، ولن تعرف قدر هذا المعنى حتى تقرأ حديث الرجل الذي رآه رسول الله ﷺ يتقلّب في الجنة لأنه أزاح غصن شوك من الطريق.

❖ كل فرد منا بحاجة ماسة وملحة إلى الشعور بدوره خارج ذاته وأسرته، وإدراك أنه جزء لا يتجزأ من مجتمعه، وشعوره بالمسؤولية عن كل جزء من أجزاء مجتمعه ووطنه وأمته، وإلا سيظل فرداً ذاتياً منعزلاً عن أعظم المعاني التي جاء دين الله تعالى لتأسيسها في قلوب العالمين.



❖ يجب أن يعي كل إنسان أن حفاظه على النظام العام عبادة، وانتظامه في الطابور الطويل على الصراف الآلي أو على أخذ دوره من مكان انتظار عبادةٌ كذلك، وكلمته التي يقولها لمن قَدّم له خدمة عبادة، وتصرفه في أي شأن من شؤونه العامة والخاصة عبادة كتلك الصلاة التي يصليها في بيوت الله تعالى لا فرق.

❖ ملهم جداً ذلك الذي يخرج من بيته ويكون مسؤول يومه كله ألا يُسقط شيئاً في عارضة الطريق، ويبقى كل ما انتهت منه حاجته في جيبه الخاص أو في جيب سيارته حتى إذا ما وجد أقرب نفاية ألقى تلك الأشياء فيها متعبداً بذلك لربه وممتثلاً لدينه ومنهجه، وتتربى على هذا المعنى الأسر في بيوتها، فلا تضع أكياس النفاية على أبواب البيوت إلا في ذات اليوم الذي تأتي فيها الجهات المسؤولة عن نقلها وقبل ذلك بدقائق معدودة، وواحد مع آخر، وأسرة إلى أسرة سنكوّن مجتمعاً حضارياً أنيقاً في مفاهيمه وأفكاره وتصوراته، يُجري معاني الدين الكبرى في كل شيء.

❞

التراحم ضد التعاقد، كما هي في علاقتي بخادمي المصري في السعودية الذي كان يأتي مرة كل أسبوع لتنظيف المنزل، كان يصرُّ دائماً كل أسبوع عند لحظة تقاضي أجره أن يقول: (بلاش يابيه، خلّيها عليَّ هذه المرة)، وبعض الناس يرى أن هذه العبارة هي تعبير عن النفاق، ولكني أجد مثل هذا التفسير سطحياً، فقد حلّلت هذه العبارة ووجدت أنه في واقع الأمر يقول: برغم أنني أعمل خادماً عندك وأدخل معك في علاقة تعاقدية، فإننا من الناحية الإنسانية

متساويان، ولا بد أن ندخل في علاقة تراحمية تتجاوز عمليات التبادل الاقتصادية (خدمات مقابل نقود)؛ لكل هذا لا داعي لأن تدفع لي هذه المرة، ولذلك كنت أحياناً أخبره أنني ليس معي نقود وأرجو أن يأخذ أجره في الأسبوع الذي يليه، وبذلك أعطيه الفرصة أن يكون دائني.

❖ صور الإسلام الحقيقية تأتي في مرات كثيرة في تعاملك مع الخدم والسائقين والفقراء والمحتاجين، تلك الفئات التي تتمثل فيها دينك ومنهجك على الوحي وليس من داعٍ لك إلى ذلك سوى هذا المعنى الكبير. يدعوك الإسلام إلى إلغاء كل الفوارق التي بينك وبين الآخرين والتعامل على ميزان التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

❖ كثيرة هي المصالح التي تدعونا لرقي التعامل مع الآخرين، ولا تُبين أخلاق الإنسان الكبرى وموازين الإسلام الحقيقية إلا في التعامل مع الفئات المحتاجة والضعيفة والمسكينة، إذ لا حاجة لك إليهم في مرات كثيرة. وما حاجتنا اليوم إلى شيء حاجتنا إلى فهم هذا الدين وجريان مفاهيمه في كل جزء من حياتنا وجعله خارطة الطريق إلى كل شيء. وكم هي أسراب المهتدين والمقبلين على دين الله تعالى لمشاهد هذه القدوات في مساحة ما!

❖ شعور الإنسان ولو كان بسيطاً وعادياً بالبذل والتضحية والعطاء يمنحه وهجاً وروحاً، ويشعره بأنه جزء من الناس وبعض من المجتمعات، لنمد أيدينا إلى الآخرين ونعينهم على ظروفهم، ثم إذا مدَّ هؤلاء أو أولئك أيديهم إلينا أن نتقبل ذلك منهم، ونعتبره نوعاً من

التراحم الذي يؤسس له الإســلام، ويؤكده المسيري في تعامله مع كل مَنْ حوله من هؤلاء.

❖ كن كريماً فــي تعاملك، وتعلم العطاء مــع كل من حولك، وإذا قَصُرت يدك عن النفقة فابســط لســانك بالجميل، ولتسع الناس بشاشة وجهك وطلاقته، وتعاطَ مع هؤلاء عطاءً وأخذاً بتلك النوايا التي تشعرهم بالحياة.

آثرت التراحم والتعاون على التعاقد والتنافس والصراع من بداية حياتي، فكنت أكره رياضة الصيد بعمق شديد، كما أقلعت عن لعبة كرة السلة بسبب التنافس الشديد الذي كان يسود المعلب.

❖ جميلة هذه الــروح التراحمية التي يحاول المســيري أن يبثَّها في أوساط القرّاء، وأمثلتها كثيرة وباسطة في الوحي، وليس بالضرورة أن تقوم على كراهية أمر مباح في شريعة الله تعالى، والصيد مباح بإجماع العلماء، وهو مما أحلــه الله تعالى في كتابه وثبت في ســنة النبي ﷺ وأجمع عليه المســلمون كافة، وثمة أمثلــة كثيرة فــي الواقع في فلك مــا يؤكد عليه المسيري غير هذا المعنى الذي أشار إليه، وصوره باسطة بأكثر من معنى.

❖ في الرياضة مصالح كثيرة وتؤهل لقضايا ضخمة وكبيرة من التعاون والاجتماع ووجود هدف وغاية في ذات الفكرة، ولكن واقعها التطبيقي مع كل أســف يقوم على الفردية والخصام والنزاع والشــقاق، ويبني في مرات

كثيرة الأنانية وحب الذات والفوز والنصر ولو على حساب القيم والمعاني الكبار، فضلاً عن ضياع أوقـات كثيرة في حياة كثيريـن، وإن كان هو في الأصل أمر مباح في شـريعة الله تعالى، وأسوأ ما يُعكّر صفو هذه المباحات هذه الحروب التنافسية التي أشار إليها المسيري في زمانه، فضلاً عن زماننا يُنتصر للكافر على المسـلم وتقـوم الأحقاد والضغائن والخصام في أشـد صوره والنزاع في أعنف مشاهده على مثل هذه الصور وتلك الغايات.

وجدت صعوبة بالغة في الولايات المتحدة أن أُعلّمهم أنه حينما يخرج الأصدقاء سوياً فلا داعي لأن يقتسموا الفاتورة، وليدفع من معه نقود حتى تصبح الليلة ليلة تراحمية تبتعد عن الحسابات والكم، وستتاح فرصٌ للآخرين أن يدفعوا في يوم آخر.

❖ شعور المصلح بدوره، وتمثله مباهج دينه، ومحاولته أن يكون قدوة لمـن حوله، وحمله مفاهيـم وأفكار وتصـورات دينه من أعظم أدواره التي ينبغي أن يمارسها في كل مساحة من الأرض، كم هم الذين يرتادون دول الغرب للدراسة والتجارب والطب والسياحة وغير ذلك، لو قرر كل واحد من هؤلاء أن يكون قدوة في تعامله فحسـب لصنع أشياء ملهمة لعالم وجد كل شيء وضل عن الطريق الموصل للحياة! لله ما أشد حاجتنا للقدوات!

❖ حَمْل الأفكار والمفاهيم والتصورات مهمة المصلحين في كل زمان ومكان، ومـن فقهك ألا تلعن الظـلام بل تحمل إليه مـا معك من أنوار

لتبدده من تلك المساحات. كن جزءاً من الحياة، وبعضاً من الجمال، ووصلاً ملهماً للمنقطعين في عرض الطريق، وما حاجة الأمم اليوم إلى شيء حاجتها إلى نور الوحي وأفكاره ومفاهيمه الكبرى، وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتقلب في الجنة لأنه أزاح غصن شوك من الطريق العام، فكيف بمن أزاح الشبهات والشهوات ودفع الظلام من طرق العالمين؟! واشوقاه لحُمَّال الأفكار الناهضة، ورسل الهداية في أوساط العالمين، والمتفائلين في زمان اليائسين!

- جميل ذلك التدافع الذي تراه في مرات كثيرة أمام المحاسب في المطعم والسوق بين صديقين، وهو يدل على تلك الأرواح المتعطشة للعطاء والجمال، ولو كانت تجري بهذه السلاسة التي أشار إليها المسيري فهي أجمل وأبهج وأليق من ذلك بكثير، غير أن الإشكالية التي تواجه هذا المعنى أن كثيرين لا يستطيعون أن يتحملوا الأمر دفعة واحدة، فلو صار على هذا التشارك كان أيسر وأسهل وأجمل وأعون لهم على ما يريدون.

كنت مرة في عمان في طريقي من السعودية إلى القاهرة، وكانت هذه الطائرة تنتظر الطائرة المصرية من بغداد لتحمل ركابها المصريين، ولكن يبدو أن عدد المسافرين كان قليلاً فجاء مدير المحطة، وكان فرعوناً صغيراً وقال: إن الطائرة لن تحضر من القاهرة وعلينا الانتظار للغد، وأشار بطرف أصابعه إلى كراسي المطار وقال: يمكنكم النوم عليها، فذهبت له وقلت: إن هناك قوانين عالمية تنظّم هذه العملية، وإن عليه أن يحجز لنا في أحد الفنادق، فقال: إن ثمن التذكرة لا يغطّي

ثمن الفندق، فأخبرته أن هذه مشكلته وليست مشكلتي، وحينما رفض أن يسلك حسبما يفرضه القانون طلبت من كل المسافرين أن يوقعوا على عريضة شكوى، وأخبرته أنه إذا لم يحجز لنا في الفندق فسأشكوه لهيئة الطيران العالمية المختصة، وبقدرة قادر تحوّل هذا الفرعون الصغير إلى مهرج مذعور وجلس يسترضيني، وأمر للمسافرين بعشاء مجاني، ثم اتصل بالقاهرة وأرسلوا الطائرة.

❖ جملة من تصرفات المسؤولين مواقف شخصية لا علاقة لها بالنظام، وتقوم في مرات كثيرة ـ مع كل أسف ـ على رعاية مصلحتهم الشخصية فحسب بغض النظر عن مصالح الآخرين، ويغيب عن هؤلاء المعنى الذي يؤسس له دين الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويؤكده قول النبي ﷺ: «**لايؤمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه**»، وقد تجد هؤلاء ممن يصلون ويحرصون على صف الجماعة الأول وإدراك تكبيرة الإحرام، ويمارسون خارج أسوار المسجد ما تجزم في مرات أن فلاناً لا علاقة له بشريعة الله تعالى في شيء.

❖ للمثقف أدوار كبيرة وضخمة وملهمة، وعليه أن يعي تلك الأدوار ويقوم بشأنها في كل مساحة يتواجد بها، حينما يأتي وقت الصلاة فينبغي أن يحمل هذه الراية ويستنهض الناس إلى الله تعالى، وحين يرى منكراً فينبغي أن يحضر ويحاول مدافعته بطريقة مؤدبة ورائعة تأتي على وقفه من دون ضجيج، وحين يخطئ القانون ويريد أن يتسلق على أحوال الضعفاء فيأتي دوره في إعادة ذلك القانون إلى مساره الصحيح ويحمي أولئك

الضعفاء من التصرفات العشوائية لبعض المسؤولين، وينبغي أن يمتد دوره إلى المسجد والحي والمدرسة والشارع العام، وما تصنع ثقافة لاعلاقة لها بواقع العالمين؟!

❖ كنت مرة في سفر على متن طائرة وأوشــك وقت الفجر أن يخرج بالكلية وليس بين الناس وشروق الشــمس إلا دقائق، ولم يتكلم أحد في تلك الطائرة أو يُذكّر الناس بهذه الفريضــة، وأنه يجب أن يُصلى على متن الطائرة إذا لم يمكن الهبوط قبل الوقت، يتوضأ كل إنســان ويصلي حسب حاله، يأتي بالشروط والأركان على حسب مقدرته حتى لو صلى جالساً، لأنه لا يجوز تأخير الصلاة حتى خروج وقتها مطلقاً، وليست هذه الرحلة الأولى من نوعها، بــل تخرج كل يوم فــي ذات الميعاد من كل يــوم بأعداد كبيرة وتواجه ذات المشــكلة، ولو اقترح أحد هؤلاء المثقفين على المسؤولين في الطائرة التنبيهَ على ذلك لربما كسب أجور العالمين ما بقي الزمان.

كادت المؤسسية تطحنني في بعض المواجهات معها، فقد كنت في السعودية أريد تجديد رخصة القيادة، وحين ذهبت لأفعل ذلك وجدت المئات أمام شباك التجديد لا يقفون في طابور، فعرفت أني سأضطر للتغيب عن المحاضرات عدة مرات إن أردت تجديد الرخصة مما يعني أنني أختار بين شرّين، وليس الخير والشر، إما أن أتغيّب عن المحاضرات وإما أن أغيّر الرخصة بنفسي، وأخذت ما تصورت أنه أهون الشرين، فذهبت للمنزل وغَيّرت تاريخ الرخصة بنفسي وصورتها لأن التغيير لا يتضح في الصورة، وحينما انتهى تاريخ هذه

الرخصة حاولت مرة أخرى تجديدها بشكل رسمي من دون جدوى، فجددتها بنفسي كما فعلت أول مرة بأن وضعتها هذه المرة في الماء ومسحت التاريخ بيدي، وصادف أنني أرتكبت مخالفة مرورية فطلب مني الضابط الرخصة فلاحظ على الفور أن هناك تلاعباً ما، فطلب مني أن أركب معه في سيارته تمهيداً لترحيلي للسجن بتهمة التزييف وكدت أن أذهب فيها.

❖ الفوضى تصنع ألف مشـــكلة في موقع واحد، وأجزم أن مشـــكلة المسيري في هذه المساحة ليست مع كثرة الناس وإن كانت هي مشكلة، ولكنها مع الفوضى التي يتمُّ الوقوف بها عند تلك الأبواب والنوافذ، وما يصحبها من مخالفة للأدب واحترام الآخرين وتسلق الأدوار بغير إذن، وإلا لو وُجِدت تلك الآداب لجرت مصالح الناس في مســـارها الصحيح وفي أقصر الأوقات.

❖ ماذا لو عاش المسيري إلى اليوم الذي تحولت هذه المعاني بفضل الله تعالى ثم بهذه التقنية إلى أن تديرها من بيتك وفي ظرف ثوانٍ معدودة ولا تكلفك شيئاً أياً كانت الوثيقة التي تحملها معك، بل يأتيك تنبيه إلى قُرب نهايتها وما تزال بـــك حتى تتمها في لحظـــات! ومباهج التقنية في زمانك فوق خيالك، وبـــات الواحد يقضي مصالحه كلها من شـــتى دول العالم في لحظة وتصله إلى بيته، ويأتي بها من يطرق بابه ويســـلمه إليها كما هـــي تماماً، والحمـــد لله تعالى علـــى كل ما تحقق للعالم في شـــتى المجـــالات. وإن كانت فـــي المقابل جلبـــت للناس شـــروراً فوق تصور الإنسان، ولكن كما قال ابن القيم ﵀: ليس في العالم شرٌّ مَحض.

❖ يظل الإنسان بشــراً مهما ترقى في علمه وثقافته وفكره، وإلا مَنْ يتوقع من المســيري في قامته العلمية وهو محاضر في جامعة عريقة تعلم هذه المعاني الكبار قبل كل شيء أن يمارس خطأ مثل ذلك؟! ولكن يجب أنْ نعيَ أنَّ الإنسان بشــر من الخلق وعرضة للخطأ مهما كان مقامه، وقد كتب حاطب بن أبي بلتعة ﷺ مــع جلالة مقامه وعظمــة إيمانه خطاباً لقريش وهم على كفرهم يُعلِمُهم أن رسول الله ﷺ سيغزوهم وهو حاطب رضي الله عنه وأرضاه، وعلم رســول الله ﷺ بذلك قبــل وصول الخطاب فبعث من يأخذه قبل وصوله، ولما قال عمر رضي الله عنه وأرضاه: دعني يا رســول الله أضرب عنقه، قال له ﷺ: «**وما يدريكَ يا عمــر أنَّ اللهَ اطَّلعَ على أهلِ بدرٍ فقالَ اعملوا ما شِــئْتم فقَدْ غفرتُ لكم**». قال ابن القيم رحمه الله معلقاً: والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث!

❖ إياك والأخطاء المتعمدة ومخالفة الأنظمــة! وكن قدوةً وجزءاً من النظام الذي يقيم شــأن الحياة العام، وإياك أن تكون خرقاً في الســفينة. النظام العام في جملته يريد أن يعين الناس على قضاء حوائجهم بأســهل الطرق، ويدفع عنهم عقبات الطريق، والمشــكلة التــي تواجهه في مرات كثيرة: أن كل واحد يتعامل مع هذه الأنظمة بصفته الشــخصية ومصلحته فحسب، ويحاول جاهداً كسر ذلك النظام لتلك المصلحة بغض النظر عما يترتب على ذلك من آثار عامة.

❖ لنكن جــزءاً من المنظومة، ومســاحةً من الجمــال، ولنحاول ألا نرتكــب خطأ حتى لا نفتــح خرقاً ونكــون جزءاً من الفوضــى. كم هي الحوادث التي جرت في صورة عامة وكبيرة كان صانع خرقها الأول فرداً

من الأفراد! وكم هي المشكلات التي اتسعت يوماً بسبب تخطي فلان من الناس لذلك النظام! وكم هي المرات التي كونت التصرفات الفردية خروقاً كبرى وخلّفت آثاراً عظمى في الطريق!

❖ وقوعك في الأخطاء المتعمدة يجعلك عرضة للقلق والأزمات والخوف والفزع، ويجعلك زمناً من عمرك تقوم فزعاً لطارق الباب، ووجلاً من صوت السائل، ومذعوراً عند كل صيحة في الشارع العام، حتى تجري عليك الخواتيم في النهايات، فلماذا تجلب على نفسك القلق وأنت في مأمن من كل ذلك؟! ولئن تأتي مع الطريق الصحيح ولو طال أسلم لك ألف مرة من قصر الطريق الذي يعرضك للأزمات والمشكلات!

❖ نجح المسيري بتلك الحيلة في اختصار الوقت والزمان واستطاع أن يجمع بين أمرين بعد أن كان لا خيار من ضياع أحدهما، ولكن ذلك تم على قرار خاطئ لا ينبغي أن يمارسه الإنسان العامي فضلاً عن المثقف من أمثال المسيري، وجلبت عليه تلك المجازفة ما تجلبه على أصحابها في كل حين.

لم أكن مستوعباً تماماً للمرض أو للموت على الرغم من إحساسي الشديد بالزمن، فقد ظلا بعيدين عني طيلة حياتي، ولم أحضر سوى جنازة أو اثنتين طيلة حياتي، كما لم أذهب لتعزية أحد تقريباً، ونادراً ما ذهبت لأعود أحد أصدقائي في مرضه، فكنت أكتفي بالمكالمات التلفونية أو بإرسال البرقيات، وكنت أقول ساخراً لزوجتي إنني حينما



يتوفاني الله تعالى لن يحضر أحد جنازتي، وإن كانت ستتلقى سيلاً عرمرماً من البرقيات. ولا بد أن انشغالي الشديد بالموسوعة قد شجّع هذا الاتجاه فيّ وجعلني قادراً على تسويقه لنفسي، وكنت أخبر نفسي بأن أصدقائي سيفهمون ماذا أفعل، ولكن يبدو والحق يقال: أن المسألة كانت أعمق من انشغالي بالموسوعة، إذ كان هناك داخلي اتجاه نفسي نحو التأمل والاحتفاظ بمسافة بيني وبين الأحداث، وهذا الاتجاه هو ما جعلني أسلك هذا السلوك، وحينما توفى والدي كنت في الولايات المتحدة ولم أذرف عليه الدمع، فسألت أستاذي عن سر هذا فأخبرني أن المسافة الجغرافية بين مصر والولايات المتحدة ضخمة وأن لهذا دخلاً كبيراً، ولم أبكه إلا بعد زيارتي لقبره في دمنهور، وأما والدتي فقد ماتت في الخامسة والسبعين وكانت علاقتي بها قوية، وذهبنا لتشييع جنازتها في دمنهور وظللت صامتاً ولكني انفجرت باكياً عند قبرها، ثم لزمت الصمت وغصت في التأمل. ويبدو أن مقدرتي على التجريد كانت وراء الملاحظة الغبية التي تقدمت بها لصديق لي في مثل سني ذهبت أعزيه في وفاة والدته، وأخبرته بأنه من الناحية الإحصائية يمكن إثبات أن أمهاتنا قد بلغن السن التي يتوقع فيها الإنسان موتهن، فنظر إليّ بدهشة فاعتذرت وقلت: البقية في حياتك. كما كنت أفكّر في الموت نظرياً كثيراً، وتحوّل إلى موضوع فلسفي مجرد، أضعهما في إطار وأخلق مسافة بيني وبينهما وأتأمل فيهما وأغرق في التأمل دون إحساس شخصي وجودي مباشر.

❖ طغيان الدنيا والشعور بالخلود فيها ونسيان الموت أخطر ما يواجه الإنسان في حياته، ولذلك قال ﷺ: «**أكثروا مِنْ ذكْرِ هادمِ اللَّذَّات**»، وفي سورة التكاثر قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر: ١-٢] وهذا الذي يحكيه المسيري عن نفسه وأنه ما كان يذكر الموت إلا لماماً هي طبيعة الإنسان التي لا تكاد تنفكُّ عنه، حتى أنك تجد من يخوض في حرمات الله تعالى، ويرتكب أعظم الموبقات وتغيب عنه الآخرة والموت إلى درجة يصنع فيها كل سوء، وقد لا ينتبه بالكلية حتى يفوت عليه كل شيء، ومن فقه الإنسان أن تكون قضية الموت على باله وأقرب ما تكون منه.

❖ تذكُّر الموت مفضٍ بك إلى استثمار وقتك وزمانك وعمرك فيما ينفعك في الدارين، وإلحاح هذه القضية على فكرك وحضورها الفاعل في مشاعرك مؤذن بمسابقة زمانك بكل ما تملك من جهد، وغيابها في المقابل مؤذن بالضياع، وثمة أناس يقعدهم هذا المعنى عن الحركة والعمل ويبعث في نفوسهم التشاؤم، ويبقيهم أسرى للأوهام، وهذا ليس من شأن المسلم في شيء، فالموت باعث للحياة ومؤذن بالتضحية في سبيل الآخرة بكل شيء.

❖ من أوضح صور غياب هذا المعنى الكبير في حياة المسيري أنه لا يشارك في جنائز الموتى ولا يواسي المصابين والمكلومين، وفي الوحي قال ﷺ: «**مَنْ عزّا مصاباً كساهُ الله مِنْ حُللِ الجنَّةِ يومَ القيامة**»، وقال ﷺ: «**مَنْ شهِدَ الجنازةَ حتَّى يصلّيَ عليها فلهُ قيراط، ومَنْ شهِدَها حتَّى تُدفنَ فلهُ قيراطان**»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «**مثل الجبلَينِ العظيمَين**»، ومن فقه الإنسان واستثماره لحياته أن يحاول أن يشهد هذه المعاني ليكاثر بها في الموازين.

❖ حضور تشـييع الجنائز وتعزية المصابين ـ مع ما فيها من أجور ـ فهي تحيي قلبك وتعظه وتذكره بحقيقة وجـوده، وكم من معرِضٍ صدمه موت صديق أو قريـب وألقى في قلبـه الحياة! وهي جـزء من الحقوق والواجبات لكل من حولك، ومهما بلغت الظروف لا ينبغي للإنسـان أن يتخلف عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

❖ التوازن من أعظم ما ينبغي أن يكون في حياتك، وقد قال ﷺ: «**إنَّ لربِّكَ عليكَ حقاً، وإنَّ لنفسكَ عليكَ حقاً، ولأهلكَ عليكَ حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه**»، وقد أثّر مشـروع المسيري الشـخصي على هذه الجوانب وتوجّه بكليته إلى مشروعه، ومن فقهك أن تحافظ على هذا المعنى الكبير في حياتك وألا يسـيطر جانب على آخر؛ فتضيع بعـض حقوق الله تعالى وحقوق من حولك من العالمين. في مرات كثيرة ينجح الإنسـان في إدارة مشـروعه الشـخصي بامتياز، ويكوّن قدوة ملهمة فيه، ولكن ذلك النجاح يكون على حساب الأسرة، أو ينضج دور الأسرة على حساب أدوار أخرى، ومن الفقه أن يكون ثمة قدر من التوازن حتى يأتي على أمانيه في النهايات.

❖ التـوازن الـذي نتحدث عنـه في الأدوار السـبعة: (مشـروعك الشـخصي، والإيمانـي، والأسـري، والاجتماعي، والمالـي، والعمل، والصحي) ليس مقاسمة بينها بالتمام، وإنما ينبغي أن يكون دائرة التركيز فيه وأكثر الأوقات لمشروعـه الشخصـي، وما بقي موزعاً بين بقية أدواره، وهذا الفقه يحتاج إلى عناية كبرى بالجانب الإيماني، لأنه قاعدة التوفيـق الكلية والكبرى بما بقي، ومن أصلـح ما بينه وبين الله تعالى أصلح الله تعالى له كل شيء.

> بدأت كتابة الموسوعة وأنا في الثلاثينات من عمري، وكنت أعمل فيها ليلاً ونهاراً، أبدأ أحياناً في السادسة صباحاً ولا أنتهي إلا في الثانية عشرة مساءً.

❖ لقد تحقق للمسيري نجاح في مشـــروعه الشخصي، وسبب ذلك بعد توفيق الله تعالى يعود للتركيز الذي منحه إياه، ومشروعٌ تمنحه عمرك ووقتك وفكرك لا بد أن يكون شـــيئاً مع الأيام. وأخطر ما يواجه الإنسان هذا الشتات الذي يكاد يلتهم كل شـــيء من وقته وفكره ومشاعره، ويبقيه ممزقاً ولا يكاد يصل إلى شيء.

❖ لقد استطاعت التقنية اليوم (وسائل التواصل الاجتماعي أنموذجاً) أن تلتهم كل شـــيء ولا تكاد تبقي لك شـــيئاً من وقتك لتســـتثمره فيما ينفعك، وكلما حاولـــت أن تتخفف ألقت إليك بـــكل مدهش من الفراغ والفوضى فتعود في غمرتها من جديد. ولن تستطيع أن تحقق شيئاً إلا من خلال تقدير زمانك ووقتك والشّـــحّ به والتركيز على مشروعك الشخصي بكل ما تملك من مدخرات.

❖ يمكنك أن تقف وتســـأل نفســـك: ما الذي حققته فـــي نهاية يومك وأســـبوعك وشـــهرك وعامك؟ ما الإنجـــازات التي تحققت لـــك في تلك الساعات والأيام والأسابيع والأشهر التي مرت من حياتك؟ ويجب أن تكون هذه الأسئلة فاعلة ومؤثرة لتنقلك إلى حياةٍ أكثر عملاً وتركيزاً وإنجازاً، ولا تكون أسئلة قاتلة لمواطن المتعة والدهشة في قلبك ومشاعرك فحسب.

❖ لقد كان المسيري يستقطع من وقته لمشروعه الشخصي من الساعة السادسة صباحاً إلى الثانية عشرة مساءً بمعدل ثمانية عشرة ساعة يومية، وهي ذات الساعات التي يقضيها محمود شاكر في طريق تكوين مشروعه العمري، ومثلها أو قريباً منها ما كان يقطعه علي الطنطاوي في سبيل تلك الأماني الكبار، والوقت هو الحياة، ومثلك أوعى بالزمان.

على الرغم من تقدمي في السن فإن حصتي من النشاط والصحة كانت آخذة في الازدياد، بحيث كنت أكثر نشاطاً في الثامنة والخمسين مني في الخامسة والثلاثين. كما أن الله تعالى عافاني من أي مرض طوال هذه المدة، ولذلك حينما يحدثني أحد عن التقدم في السن كنت لا أفهم ما يقول.

❖ من فقهك أن تعتني بصحتك وتجعلها نصيب عينيك، وفي الوحي: «**ولجسدكَ عليكَ حقاً**»، وعدم الاهتمام بهذا الدور مفضٍ بك إلى القعود والتخلف عن مشروعك مع الأيام، وفي حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، علِّمْني شيئاً أسأله الله تعالى، قال: «**سلوا الله العافية**»، وإذا تأملت في الشرع وجدت جملة وصايا تعينك على هذا المعنى الكبير، منها ما أشار إليه النبي ﷺ في حديث الذكر الذي عند النوم: «**سبِّحا الله ثلاثاً وثلاثين، واحمداهُ ثلاثاً وثلاثين، وكبِّراهُ أربعاً وثلاثين**»، قال: «**فذلكَ خيرٌ لك مِنْ خادم**»، وفي الحديث الآخر قال: «**يعقدُ الشيطانُ على قافيةِ أحدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عقدٍ ثمَّ يقولُ:** (ارقدْ عليكَ ليل طويل)، **فإذا قامَ فذكرَ اللهَ انحلَّتْ عقدة، وإذا توضَّأ انحلَّتْ عقدة، فإذا صلَّى**

انحلَّتْ عقده الثلاث فأصبحَ نشيطاً طيِّبَ النفس»، ومثل ذلك الأكل، فقد قال ﷺ: «بحسْبِ ابنِ آدمَ لقيمات يقمْنَ صلبه» وغالب الأمراض من الفوضى في هذا الباب، فإذا انضاف إلى ذلك وِرْدٌ من المشي والحركة الفاعلة في يومك وليلتك كان ذلك مفضياً بك بإذن الله تعالى إلى صحة وعافية ونشاط في بناء مشروعك.

❖ المفاهيم والأفكار والتصورات من أعظم المؤثرات في صحتك ومرضك، وكم من شاب في قابل عمره يعيش وهناً وعجزاً، وتراه وكأنك ترى إنساناً في ربوع السبعين والثمانين، وترى آخر في الستين والسبعين وكأنك ترى شاباً في قابل عمره، ومن فقهك أن تصحب أصدقاء وكُتَّاباً مليئين بالبهجة والسرور والجمال، مبدعين ملهمين، ويكون لك مشروعك الخاص الذي تجد فيه روحك ومشاعرك، وتعيش فيه أيامك، وتجد ما يبقيك حياً مورقاً مع الأيام!

”
في اليوم الذي انتهيت فيه من الموسوعة توفي زوج بنتي فبدأت أفقد المقدرة على النطق أحياناً، ثم بدأت أشعر بدوار كلما فكرت أو مارست أي أحاسيس، وقد سقطت مرتين أو ثلاثاً على الأرض، ويبدو أن مرضي كان نفسياً نتيجة للإرهاق الذي أصابني من جراء العمل المتواصل في الموسوعة.
“

❖ التركيز على مشروعك الشخصي وبذل أوقاتك فيه من أعظم موجبات النجاح الكبرى، على أن يكون ذلك في ظلال فضيلة التوازن التي أشرنا إليها قبل ذلك، فإذا ما كان ذلك مفضياً بك إلى الإرهاق الذي يولّد



تلك الأمراض التي خَلّفها في حياة المســيري، فليس ذلك من التوازن في شيء. ولذلك كان من فقهك هذه المواءمة بين الولاء لمشروعك الشخصي وبذل الأوقـات فيه والتركيز عليـه، وبين وجود حالات الراحة والفســحة والترويح التي تعينك على مدافعة الكلال الذي يواجهك من جهة، والحفاظ على صحتك من جهة أخرى. والتوازن أعزُّ مفقودٍ في زمانك فتنبه لذلك.

كما أنني كنت عبر كتابة الموسوعة أعامل نفسي خاصة في مسألة الوقت بيدٍ من حديد، وكنت كلما جلست في مكان لا أكف عن التفكير في الموسوعة، ولا أكف عن الكتابة في أي ورقة تقابلني، وحينما كان أحد أصدقائي يزورني أو كنت أروّح عن نفسي كنت أتصنّع الابتسامة والمشاركة في الحديث وأنا هناك في عالم الموسوعة وأشعر بالذنب الشديد لضياع وقتي، وحينما كان حفيدي نديم يأتي من الولايات المتحدة وكنت أخفي أوراقي تحت الأريكة وأبتسم في وجهه وأتظاهر بأنني ألعب معه إلى أن تنادي عليه جدته فأخرج الأوراق بسرعة وأستأنف الكتابة، بل كنت قبل أن أخلد للنوم أضع إشكاليةً ما في عقلي ثم أنام، على أن يستمر عقلي في التفكير، حتى إذا استيقظت في الصباح ألفيت بعض ملامح الحل قد تبلورت، بل إنني حينما كنت أغمض عيني أرى بقعة واسعة من النور.

❖ أعظم مَعْلمٍ في ســيرة المســيري هذا التركيز الشديد على مشروعه الشخصي وبذل الأوقات فيه، وجعله أولوية قصوى في حياته، والإقبال عليه بروحه ومشــاعره حتى تحققت له تلك الأماني الكبار فــي النهايات. وإذا

رُزقت هذا المعنى أتيت بعد ذلك على كل شـــيء، وهذا الذي يحدثك عنه المسيري هو الشغف الذي نحدثك عنه في المشاريع الشخصية بالذات.

❖ إذا رُزقت الشـــغف فســـتأتي عليك ذات اللحظـــات التي حكاها المسيري بقوله: (كما أنني كنت عبر كتابة الموسوعة أعامل نفسي خاصة في مســـألة الوقت بيد من حديد)، فإنك لا تستطيع أن توجّه أوقاتك كلها إلى فكرة أو مشروع أو قضية إلا إذا ناغمَتْ روحك واستولت على فكرك ومشاعرك وبذلت لها كل شيء، وحينئذٍ ســـتجري عليك تلك التصرفات (وكنت كلما جلســـت في مكان لا أكف عن التفكير في الموســـوعة، ولا أكف عن الكتابة في أي ورقة تقابلني)، بعد ذلك من دون تكلّف أو عناء. وتتكون تلك المشـــاعر التي يحدثـــك عنها (وحينمـــا كان أحد أصدقائي يزورني أو كنت أروّح عن نفســـي كنت أتصنّع الابتســـامة والمشاركة في الحديث وأنا هناك في عالم الموســـوعة وأشـــعر بالذنب الشـــديد لضياع وقتي)، ومن عرف قيمة المشـــاريع وما يصحبها من شغفٍ أدرك ما يقول المسيري بكل تفاصيله ومعانيه.

❖ إذا أردت فصول هذه المعاني فابحث عن مشـــروع وفكرة وقضية تتناسب مع طاقاتك وقدراتك وإمكاناتك، وتكون حبك وشغفك، وتجري بعد ذلك في شـــغاف روحك، فكن جاداً وتعرّف على ما يلامس شـــغاف قلبـــك ومشـــاعرك، وقـــرر أن تعثر علـــى ما يوافـــق طاقاتـــك وقدراتك وإمكاناتك، وستحدثنا يوماً عن فصول ذلك الربيع في حياتك.

❖ لا تحاول أن تقلّد في هذا المعنى مهما كانت الدواعي إلى ذلك، كن مســـتقلاً في فكرتك، وحراً في توجهـــك، وبطلاً ملهمـــاً في صناعة



واقعك، فأنت أعرف إنسان بما تملك، وقد قال الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾ [القيامة: ١٤-١٥]، ودَعْك من التردد الذي يقف في كل مرة عثرةً في طريق أحلامك الكبار.

❖ ليس بالضرورة أن تجد مشروعك من أول وهلة، أو تتعرّف على فكرتك من أول محاولة، أو تكتشف شغفك من بداية الطريق، ابدأ بأقرب الأشياء إليك وأكثرها التصاقاً بك وأقواها إلهاماً لمشاعرك، ثم واصل الطريق وستصل أمانيك وأحلامك الكبار يوماً ما.

❖ الشغف أول معالم المشروع، فإذا وجدته فقد وجدت كل شيء، فإن لم تجد ما يمثّل هذا المعنى فيمكنك أن تنزل إلى منزلة الحب، وهي أنك تجد حباً لفكرة أو مشروع ما أو قضية، أو مجال أو تخصص من التخصصات، فابدأ رحلتك معه وكن على الطريق، فإن لم تجد شغفاً ولا حباً فأقبل على اهتمامك بشيء ما حتى ينمو فيكون حباً وشغفاً في مستقبل الأيام.

حكى رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قصة مرضه بالسرطان وأنه ذهب للعلاج إلى أمريكا في الفترة التي وقعت فيها أحداث ١١ سبتمبر، قال: حينما عدت للقاهرة سألني أحد الصحفيين من الذي قام بعملية ١١ سبتمبر؟ حاولت أن أبين له أنه لا يهم من قام بها وإنما المهم كيفية توظيفها، وحينما وجدت أنه غير مستوعب لفكرتي قلت له: زوجتي فعلتها، خرجت لشراء كابتشينو وغابت لمدة ساعة، وهي الفترة التي وقع فيها الحادث.. ثم قلت له ما أتيت به من أدلة لا يختلف في قوته وضعفه عن الأدلة التي تقدمها الولايات المتحدة عن تورّط هذه المنظمة أو



تلك في هذا الحادث الإرهابي، وبالتالي يجب ألا نضيع أوقاتنا في البحث البوليسي وأن نركّز على التحليل السياسي.

❖ ما أكثر ما ينشــغل الناس بالظواهــر عن المعانــي، والصور عن الحقائق، وتذهب أوقاتهم في أشــياء لا علاقة لها بما يجري من أحداث. من الذي قام بالحادث؟ من الذي صنع تلك الفوضى في المكان الفلاني؟ من الذي ارتكب تلك الجريمة هناك؟ ثم ماذا؟ لا شيء سوى الضياع. وما أحوجنا إلى سؤال: لماذا؟ ما الأسباب والدواعي؟ وكيف تعالج مثل تلك الظاهرة في مستقبل الأيام؟

❖ الأســئلة التي يكون دورها ملء الفراغ فحســب تستحق مثل هذه الإجابات الصادمــة: (قلت له: زوجتي فعلتها خرجت لشــراء كابتشــينو وغابت لمدة ساعة، وهي الفترة التي وقع فيها الحادث)!

❖ كم هم المنشــغلون بهذا الحادث على مســتوى العالم كله؟ وكم ضاعت فيــه من أوقــات للجماهير وعمــوم الناس الذيــن لا علاقة لهم بالحادث في شــيء؟ أمَا إنَّ هذه الأوقات التي أهدرت في ذلك الحادث ورؤية صوره ومشاهدة أحداثه وسماع ما يتعلق من تحليلات لو استثمرت لصنعت مشروعاً بهيجاً لصاحبها، أو لدفعت بمشروعه الأصل وكونت له مستقبلاً يليق به مع الأيام!

❖ وقتك حياتــك، وهو أثمن مــواردك على الإطــلاق، ومن خلاله ستأتي على كل أمانيك، والتفريط في شيء منه مؤذن بالضياع، فكيف به كله؟! ومن توفيق الله تعالى أن تخطط له وتســتثمره بكل ما تملك وتنتبه



من الضياع، فزمانك سريع الإيقاع، مكلف المؤن، كثير الصوارف، ومثلك أوعى من أن يذهب عليك في الهوامش والأوهام.

❖ الدول الكبرى خاصة تنظر للحدث من زوايا كثيرة، ولا تغرق في مرات في التفاصيل الصغيرة، وتظل تسأل نفسها كيف تستثمر الحدث في قضاياها الكبرى، وتعتبره فرصة مواتية جداً وسانحة لتوظيفه في شأنها العام، ولذلك يخبرك المسيري بهذا المعنى فيقول للصحفي: (ثم قلت له: ما أتيت به من أدلة لا يختلف في قوته وضعفه عن الأدلة التي تقدمها الولايات المتحدة عن تورّط هذه المنظمة أو تلك في هذا الحادث الإرهابي).

❖ إذا غاب طالبك عن الحلقة فينبغي أن تنشغل بسؤال: لماذا غاب؟ وكيف نجعله لا يغيب؟ ومثل ذلك إذا لم يأت ولدك لما تريد منه في بيتك، وطالبك في المدرسة، وفلان في مشروعك ونحو ذلك مما تجري عليه فصول التغيير الكبرى في مستقبلك، وما عدا ذلك فضياع لا حدَّ له.

> عدت إلى أمريكا من أجل إجراء عملية نقل النخاع، وقال لي الطبيب هناك: من خلال عملية نقل النخاع وصلتَ إلى ما يسمى بالكمون الجزئي، الأمر الذي يعطيني أربع سنوات، فابتسمت وقلت لزوجتي ضاحكاً: هذا يعني أنني يجب أن أحاول أن أنتهي من مشروعاتي الفكرية في ثلاث سنوات ونتنزّه في السنة الرابعة والأخيرة.

❖ الإيمان بالقضاء والقدر والاستسلام لله تعالى من أعظم ما يعينك في التعامل مع كل ما يصيبك من أحداث! وكم من إنسان كان مجرد الخبر

بمرضه كافياً لقتله وتكفينه! وكم من إنسان تعامل مع تلك الحوادث بمقتضى الإيمان، واستطاع أن يستثمر ما بقي من حياته كما يفعل الأصحاء لا فرق! وممازحة المسيري لزوجه على إثر ما قال الطبيب واحدة من مباهج الإيمان في قلوب المؤمنين.

❖ ظلّت قضية المشروع في حياة المسيري هي أبرز ملامح شخصيته، وبقي يربط كل ما يصيبه في الطريق بمشروعه الشخصي وتأثيره عليه في النهايات، كما يقول لزوجه: (وقلت لزوجتي ضاحكاً: هذا يعني أنني يجب أن أحاول أن أنتهي من مشروعاتي الفكرية في ثلاث سنوات ونتنزّه في السنة الرابعة والأخيرة)، وإذا رُزق الإنسان الشغف بمشروعه الشخصي فقد وجد كل شيء.

❖ الولاء للمشاريع من أبرز سمات الناجحين، ولولا هذا المعنى الكبير في نفس المسيري ما تكونت له تلك المشاهد التي أرادها من مشروعه الشخصي، ولا سبيل للنجاحات الضخمة إلا من خلال هذه العلاقة الوثيقة بينك وبين فكرتك ومشروعك الشخصي وقضيتك التي نذرت أن تعيش لها ما بقي بك الزمان.

تعلمت الكثير في مرضي: تعلمْتُ أنا الذي لم أمرض إلا مرة واحدة تقريباً في أثناء كتابة الموسوعة، بل وكنت أتحدّث عن السيطرة على الجسد، تعلمْتُ حدود الجسد الإنساني، وحدود المقدرة الإنسانية، وبدأت أتعاطف مع المعوقين أكثر من ذي قبل، وتعلمت ما قاله لي أحد الأصدقاء: إنه لا يوجد مرض، وإنما يوجد مرضى، أي أنه لا توجد قوانين عامة أو نماذج مجردة، وإنما يوجد أشخاص

يصابون بمرض ما ويستجيب كل واحد منهم للمرض بطريقة مختلفة، كما غمرني أصدقائي وتلاميذي بالمحبة، وحينما كنت أسير في شوارع لندن كان كل الناس يساعدونني، وحينما أركب إحدى وسائل المواصلات العامة يتركون لي مقاعدهم.

❖ العافية نعمة، ومن فقهك أن تدرك ذلك، ومن المحال دوام الحال، ومن أعظم وأجل وصايا نبيك ﷺ: «**اغتنِمْ خمساً قبلَ خمس: شبابَكَ قبلَ هرمكَ، وصحَّتكَ قبلَ سقمك، وغناكَ قبلَ فقرك، وفراغَكَ قبلَ شغلك، وحياتَكَ قبل موتك**»، ولا تغرك عافية جسدك وشباب همتك فإنها إلى نقص وزوال مع الأيام، وها هو المسيري يخبرك أنه لم يمرض في أيام الموسوعة إلا مرة واحدة وكان يتحدث عن السيطرة على الجسد، ثم فجأه المرض فتعلّم حدود الجسد الإنساني ومقدرته الشخصية، وأقبل يتعاطف مع المعوقين بعد أن كان لا ينظر إليهم.

❖ تخلص من التأجيل، وبادر مشاريعك، واغتنم قوتك وشبابك وفراغك، واكتب كل ما لديك، واملأ يومك بالعمل فسيأتي زمان إن طال بك العمر لا تستطيع أن تمدَّ يدك إلى شيء، وهو أقرب ما يكون إليك إن لم يباردك الموت. لقد تبدّلت رؤى المسيري عن الحياة، وستتبدل لك، وسيجري عليك ذات المعنى في يومٍ من أيام زمانك، فخذ من التجربة ما يكفيك للحياة!



بدأت في اقتناء الكتب وهي عادة غير معروفة في أوساط أبناء التجار، وكان والدي يقول لي: (انتهِ مما عندك من كتب، ثم اشترِ غيرها بعد ذلك)، ولذلك لم يكن من الممكن أن أطلب ثمناً للكتب التي اشتريتها، مما كان يتطلّب مناورات كثيرة، بل كنت أحياناً أستغني عن ساندويتش الفسحة الصغيرة.

❖ كل صناع الحياة هم أثر من آثار الكتب، وأوجه مشـــرقة لأحداثها الكبار وهي في النهاية كل شـــيء. لا يمكن لإنســـان أن يكون مدهشاً في فكره وملهماً في واقعه وآسراً في حديثه وهو لا علاقة له بالكتاب مطلقاً. القراءة تصنعك، والكتاب يصعد بك مدارج الجمال ويخلق منك ما تسعِدُ به العالمين.

❖ الأسرة الناضجة تلك التي تجعل القراءة جزءاً لا يتجزأ من منظومة التربية القيمية التي تدار في رحابها، لقد ساهم والد المسيري في بناء ابنه وتأهيله من وقـــت مبكر من خلال تلك المكتبة التـــي هيأها له ثم أوصاه بتلك الوصية العظيمة (انتهِ مما عندك من كتب، ثم اشترِ غيرها بعد ذلك)، ولا أعلم عادةً أكثر بناء للأبناء من هذه القراءة، وأعتقد جازماً أن الأســـرة التي تعتني بهذه العادة وتبني هـــذا المعنى الكبير في نفـــوس الأبناء قد قطعت ثلثي المسافة باتجاه المستقبل الزاهر لأولئك الأبناء.

❖ القراءة بمثابـــة المربي الصامـــت، تارة تقع عينـــك على أحداث صاحب همّةٍ فتهبُّ رياح المجد في قلبك ومشاعرك، وتاره تقرأ فصولاً في



الخشـية والأدب وإجلال الله تعالى وتقديس أمره فتصنع في واقعك ألف معنى، وتـارة تُعلّمـك كيف تكون مشـاركاً فاعـلاً وناهضـاً مؤثراً في المساحات التي تعيش فيها، وتارات تكوّن لك الحياة!

❖ ما أكثر ما تعتني الأسر بالترفيه والزينة وتظنها كل شيء، فتنشأ أجيال رخوة ضعيفة مترددة متشـائمة، وتبقى عمرها كلها رهناً للأوهام والفوضى والضياع، ولا تغني عنها تلك الأموال التي صرفت عليها في شيء.

❖ فرق كبير وضخم بين اثنين، الأول: نشـأ فـي أحضان المكتبات وتربى على فصول الهمـم والمعالي من أحداثهـا ورأى حضارات الأمم ونهضة الأفراد ومساحات العمل والبناء، وآخر لا علاقة له بشيء من ذلك، الأول: أصبح قادراً علـى التواصل والتأثير وصناعـة واقعه بكل ممكن، وأقرب إلى المسـتقبل الذي يريد، وكلما جاء إلى مـكان ملأه بالأفكار الجادة والمعاني الكبيرة، والثاني: خامـل ضعيف بارد لا يكاد ينجح في شيء، ويبقى جزءاً من عمره يحدثك عن المشكلات والعقبات والظروف البائسة التي تواجه العالمين.

❖ قليل من العنايـة بالكتاب، واهتمام بتكويـن مكتبات صغيرة في البيوت، وتركيز بسيط على كتب القصص، وشيء من المسابقات، وبعض اللقاءات عن الحياة العامة وقصص الأبطال ومغامرات الناشـئة ستحبب هذه الفاتنة إلى أجيال اليوم وكبار الغد، وإن طال الطريق، ولكنه سـيترك رسوماً من الجمال في كل زاوية من زوايا ذلك البيت، وفي كل مساحة من أفكار أولئك الناشئة.



كان يمكن لكل هذه التجارب التي خضتها طفلاً أو صبياً يافعاً أن تتحوّل إلى مجرد تجارب شخصية وألا أدرك مغزاها الاجتماعي، وألا أعمم منها نماذج تحليلية، وألا تساعدني على ولوج عالم الفكر لو لم ينعم الله عليّ بمدرسين وأساتذة جامعين ساعدوني ودفعوني ودعموا ثقتي بنفسي، وساعدوني على التفكير النقدي.

❖ سيظل المعلم القدوة رائد الجمال والبهجة والإبداع في المساحات التي يتواجد فيها، وما حاجتنا إلى شيء كحاجتنا للقدوات! المعلم الناهض يستطيع أن يهب لنا أسراباً من الأحياء في مستقبل الأيام، ويكوّن لنا مجتمعات ناهضة ولو طال الطريق، ولا أعلم بعد دور الأسرة دوراً مؤثراً وبناء ملهماً كالذي يجري على أيدي روّاد النهضة من المعلمين الجادين.

❖ ماذا لو أن المعلم أدرك دوره، وعرف تأثيره، وأقبل على تربية تلك الأجيال من خلال تركيزه على هذا المشروع الكبير؟! ماذا لو عرف كل معلم أن بناء الإنسان وتأهيله للحياة أعظم المشاريع على الإطلاق؟! كم من ناهض اليوم وحامل لفكره ويعيش لقضية وملأ الأرض روحاً ومعنى هو بناء معلم في يومٍ من أيام الدهر؟!

❖ ركّزوا أيها المعلمون، أقبلوا على الله تعالى وأصلحوا ما بينكم وبينه، وسلوه في كل وقت وحين أن يفتح عليكم من واسع فضله ويرزقكم من يمد آثاركم، ضعوا أعينكم على النابغين المتميزين، ولا تحرموا كل من تجدونه في تلك الساحات من ابتسامة صادقة، وكلمة جميلة، وعون في



بعض ما يعرض لهم، وغضوا أبصاركم عن كل أخطائهم التي تعرض لكم في الطريق، وتأكدوا أن أيام الأفراح من هؤلاء فوق ما تتصوّرون.

كان أهم أساتذتي الأستاذ شفيق مدرس الجغرافيا، والأستاذ غزلان مدرس التاريخ، والأستاذ روفائيل مدرس التاريخ الذي توسّم فيّ خيراً (دون أي مقدمات من جانبي أو أي شواهد من سجلي المدرسي) وأعلنَ للطلبة أني عبقري، وبدأ يطلب مني أن أكتب أبحاثاً خارج المقرر، وحين كنت أنتهي منها كان يقرؤها على الطلبة، الأمر الذي كان يسبب لي حرجاً شديداً وسعادة بالغة في الوقت نفسه، لم أكن أفهم سر حماسته لي، فحتى ذلك الوقت (سنة ثالث ثانوي) كان إحساسي أن ذكائي عادي وربما أقل من العادي، ويشهد بهذا أدائي المدرسي: الرسوب في السنة الثالثة الابتدائي والنجاح من الدور الثاني، والرسوب في السنة الثانية الثانوي والنجاح في الدور الثاني، ودرجات منخفضة للغاية، وكره عميق للرياضيات واللغة الإنجليزية، ودروس خصوصية في وقت لم تكن فيه مثل هذه الظاهرة معروفة.

❖ الاعتراف بالفشل والإخفاق دليل على درجة عالية جداً من الثقة بالنفس، وما أكثر الذين يُظهِرون النجاحات التي يحققونها ويحتفلون بها ويصنعون منها شيئاً ويَجْبنون عن الحديث عن الإخفاقات التي وقعوا فيها والتجارب التي لم يحالفهم الحظ فيها، حتى خلقوا خندقاً بين الناس وصور النجاحات التي يرونها في تلك النماذج، حتى أنه يخيل لكثيرين أن

هؤلاء الناجحين غير هؤلاء البشـر الذين يخوضون هذه المعاني الكبار، ولن نستطيع أن نُقرّب المسافات لعامة الناس حتى تُذكر لهم كل التحارب بنجاحاتها وإخفاقاتها على حد سواء، حتى يتمكن أولئك من رؤية الصورة كاملة ويتجرؤون حينها على صناعة فصول القصة من جديد.

❖ هذه صناعة المعلمين المتميزين فحسب، ما أروع معلم المسيري وقد صنع له ألف حكاية كما يحكي المسـيري عـن معلمه وهو يمهّد له الطريق: (وأعلنَ للطلبة أني عبقري، وبدأ يطلب مني أن أكتب أبحاثاً خارج المقرر، وحين كنت أنتهي منهـا كان يقرؤها على الطلبة، الأمر الذي كان يسبب لي حرجاً شـديداً وسعادة بالغة في الوقت نفسـه)! وكم من كلمة وتصرف وموقف صنع إنسان الغد بامتياز!

❖ يا أيها المعلمون، أولئك الصغار الذين يجلسـون بين أيديكم في كل صباح هم قادة المسـتقبل وبنـاة الحضارات الكبـرى، وعلى أيديهم سـتجري فصول العمل والإبداع، فـلا تبخلوا عليهم بشـيء من الدعم والتحفيز والتشجيع.

❖ لقد كان معلم اللغـة العربية في الصف السـادس الابتدائي خلف الفاهمي رحمه الله يجعلني مسؤولاً عن رصد أخطاء طلاب الصف في كل حصة قراءة، وأنشأ فيّ حينها روحاً متوهجة للإبداع في هذا المجال. وحين أجاب طالب من الطلاب في حصة الرياضيات التي حضرها المشرف التربوي تبرع المعلم بزجاجة مشروب لذلك الطالب، فكانت هي عربون الوفاء بينه وبين تلك المادة في مستقبل الأيام، وما أكثر تلك المعاني التي صنعت مبدعين وروت عطاشى وتركت ألف معنى في نفوس أولئك الطلاب!

❖ الناجحون ليسـوا بالضرورة متميزين في المـدارس العامة، فهذا

المسيري الذي يُعلّمنا اليوم لغة البناء والمشاريع والتضحيات وصناعة الإبداع رسب في الثالث الابتدائي، ورسب في الثاني الثانوي وكانت درجاته منخفضة جداً ولا تدلك على تميز أو تنبئك بمستقبل تلك الأيام الواعدة فيما بعد. لقد كان يكره الرياضيات، واللغة الإنجليزية وكان يُعوّض ذلك النقص من خلال الدروس الخصوصية، ومع ذلك كان بهيجاً مبدعاً في المراحل المتأخرة من حياته وخاصة في التعليم العالي.

❖ مشكلة التعليم الأزلية أن كل من دخل أسوار المدرسة فعليه أن يكون متميزاً في كل شيء وإلا أصبح موسوماً بالضعف والفشل والإخفاق، وترمقه عيون المعلمين بالشفقة وترى أنه ليس أهلاً لشيء بعد ذلك، وقد يموت في اليوم الواحد ألف مرة.

❖ أيها المعلمون، لا ترهنوا مستقبل هؤلاء الأبناء بمستوياتهم الدراسية، وسّعوا نظركم وافتحوا أعينكم على جوانب الإبداع في تلك الشخصيات، ولا توقفوا تقييم تلك الأجيال القادمة على درجات ترصدونها من خلال أوراق الاختبارات، بثوا الأمل وافتحوا نوافذ الفأل، وابعثوا في نفوسهم الجمال، وإياكم ألف مرة أن تنظروا إليهم بموازين تلك الدرجات.

❖ لماذا نجعل بوابة المدرسة هي البوابة الوحيدة للإبداع؟! لماذا نصرُّ على كل تلك الأجيال: أن تدخل من عنق الزجاجة؟! لماذا نختصر كل تلك العقول في مجالات محدودة وتخصصات ضيقة والحياة أوسع من ذلك بكثير؟! لماذا لا ننظر إلى المخفق في المدرسة على أنه سيكون بطلاً في تخصصات أخرى، ونعينه بالتوجيه والدعم المبكر على التوجه إلى تلك المناسبة لطاقاته وقدراته وإمكاناته؟! ما أحوجنا لهذا الفقه في مساحات كثيرة من الحياة!

> كنت الطالب الوحيد الذي رسب في مادة الرسم في السنة الأولى الثانوي، ومع هذا قرر الأستاذ روفائيل أن لديّ شيئاً ما، ولذا وجدتني مضطراً ألا أخيب ظنه وأن أقدح زناد فكري كي آتي بأشياء عبقرية كما هو متوقع مني، وتحسّن أدائي الدراسي بعد ذلك بسرعة أذهلتني أنا شخصياً!

❖ لا تيأس حتى لو رسبت في مادة الرسم، حتى لو أخفقت في المادة التي لا يخفق فيها أحد من الخلق، لا ترهن نفسك لمواقف عارضة مهما كان أثرها ذلك الحين في نفسك ومشاعرك، قُمْ مرةً أخرى، حاول أن تقف على قدميك، كرر المحاولة، قرر ألا تنهزم، دافع ذلك الإحباط الذي يغشاك من حين لآخر، كن صعباً لا تكسره العقبات، فالمسيري الذي رسب في مادة الرسم هو الذي شكل للأمة جزءاً من مستقبلها، ورهن نفسه وقفاً لإعادة مجدها وروحها، وكشف ستار أعدائها، وعاش مناضلاً عن الحقيقة ودفع في سبيل ذلك كل ممكن.

❖ أياً كان موقعك ومكانتك، سواء كنت أباً أو معلماً أو مربياً أو حارساً على ثغر لا تفتر عن بث الفأل، وزرع الأمل، وغرس سنابل الخير، وبث الأفراح في قلوب العالمين من حولك. كلما لقيت عاملاً في مكان فابعث في قلبه الحياة بكلمة، وبثّ في مشاعره مستقبل الأفراح، وتَعوَّض عن لعن الظلام من حولك بإشاعة الأنوار في تلك المساحات.





كانت المكرونة بالنسبة لي هي السحر بعينه (كنت أتصوّر في طفولتي أنها طعام أهل الجنة)؛ ولذا كان تناولها تجربة شبه روحية لا علاقة لها بإشباع الحاجة البيلوجية للطعام، كنت آكل منها بمقدار لا مقدار حاجتي الغذائية المادية وإنما بمقدار حاجتي النفسية أو العاطفية أو حتى الروحية إن شئت (ولذا كنت أنظر بشيء من الفهم لحالة الخديوي عباس الثاني الذي يقال: إن مستشاريه الأجانب سيطروا عليه من خلال المكرونة، كما تفهمت حالة الملك فاروق الذي يقال إنه أصيب بأزمة قلبية بعد أن تناول كمية هائلة من المكرونة)، أما الأرز فكان مرتبطاً في ذهني بالطمأنينة وبالعودة إلى المدينة، ولذا بعد عودتي من رحلة مدرسية كنت أطلب من أمي أن تطبخ لي بعض الأرز، ولم يكن طعاماً أملأ به معدتي، وإنما مسألة ذات دلالة رمزية.

❖ وكذلك الإنسان! يأسره طعام ما ويبقى مفتوناً له زمانه كله ولا يكاد ينفك عنه ما بقي العمر، ويأكل في مطعم ويبقى زمناً من عمره يتردد إليه على رغم كثرة ما حوله، ويُفتن بمأكول أو مشروب فيظل يتردد إلى مكانه وربما قطع زمناً في الطريق إليه.

❖ كثيرون تأسرهم عادة من العادات ويبقون في أسرها ما بقي الزمان، ويبذلون للفكاك منها ولا يلبثون أن يعودوا إليها من جديد، وفي مرات



كثيرة قد تكون هذه العادة هــي وراء إخفاقه وفـوات أرباحه ويعجز عن الفكاك منها، ولا تكاد تجد إنساناً إلا وله حظ من ذلك قلّ أو كثر.

❖ من فقهك أن تتفقـد عاداتك بين الحين والآخـر وتقوّمها بميزان العقل والشـرع وتغيّر وتُبدّل على وفق ذلك، ولا تيأس من طول الإلف، حاول مرة ومرتين وأكثر، ولا تشـغلك إخفاقاتك فـي بداية الطريق، فما تكوّن من زمن طويـل لا يمكن التخلص منه إلا مـن خلال ذات الزمن، وتخلّص من آفة الاستعجال وأكثِرْ من دعاء ربك، وصاحِبِ الجادين، وكن على علاقة بالكتب التي تبعث فيك مباهج الجمال.

من أهم الطقوس في حياتي طقس ساعة الصفاء، وهو المقدرة على الانسحاب من الزمان بحيث يعيش الإنسان لحظات ليست كاللحظات خارج الزمان، ومن ثم يمكنه أن يستعيد تكامله وإنسانيته بعد أن كان فقد بعضاً منهما في معترك الحياة وتفاصيلها التي لا تنتهي، على أن يظل الإنسان واعياً تماماً بأن هذه اللحظات مؤقتة وحسب. وكان هناك ما اسميه بالحَمّام الطقوسي الذي آخذه بعد الانتهاء من كل مؤلَّف من مؤلَّفاتي، كما أنني حينما كنت في الولايات المتحدة طوّرت طقس الحَمّام الفكري، فحينما تستعصي عليَّ فكرة ما، أذهب لآخذ حماماً ساخناً، وتحت الدش تبدأ الأفكار تتلاحم والعلاقات بينها تتضح، وأحلُّ الإشكالية الفكرية التي تواجهني.



❖ وجود أوقات راحة لصاحب المشروع وحامل الفكرة مهمة جداً وهي ما يسميها المسيري بـ: (ساعة الصفاء)، يخرج فيها من أسر تلك الفكرة وضغط ذلك الواقع إلى مساحات فراغ يجد فيها روحه ومشاعره، تأتي مرة من خلال حَمّام المسيري الذي كان يفعله، وتأتي أخرى من خلال الخروج مع أصدقاء يصنع بهم ومعهم فاصلاً فكرياً ومشاعرياً، وتأتي ثالثة من خلال القراءة في الأدب والشعر، وتأتي رابعة وخامسة وعاشرة من خلال كسر ذلك الروتين بكل ما يصنع فاصلاً ويعيد للروح نشاطها، وللمشاعر بهجتها، وللحياة معناها الكبير.

❖ إذا استعصت عليك فكرة وبذلت في سبيل تكوينها محاولات عدة ولم تصل إليها، أو شعرت بأن أفكارك بدأت تذبل أو أسلوبك بدأ يضعف فتخلص من مقعدك الطويل، واترك مكانك، وتحوّل إلى نشاط آخر يخفف عليك ذلك القلق، ويلقي عنك تبعات التفكير، ولا تحاول أن تقهر تلك النفس على البقاء في ذات المكان، فإنك قد لا تنتفع من ذلك الوقت، أو تكتب أفكاراً ميّتة لا علاقة لها بالبناء.

❖ أخطر ما على أصحاب المشاريع الكتابية لحظات النهاية التي لا يصل إليها إلا وقد جهد في الطريق، وأصابه الكلال، ويتشوّف إلى النهايات ويعجل إليها ويحاول من دون شعور أن يطوي تلك النهايات ويحاول ختامها، فينشأ فاصل كبير بين البدايات الجادة والرائعة والنهايات الباردة الضعيفة، ومن الفقه أن تقاوم ذلك الكلال في البدايات وألا تعجل على النهايات حتى يخرج المؤلِّف مكتمل الفكرة ويحمل نَفَس البدايات، ومن هذا الباب ما قاله الشيخ عبد الكريم الخضير وفقه الله تعالى في

إحدى لفتاته في فتح الباري وهو: أن القارئ سيشعر أن نفس الحافظ ابن حجر في شــرح آخر حديث من الكتاب «**كلمتانِ حبيبتــانِ إلى الرَّحمٰن، خفيفتانِ على اللِّســان، ثقيلتانِ في الميزان**» هو ذات النَّفَس الذي ابتدأ به الكتاب في حديث «**إنَّما الأعمالُ بالنيات**».

كنت أفقد النقود التي تعطيها لي والدتي لشراء أي شيء، حاولت إصلاح هذا الجانب ولكن هيهات، وكنت دائماً أسهو عما حولي فأفقد نقودي، وما زلت أفقد نظارتي في منزلي وأكوّن فِرَقاً للبحث عنها، وقد أصبحت زوجتي متخصصة في العثور عليها من خلال استجوابي عما فعلت في النصف الساعة السابقة. استدعاني مرة أحد كبار المسؤولين في أوائل الثمانينات وأخبرني أن مصر على وشك أن تتقدم باقتراح لهيئة الأمم لنزع الأسلحة النووية، وأراد مني أن أقوم بترجمة الاتفاقية المقترحة نظراً لخطورتها وسرّيتها لحين عرضها على الأمم المتحدة، فقبلت على الفور، ولكنني مع هذا ذهبت لزيارة ابنتي في الجامعة الأمريكية ونسيتها على كرسي هناك، ومن فرط يأسي أخذت أضحك وانتظرت لليوم التالي، وربنا ستر ووجدت المظروف في مكانه.

❖ وما أكثر ما يقع لكثيرين من هــذ النوع! وما أكثر ما تضيع أوقات في مثل هذا الباب! ووجود هذه العادات الســلبية في حياتك تحتاج إلى شيء من المراجعة والعناء لإعادة ترتيبها. حدَّثَ أحدُهم مرة أنه من خلال



الاستقصاء وجد أنه يتأخر يومياً عن دوامه عشرين دقيقة، وهي تلك التي يقضيها في البحث عن مفتاح سيارته، وكانت عادته أنه يرميه أول ما يدخل إلى بيته، ثم يقضي زمناً في البحث عنه حتى تغلَّب على تلك العادة ودق مسماراً في الجدار وقرر أن يضع فيه ذلك المفتاح حين يدخل بيته، فانتظم في دوامه وانتهت مشكلته بالكلية.

❖ من فقهك أن يكون لديك فترات راحة ومحاسبة ترى فيها واقعك العام، وتنظر في عاداتك اليومية، وتتأمل في إنجازاتك، وتعيد ترتيب أولوياتك وتحسين عاداتك من خلال تلك الخلوات التي تقضيها مع نفسك. مشكلة كثيرين هذا اللهث الذي يلازمهم في كل لحظة، حتى أنه يلازمه في صلاته وأوراده ولا يكاد يهنأ بشيء، ولا يمكن تلافي تلك الأخطاء وتلك العادات السلبية المتفشية في واقعنا إلا من خلال تلك المحاسبة التي نقتطع لها من أوقاتنا ونعيد بها، ومن خلالها، بناء ذواتنا من جديد.

❖ لو تأملت في إدارة ميزانيتك الشخصية لأدركت أنك تصرف في كل وقت، ومن دون أي حساب، وبغض النظر عن كمية المال المصروف في تلك اللحظة، ولا يوجد لديك ميزانية محددة في كل شهر، وإنما شبه طوارئ، مال موجود وينتظر مَنْ يطلبه ويفرق جمعه فيه، وإذا به انتهى كل شيء في أول أسبوع من استلام راتبه، ويعود للاستدانة ويبقى مأسوراً للديون ما بقي الزمان، ولو أنه أدرك ضرر هذه العادة وأخذ دورة واحدة في إدارة ميزانية العائلة، واشترك في موقع له علاقة بهذا الشأن لتغيّرت حياته في كثير من الجوانب فضلاً عن المال، وقل مثل ذلك في كثير من الجوانب في حياتك وجملة من العادات الشخصية التي تمارسها وتؤثّر عليك وتشكل حياتك في مستقبل الأيام.

تخرجت من مدرسة دمنهور الثانوية عام ١٩٥٥، وحملت عصا الترحال، شأني شأن كثير من الطلاب إلى الاسكندرية... قررت التحرك بسرعة لأكتشف الآليات الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء، ومن أهمها إجادة اللغة الإنجليزية فحبست نفسي في غرفة لمدة شهر كامل لا أسمع إلا الإذاعات المتحدثة باللغة الإنجليزية، ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية، وعدت بعد الفصل الأول وقد تملكت ناصية اللغة بشكل أدهش أساتذتي. وفي الصيف أحضرت أطناناً من الكتب العربية التي تتناول تاريخ الغرب والفكر الغربي والفن الغربي والفلسفة الغربية، كما أحضرت ترجمات لعدد من المسرحيات والروايات حتى يمكنني تملّك ناصية الخطاب الحضاري الغربي، وحتى تتعمّق معرفتي بالتقاليد الأدبية الغربية مثلما تملكت ناصية اللغة، وقد خضت تجربة فردية في ذلك الصيف، إذ أحضرت ترجمة إنجليزية لرواية وقررت قراءتها ثلاثة أيام بلياليها أقرأ وأقرأ وأقرأ من دون أن أنام، ونجحت التجربة ولم أزدد حكمة! وتركت الكلية لبضعة شهور ودخلت مدرسة إنجليزية حتى تصبح اللغة الإنجليزية لغة حية بالنسبة لي، وبذلك أصبحت قادراً على التحرك في تلك الأوساط شبه المصرية والتعامل معها بكفاءة غير عادية برغم عدم احترامي لها.

❖ الإنسان في النهاية صدى لقراراته الشخصية، والجادون لا يقف أمام طموحاتهم وأمانيهم الكبرى شيء، وليس هناك طريق طويل، ولا

عقبة كؤود، ولا مستحيل مع الإرادة الصُّلبة والقرارات الجادة وعدم الاستثناء، ومن أراد شيئاً تعنَّى له!

❖ لقد استطاع المسيري أن يضبط اللغة الإنجليزية في شهر قرر فيه أن يتفرغ بكليته لذلك التخصص وتلك المهارة، وما برح مكانه حتى حقق أمانيه، وتملك بذلك ناصية اللغة بشكل أدهش أساتذته، وخاض التجربة الأخرى في التعرف على حضارة الغرب، وما زال فيها حتى تحقق له ما أراد، وحين أراد أن يمتن بصورة كبيرة ومؤثرة ترك الكلية وضحَّى بجزء من زمن دراسته وأقبل على تلك الأماني الكبار حتى بلغ فيها ما أراد.

❖ التركيز أعظم المفاهيم أثراً في حياتك، وأخطر الأدوات المؤثرة في بنائك، ولا شيء يعدل هذا المعنى في النجاح أو يوازيه البتة، وإذا أردت لفكرتك ومشروعك وقضيتك أن تشبَّ فوق العادة وتكبرَ قبل حينها فامنحها تركيزاً شديداً حتى توردها النهايات.

❖ لا شيء أضر على مشاريعنا من الكشكولية، وترى الواحد منا يريد كل شيء في ذات الوقت، وتقسّم نفسك ووقتك وفكرك بين عدد من المشاريع المختلفة في الرؤى والتخصصات والأهداف، وتعيش بينها ممزقاً، فلا تكاد تنجز شيئاً منها، وما أنا مدين لشيء في حياتي بعد توفيق الله تعالى ما أنا مدين لهذه العادة (التركيز) في كل مشاريعي بلا استثناء، وكنت إذا عزمت على مشروع فإني أفرغ له وقتي وفكري ومشاعري وكل شيء، ولا أكاد ألتفت إلى شيء غيره حتى أبلغ منه ما أريد، للدرجة التي إذا أقبلت على تأليف كتاب لا أكاد أتمكن من النظر في وردي الذي سأصلي به، وأتيت من خلال هذا المعنى بعد توفيق الله تعالى على كل أحلامي، وما أنا عادٌّ لك ما تحقق من خلالها من أحداث.

❖ نحن في عالم يخلق الفوضى والشتات بامتياز، ويصنع منك نسخاً من الضياع، ويوهمك بأنك في أصل الطريق، ويخرج لك اللهو في صور ممتعة، ويشغلك بالتوافه وكأنها كل شيء، ويُجري لك من حوادث الزمان ما يجعلك تراه أولويات أو تكاد، وما لم تغالب نفسك وزمانك بمثل هذه العادات وإلا فستعيش ممزقاً وستبقى هامشاً ويضيع منك كل شيء.

"حينما كتبت رسالتي للدكتوراة وبعض مؤلفاتي عن الصهيونية لم أستخدم الكروت المعتادة برغم أنني قرأت عشرات المراجع واقتبست منها، وكنت أتذكر الاقتباس والصفحة التي ورد فيها، وكنت لا أجيد الاستماع للمحاضرات، إذ إنني كنت كثيراً ما أسرح نتيجة لفكرة يقولها المحاضر وأبدأ في التأمل فيها."

❖ يحكي لك المسيري طريقته في الكتابة والبحث، ويخبرك عن تجربته في هذا الباب، وما أكثر المنتفعين بتلك الكروت في موضوع الرسائل العليمة كمثال! وإذا كانت عقليته رحمه الله أحْفظَ وأضْبطَ فغيره يحتاج إلى تلك التجربة أو غيرها مما يعين على عونه وبلوغه أهدافه في هذا الطريق أو غيره، والمقصود في هذا الباب أن يأخذ الإنسان من التجارب ما يصلح له ويعينه، وليس بالضرورة أن نأخذ كل تجربة ونصنع لها واقعاً في حياتنا العملية.

❖ كان رحمه الله لا يجيد السماع للمحاضرات لسرحانه، وأنا كذلك لا تناسبني لأنني لا أجد وقتاً لها من جهة، وكلما وجدت فراغاً قضيته في



مراجعة كتاب الله تعالــى، وأحبذ النظر في المكتوب لأنه أســرع، وكلما أردت شــيئاً من ذلك دفعت فيه مالاً ليكون مكتوباً ويسهل عليّ الوصول إليه من أسرع الطرق، ومن فقه الإنسان أن يعرف ما الذي يناسبه وما الذي لا يناسبه، كيف يستثمر وقته بصورة أقل كلفة وأســرع في الثمرة، ولكلٍّ وجهة هو موليها. وكم مرة حاولت أن آخذ سماعة لسماع ما أجده نافعاً ثم أتخلف عن الشراء لأنني أعرف من نفسي أنني لن أستفيد منها كما ينبغي! مع أنك ترى في المقابل أثر السماع في حياة كثيرين وقد حفظ لهم أوقاتاً كثيرة، وبلغوا من خلاله إلى جزء كبير مما يريدون.

ذهبت للولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٣، وعند وصولي عقدوا للطلبة الدارسين امتحاناً موضوعياً تكون فيه الإجابة بنعم أو لا، لتحديد مستواهم الثقافي واللغوي، فقضيت وقتاً طويلاً في تأمل الأسئلة، وكنت أجد أن الإجابة الصحيحة الذكية لا هي بنعم ولا بلا، وإنما تقع بينهما، وكانت النتيجة بطبيعة الحال الفشل الذريع بدرجة رسوب لا نظير لها، وقد تقرر بناءً على هذا الامتحان أن أدرس اللغة الإنجليزية لمدة عامين قبل أن ألتحق ببرنامج الدراسات العليا، ولكن لثقتي بنفَسي أخبرتهم أن الخلل ليس في قدراتي وإنما في الامتحان، فهو امتحان سخيف لا يقيس مقدرات الطالب الحقيقية وإنما سرعة بديهته واستجابته، وأن السرعة غير العمق، وبينت لهم أني لم يسبق لي أن أخذت امتحاناً بهذه الصورة، وأكدت لهم أن أدائي بعد أن عرفت الطريقة سيكون مختلفاً تماماً، وبالفعل قرروا أن يجربوا معي

مرة أخرى وفوجئوا بأنني حصلت على أعلى درجة بين المتقدمين، وكانت هذه أولى المواجهات بيني وبين الحضارة الأمريكية بسذاجتها وأحاديثها وخيلائها، ثم ذهبت إلى نيويورك والتحقت بجامعة كولومبيا في قسم اللغة الإنجليزية والأدب المقارن، وكان يضم بعض أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم.

❖ لقد وهبك الله تعالى كل شيء وجعلك أقدر ما تكون على استثمار هذا الكون فيما ينفعك في الدارين، وإيمانك بهذا المعنى الكبير وقناعتك بتلك الطاقات والقدرات والإمكانات من أعظم ما يبلغك أمانيك، وأسوأ ما يواجهك تشكيكك في تلك القدرات وترددك في خوض التجارب التي تصنع منك شيئاً مع الأيام.

❖ لقد كانت هذه الثقة معينةً للمسيري في بلاد الغرب على مواجهة أكبر حزمة ثقافية في تلك الجامعة، تلك التي تولت إعداد الامتحانات وبنته لمئات من الطلاب حين أبلغها أن الرسوب الذي حدث له ليس لضعف قدراته وطاقاته وإمكاناته، وإنما لضعف ذلك النوع من الأسئلة التي لا تقيس مستوى الطالب على وجه الحقيقة، وحين أعادوا التجربة بصورة مختلفة لذات المعلومة والمعرفة ألقمهم حجراً وأصابهم في مقتل، وكذلك الكبار!

❖ واحدة من مشكلاتنا الكبرى أننا غير مقتنعين بما أمدَّنا الله تعالى به من تلك الطاقات والقدرات، وكم هي المرات التي تتهيأ لنا فرص كبرى ثم نقتلها بالتردد حتى تفوت! ثم تعود ذات الفرص مرة أخرى ويبقى التشكيك في تلك القدرات، في مقابل تلك الفرص التي تعرض في



كل حين ويذهب منا كل شـــيء. وما حاجتنا إلى شيء حاجتنا إلى بعض تلك الثقة التي نخــوض بها غمار التحديات ونصنع بهــا ما نحلم به من آمال وتحديات.

❖ لدينا في مرات كثيــرة عقدة النقص مع الآخريــن، ومهما كان ما نملك إلا أنه يتضاءل بمجرد حضورنا مجلســاً مــن المجالس، فضلاً عن عقدة النقص التي تواجهنا كمســلمين مع الغرب، ولذلك كسر المسيري هذا الفارق من أول لقــاء وأمام مجموعة كبيرة وعلى مســتوى جامعات ضخمة، ثم أثبت لهم في النهاية أن الطالب العربي هو الذي يملك الحقيقة بين كل أولئك حتى أصحاب النظام.

❖ لا يمكن أن نكون في مستوى الحدث حتى نكون على صلة كبيرة ومتينة بالقراءة، ولا أعلم عادةً تصنعك وتكتب حظك وتجعلك متيناً وقادراً على الدخول في أكثر النقاشات جدلاً كالقراءة، ومن أتقن شيئاً صار مرجعاً فيه ولو كان شيئاً بسيطاً ولو كانت مسألة من مسائل العلم أو باباً من أبوابه.

في بداية الأمر أحسست برعبة موقفي، طالب مصري يدرس على يد بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم، ولم يكن هناك طالب عربي غيري، وحينما أعطوني قوائم النصوص والمراجع بالإنجليزية وهي النصوص التي يجب أن أقرأها والمراجع التي يجب أن أعود إليها وجدتها طويلة بشكل لا يصدَّق، وقال لي الأستاذ بصرامة بالغة: المطلوب منك قراءة كل ما ورد في قوائم القراءة، وقراءة هذه الأعمال الأدبية في غضون ثمانية شهور. فصلين دراسيين



أمر مستحيل من ناحية الكم، فما بالك بالقراءة والاستمتاع والاستيعاب؟! ففقدت توازني بعض الوقت، فاستأجرنا أنا وزوجي غرفة فندق رخيص قذر (غرفة صغيرة بها سرير وكرسيان وملحق، بها مطبخ في مساحة لا تزيد عن مساحة دولاب)، وبرغم أن الفندق كان يبتلع أكثر من نصف مرتبي تقريباً إلا أنه كان يقع بجوار مكتبة جامعة كولومبيا، وهذا أمر في غاية الأهمية حينذاك، وتفرغت تماماً للقراءة والتحصيل فقرأت كل الأعمال الكاملة لكل الشعراء الرومانسيين الإنجليز (موضوع تخصصي) وكثيراً من الكتب النقدية وكثيراً من المسرحيات الحديثة وأعمال مليوتن، وخرجت من فترة الحضانة هذه وقد تملكت ناصية الخطاب النقدي بشكل يسمح لي بالدخول في حوار مع زملائي وأساتذتي، وأكتشف أني أكاد أكون أنا الطالب الوحيد الذي قام بهذه العملية شبه الانتحارية (إذ اكتفى الآخرون بقراءة الملخصات أو ما درسوه في مرحلة الليسانس)، فذاع صيتي لدرجة أنني بدأت بإلقاء الدروس الخصوصية على أصدقائي، وكنت ألخص لهم كل القضايا النقدية والفلسفية. وحينما حلَّ موعد الامتحان النهائي للماجستير في الصيف كان أدائي جيداً جداً، وتقديراتي مرتفعة إلى درجة أن سكرتيرة القسم ظنت أن الممتحن الخارجي (الذي استعانوا به أثناء فصل الصيف) قيّم إجابتي بطريقة متساهلة للغاية، فتم عرض أوراق الإجابة التي تخصني على أستاذ بالجامعة وأفتى بأني أستحق الدرجة التي حصلت عليها، وإذا كانت ثقتي بنفسي قد أنقذتني من التهلكة عدة مرات فإنني كنت أرى عدم الثقة وهي تصرع بعض أصدقائي.

❖ لا تستطيع أن تشكّل شخصيتك وتبني مستقبلك وتخوض أضخم تجاربك إلا إذا منحت نفسك الثقة التي تستحقها وتصل بها إلى أمانيك الكبار، طالبٌ عربيٌ وفي أرض غربة وهو الوحيد ويستلم قوائم تحتاج إلى زمن طويل ويقبلها ويقرر أن يبتلعها كلها في أقل وقت ممكن، ثمَّ يكون فيها صاحب شأنٍ، تلك حكايات الملهمين! وهي رسالة أنه لا مستحيل، وكل شيء ممكن، والقرارات الكبرى تصنع واقعاً ملهماً في النهايات.

❖ لا يمكن أن تكبر نفوسنا حتى تقبل التحديات الكبيرة وتخوض تلك المعارك الصعبة، وتسقط في الطريق ألف مرة حتى تمتن للصدمات وتقوى على عراكها مع الأيام. لقد عبر المسيري عن هذا المعنى بقوله (وأكتشف أني أكاد أكون أنا الطالب الوحيد الذي قام بهذه العملية شبه الانتحارية)، وهذه المحاولة هي التي بنى عليها مواقفه الكبار بعد ذلك على مستوى دراسته ورسالته العلمية وما جرى فيها من أحداث.

❖ كثير من النفوس هشَّة رخوة ضعيفة أمام أقل التحديات، وتكبر ويكبر معها شبح الخوف والتردد حتى تصل لمرحلة أنها تفقد الثقة ولا تكاد تقوم بشيء بعد ذلك، ولا يمكن أن تكبر النفوس وتبني قيمها وتصلب إرادتها إلا من خلال المغامرة وعدم التردد وتحمل تبعات الإخفاقات التي تحدث لها في الطريق، كما صنع المسيري رحمه الله في تجربته الأولى في رسالته العلمية في بلاد الغرب، وكتب بها تاريخه فيما بعد. والكبار فرع عن المغامرات الجريئة في واقع الحياة.

❖ لقد اختار المسيري رحمه الله أن يستأجر بجوار مكتبة تعينه على إنجاز مشروعه الذي جاء من أجله، ويجلس في مبنى صغير وقذر ويضحي

بنصف راتبه كما يقول: «فاســتأجرنا أنا وزوجــي غرفة فندق رخيص قذر (غرفة صغيرة بها سرير وكرســيان وملحق، بها مطبخ في مساحة لا تزيد عن مســاحة دولاب)، وبرغم أن الفندق كان يبتلع أكثر من نصف مرتبي تقريباً إلا أنه كان يقع بجوار مكتبــة جامعة كولومبيا»، وهي بعض معاني الرجال إذا قرروا شيئاً وأرادوه في مستقبل الأيام.

منذ البداية عرفت أن إيقاع الدراسات العليا هو الجنون بعينه، فطلبت من أستاذي ألا أدرس أكثر من ثلاثة مقررات (أي دون الحد الأدنى)، وتمت الموافقة على طلبي من قبل لجنة الدراسات العليا (ربما رأفة بهذا الطالب المصري الوحيد)، وبعد أن حصلت على درجة الامتياز في كل المواد في الفصل الأول كنت أذهب إلى من أعرفهم من الأساتذة وأخبرهم: أني طالب متميز، وأنني أحب القراءة ومهتم بالفكر، وأنني لم أحضر من مصر للتسلية، وأن نظام التعليم في الدراسات العليا عندهم نظام تعليمي جماهيري لا يسمح بأي شكل من أشكال التميّز بسبب الأعداد الكبيرة نسبياً، وكثيراً ما أقنعت الأساتذة بأن يعطوني تقدير امتياز من دون أن أقدم ورقة بحث وأعطيهم مقابل ذلك كلمة شرف أنني سأقدم البحث بعد كتابته في هدوء وسكينة، وكثيراً ما نجحت في إقناعهم، فكنت أقضي الصيف في كتابة البحوث المطلوبة، وحاولت فيما بعد أن أطبق هذه السياسة مع إحدى طالبات الدراسات العليا في مصر، فما كان منها إلا أن تناست الموضوع تماماً بعد أن أعطيتها تقديراً عالياً، وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة.



❖ من مشاهد الدهشة في رحلة المسيري أنه في ظل الأنظمة التي تسنُّها تلك الجامعات يختار لنفسه الطريق الأمثل فيها، ولا يحسن التردد في القرارات التي يتخذها مع نفسه في سبيل بناء نفسه، ولديه ثقة تحمله أن يقول كل شيء ويعلن كل ما يريد، ويعترف بما يملك من تلك الطاقات والقدرات والإمكانات، ويمضي قُدماً في بناء تلك الأحلام التي يرومها مع الأيام.

❖ كان رَحِمَهُ اللَّهُ يعرف عظم الهدف الذي ترك وطنه وسافر إلى أمريكا من أجله، وكان يدرك كلفته وشقته، ولكنه في ذات الوقت عازم مصمم على تحقيق أحلامه كما يقول: (وأنني لم أحضر من مصر للتسلية)، وكم هم الذين تركوا ديارهم ودفعوا أموالهم وتغربوا عن أهلهم ثم عادوا من هناك بخفّي حنين! وكم هي الأعداد التي ذهبت هناك وعادت كما يعود الآخرون ولم تصنع تلك المشاهد المدهشة التي صنعها المسيري في أعرق الجامعات على مستوى العالم كله!

❖ في مرات تذهب لشيء وتدفع من أجله ما تملك ولكنك تنشغل بغيره من دون وعي، تبدأ في مشروعٍ هو مستقبلك وروحك وتَغُرّك بنيات الطريق، تتكلف في الطريق إلى تلك الأماني ثم ما تلبث أن توزع وقتك الثمين على كثير من الصوارف دونها، ولا يبقى لك شيئاً صالحاً مع الأيام.

❖ كم هي الأهداف التي بدأت فيها ثم توقفت؟ وكم هي القرارات التي اتخذتها ثم تعطلت؟ وكم هي المشاريع التي أخذت زمناً من عمرك ثم طال عليها زمان النسيان؟ ومثلك أوعى بالحياة.

❖ كثيرون يذهبــون هنــاك فينصهــرون بالثقافة الغربيــة ويعودون مدهوشــين بما رأوا هناك، وفي مرات يكون ذلك على حســاب المنهج والقيم ومُثُل الحياة الكبــرى، ولعل فيما حكى لك المســيري من عزته بفكره وثقافته، ودينه ومنهجه، وقيمه ومبادئــه، وقدراته وطاقاته ما يكفي لك عن كل درس.

❖ ثمة فوارق كبيرة بين التعليم في الغرب والتعليم في بلادنا العربية، من أهم تلك الفــوارق: عناية الغــرب بالكيف والتركيز علــى الجوانب العملية التطبيقية، والتأكيد على نواتج التعليم، وانشــغالنا في مرات كثيرة بالكمِّ على حساب الكيف، واعتنينا بالمعارف العامة على حساب النواتج الكبرى منها.

❖ لن تــدرك قيمة ثقتك بما أعطاك الله تعالى مــن الطاقات والقدرات والإمكانات وبناء قيمــك من خلال ما يجري لك في ســلم التعليم إلا إذا وقفت على ما يذكره لك المسيري في أثناء دراسته ببلاد الغرب حين يمنحه أســاتذته درجة امتياز من دون أن يقدم شــيئاً بناء على وعــده الذي أبرمه معهم، وكيف أنه في المقابل أخفق في تطبيق ذات التجربة في بلادنا العربية من أول محاولة، ولعل الأجيال الناشئة تصنع لنا ما نرجوه من آمال.

بعد الانتهاء من المقررات كان عليّ اجتياز الامتحان الشفهي الشامل بالإنجليزية حتى أبدأ في رسالة الدكتوراة، والامتحان مكوّن من خمسة أجزاء هي عبارة عن خمسة تخصصات يختارها الطالب،



فدرست ما طُلب مني بعناية وشغف شديدين، فجاء الممتحِنون الخمسة يمثل كل واحد منهم تخصصاً وجلسوا، ثم بدأت الأسئلة تنهال عليّ، وكان بعضها ذكياً للغاية ويتطلب إعمال الخيال والفكر، وكان من بين الممتحنين أستاذ عُرف باهتمامه بالحقائق والمعلومات العامة أو المجردة وعدم الاكتراث بالنصوص، فسألني عن عدد قصائد ديوان شاعرة أمريكية فأخبرته بالرقم على وجه الدقة، ثم قلت كنت أعرف أنك ستسألني هذا السؤال فضحك، وكانت إشارة للأساتذة أمثاله أن يطرحوا هذه اللعبة المعلوماتية جانباً ويركزوا على ما هو أهم من ذلك، ثم طلب مني أستاذ آخر أن أضع وصفاً لمقرر لدراسة تاريخ النظرية النقدية الأدبية، وكنت أعرف أنهم يريدون أن أبدأ بأرسطو أو أفلاطون، ولكني قررت أن أصدمهم فقلت: الجرجاني، لأذكّرهم بهويتي: دمنهوري مصري عربي مسلم يطلُّ عليهم كأحد علماء الأنثربولوجيا ويدرس حضارتهم من دون أن يكون جزءاً منها، فسألوني من هو الجرجاني؟ فقلت لهم ناقد عربي كلاسيكي مهم، وصاحب نظرية نقدية رائدة، فقالوا: حسناً، لو كنت في الولايات المتحدة ماذا ستفعل؟ فتنطعت وقلت: أنا لا أنوي البقاء في الولايات المتحدة تحت أي ظرف، قالوا: فلنفترض ذلك! فابتسمت وقلت لو افترض ذلك فسنبدأ بأرسطو، وبعد هذه المعركة المفتعلة الأولية أصبح الأساتذة الممتحِنون طوع يميني تماماً، وقد بينت لهم حدود معرفتهم وجهلهم بخلفيتي الثقافية، وانتهت المعركة بأنني اجتزت الامتحان بنجاح وأعطوني درجة الامتياز، وكانت أول مرة في تاريخ قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بالجامعة تمنح مثل هذه الدرجة، إذ إنه

لا توجد درجات في هذا الامتحان، ثم قارِنْ هذا بما يحدث لمن يتحدى أساتذته في إحدى الجامعات المصرية ليكون مصيره التحطيم الكامل مدى الحياة!

❖ العزة بمنهجك ورفع رأسك بقيمك ومبادئك والاستعلاء بما تملك من أعظم قيمك الكبرى، المسلم اليوم بما لديه من منهج يملك خارطةً للحياة لا يملكها فرد أو جماعة أو دولة أو حضارة على مستوى العالم كله، بينما المسلم يعرف أدق التفاصيل في شؤونه الخاصة من خلال تلك الخارطة، فضلاً عن معرفة ما ينبغي في الأحداث العامة والمواقف الكبرى.

❖ المسلم يستيقظ على وحي، ولديه منظومة معرفية وعملية من أول استيقاظه من نومه إلى أن يعود إلى فراشه في آخر اليوم بالتفاصيل الدقيقة، حتى لبس ثيابه ونعليه ونزعها، فضلاً عن تعامله مع زوجه وأهل بيته وأكله وشربه وخروجه ودخوله وسفره وإقامته، وتعامله مع كل فرد في العالم بأسره يقوم على منهج وينتظم في خارطة لا يخرج عنها قيد أنملة، ومنهجٌ بهذا المعنى الكبير يستحق من أصحابه أن يرفعوا رؤوسهم ويكونوا شيئاً ملهماً في قادم الأيام.

❖ لقد أجاب المسيري حين سألوه أن يضع وصفاً لمقرر لدراسة تاريخ النظرية النقدية الأدبية فقال لهم أنه سيبدأ بـ (الجرجاني)، وكانوا ينتظرون منه أن يقول أرسطو، وإنما فعل ذلك لقيمة ما صنعه الجرجاني من ناحية، وليعبِّر لهم عن هويته لأمته ومنهجه وقدواته في التاريخ من ناحية أخرى، وأراد في المقابل أن يبعثر تلك المسلَّمات لديهم من خلال تلك العزة التي كان يعيشها في كل خطوة في ساحات تلك الجامعات.



ولمّا سألوه من هو الجرجاني قال لهم: (ناقد عربي كلاسيكي مهم وصاحب نظرية نقدية رائدة)، فيا رب هيّئ لنا زمان عزة وفك أسرنا من هذه التبعية المقيتة!

❖ يحكي لك المسيري قصة النضال مع أساتذته وعزته بمنهجه ورفضه لكل صور الابتزاز له حتى في امتحان نهائي يترتب عليه مصيره العلمي بكل ما فيه من أحداث، عاش شامخاً حتى أخذ درجة الامتياز ولأول مرة في تاريخ الجامعة تكتب الدرجات.

❖ يذكّرك المسيري في المقابل بقضية العدل والإنصاف التي أمرنا الله تعالى بها في كتابه الكريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨]، لقد صنع معهم كل شيء وتعاملوا معه في النهاية كطالب فحسب، وصدق الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وهذا نوع من الأدب يفهمه في مرات الغرب، ولا يفقهه عندنا بعض من تولى مسؤولية من المسؤوليات.

لا أحب الدخول في المعارك الصغيرة وأفضّل الاستسلام فيها حتى لا تُستنفد طاقتي فيما لا يفيد، ودائماً أنصح أصدقائي وتلاميذي بأن يبتعدوا عن المعارك الصغيرة التي تُفرض عليهم والتي يمكن أن تستنزف الإنسان وتقضي عليه.

❖ وقتك وزمانك أجل وأكبر ألف مرة من أن يمضي في الخصام والنزاع وافتعال الخصومات التي تأتي عرضاً في الطريق، هذه الخصومات وإن قَلّت إلا أنها تحدِثُ في قلبك أثراً وتلقي في نفسك ألماً وتبعث إليك في مرات بهموم الدنيا كلها، وتضعفك إن لم توقفك بالكلية عن مشاريعك وأفكارك الناهضة وقضاياك الكبرى، ومثلك أوعى أن تبقى أسيراً لعارض الطريق.

❖ ركّز وأنت تسير في طريقك الطويل ولا تنشغل بما تراه من حولك مهما كان ملحّاً، دعك من كل العوارض حتى لو كانت تلبس فساتين العرس، فالحياة أثمن ألف مرة من ذلك الالتفات.

❖ الوقت نفيس جداً، وعشرون دقيقة تكفي لجزء من كتاب الله تعالى بكل ما فيه من أجور وحسنات إذا خلتْ من قطاع الطريق، وكم من أوقات عرضت لها المشتتات فخلقت فيها ألف نوع من الفوضى والضياع!

❖ لو أنك سمحت لمن يحدثك بعد الفريضة مباشرة لذهب وردك من الذكر وفاتت عليك مباهجه، ولو أذنت لمن يسألك في أثناء تلاوتك لكتاب الله تعالى لبقيت مديناً بأوراد لم تنتهِ في وقتها المعتاد، وفي المقابل لو اعتنيت بفتات الأوقات التي تكون مرة في سيارتك وأخرى في طريقك، وثالثة على طعامك لصنعتَ منها ما يكتب لك الحياة في الدارين.

❞

قررت أن أقدم رسالتي للدكتوراة ثم أرفض الحصول عليها بعد مناقشتها وإقرارها احتجاجاً على السلوك الأمريكي في مصر وفيتنام، ولكن المضحك أني فكرت في مصيري في مصر بعد العودة، إذ إنهم سيقولون: فشل ويغطي فشله بهذا الاحتجاج، وسأدخل في متاهات



تعطلني عن مشروعي الفكري الذي كنت أود التفرغ له بعد ذلك، فعدلت عن قراري الثوري ولم أندم على ذلك فيما بعد.

❖ مجرد شعورك بدورك وواجبك ومسؤوليتك نحو ما يدور في واقعك قصة من قصص الحياة الكبرى، فكيف إذا ترتب على ذلك عمل ومسؤولية ومشاركة وحمل هموم الأمة في ذلك الحين؟! ما أحوجنا إلى هذا الشعور! أراد المسيري أن يتنازل عن مشروع قضى فيه عمره وبذل فيه كل ممكن ودفع فيه كل شيء لمجرد أن يبين عن موقفه مما تصنعه أمريكا في تلك الحقبة من الزمن.

❖ المثقف الحي يشعر بدوره، ويلظى بواقعه، ويعيش هموم أمته، ولا يقف متفرجاً على ما يراه، وإنما يشارك بما يملك ولو كان ذلك الاحتجاج في صورة فكرية فحسب.

❖ كم هي ثغور الإسلام اليوم التي تنتظر مصلحاً يشعر بشعور المسيري ويدرك دوره ويقوم على حراسته! وكم هي الثغور في زمانك التي تحتاج إلى شيء من هذه الروح، وقليل من هموم المصلحين!

❖ يشتكي المسيري رَحِمَهُ اللَّهُ من قصور ثقافتنا لدرجة مخيفة جداً وهو أن أمته لا تشعر بشعوره، ولا تتحرك بحركته، ولأن القضية لا تعنيها في شيء فسترى أن ذلك التصرف الذي خرج فيه المسيري مجرد غطاء لفشله فحسب، ولو كانت تعيش ذات القضية وتقلقها تلك الهموم لصنعت لصاحبها حفلاً وأعطته شهادة فخرية لتلك الهموم التي تصطلي في قلبه ومشاعره، ولعل الله يأذن بزمان الحياة.

عدت من الولايات المتحدة إلى مصر بعد حصولي على الدكتوراة وكنت ممتلئاً ثقة بمقدرة الإنسان على تغيير واقعه، وكان لي مشروعي الواضح أن أصبح ناقداً أدبياً يربط الأدب بتاريخ الفكر وتاريخ الفكر بالتطور الاقتصادي في المجتمع، ويحاول أن يحل معضلة علاقة البناء التحتي الاقتصادي بالبناء الفوقي الفكري، ومشروعي الأدبي كان مشروعاً فكرياً بالدرجة الأولى، ولذا فالتحول من دراسة الأدب إلى دراسة الصهيونية لم يكن تحولاً جذرياً كما قد يتراءى للبعض، إذ إنني حين بدأت في دراسة الصهيونية حملت معي إشكالاتي النظرية والمنهجية والموضوعات الأساسية في فكري مثل نهاية التاريخ وفكرة الخصوصية.

❖ شعورك بما لديك من طاقات وقدرات وإمكانات ينبغي أن يأخذ حظه من نفسك، وأن يكون ذلك الشعور دافعاً لك لصناعة التحديات في مستقبلك، ووجود قدر من هذا المعنى في مشاعرك كافٍ بإذن الله تعالى لتحقيق أمانيك، وهذا ما يتحدث عنه المسيري رحمه الله (عدت من الولايات المتحدة إلى مصر بعد حصولي على الدكتوراة وكنت ممتلئاً ثقة بمقدرة الإنسان على تغيير واقعه).

❖ الذي تفرغ لمشروع أو فكرة أو ابتعث لقضية أو انتدب لشيء ما يجب أن يشعر بأن تلك مسؤولية، وأن عليه ألا يعود إلى عمله أو وطنه إلا وهو يحمل لهم من الأفكار والمفاهيم والمشاريع ما يعوّض تلك الأيام التي بذلها في سبيل ذلك، وإلا فما قيمة الابتعاث أو التفرغ أو الانتداب من دون أن تأتي بالأحداث الكبار؟!



❖ وجود الفكرة والمشـــروع لديك ضرورة لصناعة التغيير الذي تريد بســـطه في أي مســـاحة، ولا شـــيء دون هذا المعنى الكبير، وستظل كل الأعمال التي تقدمها وهي خالية من ذلك الشـــرط قابلة للتوقف يوماً ما. المشروع والفكرة الملهمة والقضايا الكبرى هي التي تستطيع أن تبقى حية ما بقيت الحياة، وما ســـوى ذلك أقل من أن تصابر طول الزمان أو شـــقة الطريق.

❖ لو لم تأخذ من سيرة المسيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا وضوح الفكرة والمشروع والقضية التي يعيش لها عمره وحياته لكان درساً كافياً للحياة! ولن يشبعك شيء في سيرة المسيري ما يشبعك شغفه لمشروعه وفكرته وقضيته وعيشه لها، وبذله في سبيلها وتحمله تبعاتها وتكاليفها حتى موعد الرحيل.

حاولت عند عودتي إلى مصر أن أندمج في المجتمع وأعود له بالمعنى الأخلاقي والحضاري، لا بالمعنى المادي فحسب، فكنت أحاول أن أتحاشى الحديث باللغة الإنجليزية خارج المنزل، وكنت أدخن البايب فقررت استبعاده من حياتي، وكنت أحب ارتداء الشورت في الصيف وأردت أن أعرف استجابة المجتمع لهذه العادة، فلبست الشورت يوماً وسرت في السوق وطلبت من أحد العاملين في منزلي أن يسير على مقربة مني ويخبرني بانطباعات الناس، أي أنني قمت بدراسة ميدانية على الطبيعة لاستجابة المصريين العاديين للشورت، وحسب تقريره لم تكن الانطباعات إيجابية فقررت ألا ألبس الشورت.

❖ مشـــكلة الانبهار التي يعيشها الفرد اليوم مشـــكلة أزلية بدأت معه ولم تنتهِ بعد، ولعـــل الله تعالى يأذن بميلاد أجيال تـــرى في دينها ولغتها وفكرها ما يستحق الحياة! لم تعد مشكلتنا اليوم في أولئك الذين يحفظون كم كلمة من تلك اللغة ثـــم يدرجونها في أثناء حديثهـــم بالعربية ليلفتوا انتباهك إليهـــم ويبينوا عن علاقتهـــم المتينة بتلك اللغـــة وقدرتهم على هضمها، بل المشـــكلة الكبرى في أن تلك الأجيال التي ذهبت إلى هناك جاءت لنا بكل شـــيء، وها هي تحمل فكراً مختلفاً وديناً جديداً ولباســـاً ومظهراً مشوهاً، وفي مرات مؤلمة ومؤســـفة ومحبطة ومبكية تعود وهي تحمل قطاً وتقود كلباً أو كلبين!

❖ ما زال المسيري يعزز انتماءك، ويُذكي عزتك وهويتك، ويؤكد لك أنك تملك كل شيء، ويحررك في كل مرة من مفاهيم الانهزامية والتبعية لغيرك، لقد عاد من الغرب بالعلم والمعرفة ومشروع الحياة الكبير، وأتى لأمته بقضية يحمل مفاهيمها الكبرى ويريـــد أن يبني على أحداثها أحلام أمته يوماً من الدهر، ونابذ تلك الثقافة حتى في الحديث بلغتها خارج إطار المنزل، وظل متمسكاً بالعربية لغة القرآن، وهي رسالة لأجيال الأمة على مختلف الأزمان: أن يقصدوا البحر في كل مرة ويتركوا القنوات!

❖ في مثل زمانك لـــك أن تقارن بيـــن هذه الصورة التـــي يقوم بها المسيري وهو يرتدي سرواله القصير في مصر ويُكلّف في ذات الوقت من يرقبه وهو يســـير في شـــوارع مجتمعه ووطنه ليعرف ردود الآخرين حيال ذلـــك، وتنازله عن الفكرة مـــن أصلها لتلك الـــردود العارضة، وبين هذه الجموع التي لم تسافر إلى هناك حتى تغمرها تلك الثقافة، وكان يكفي في إقناعها بالجديد ولو على حساب دينها ومنهجها صورة ومشهد في وسائل

التواصل الاجتماعي، فلبسوا تلك السراويل التي بعضها لا يغطي حتى العورة، ولم يخرجوا بها في الشارع العام فقط، بل دخلوا بها الأسواق والبيوت والأماكن العامة وملتقيات الناس الكبرى.

❖ لقد حرّكت المسيري قيم مجتمعه، وقام على احترامها، وبنى لها معنىً كبيراً في حياته، وقرر ألا تقوم حريته الشخصية على قيم تلك المجتمعات مطلقاً، وإن كانت في الأصل لا تحتاج إلى تجربة كونها تخالف الوحي، وفي الحديث: «**غطِّ فخذكَ فإنَّ الفخذَ عورة**»، وكم نحن بحاجة أولاً وقبل كل شيء إلى إجلال قيم ومفاهيم الشرع الكبرى في حياتنا الخاصة والعامة!

نجحت إلى حدٍّ كبيرٍ في توظيف المال بدلاً من أن يوظفني، فلم أضطر قط إلى أن أقوم بعمل يتناقض مع مشروعي الفكري أو يعوقه، ولم أعمل إلا في وظائف أقوم بتوظيفها لخدمته، ولم أشغل قط أي منصب إداري من أي نوع طيلة حياتي، فلم أعمل رئيساً للجنة أو لقسم أو وكيلاً أو عميداً لكلية، وحينما عرض عليّ أن أعمل في هيئة الأمم المتحدة براتب ضخم آثرت البقاء في وظيفتي والتضحية بالراتب الضخم، لأن الوظيفة الجديدة كانت ستسوعب كل وقتي، كما أنها كانت تتعارض كلية مع مشروعي الفكري.

❖ فقه المشروع والفكرة الناهضة وقضية الحياة الكبرى من أعذب فصول سيرة المسيري رحمه الله على الإطلاق، ولذلك يردد (كان هناك هدف

مشروع في حياتي، كان أكبر من مقدراتي دائماً، لا أعرف كامل أبعاده إلا بعد أن أدخله، ولعل هذه استراتيجية نفسية غير واعية لأخدع نفسي حتى لا أجبن عن القيام بالمشروع، فهل في مقدور الإنسان أن يبدأ مشروعاً لا ينتهي إلا بعد أكثر من ربع قرن ويُكلفه من الأموال ما لا يملك عندما يبدأ مشروعه؟! وأقوم دائماً بترتيب تفاصيل حياتي وتنظيم وقتي بشكل صارم في إطار هذا المشروع، وأحدد مقدار المكسب والخسارة من خلاله).

❖ من فقهك إذا عرفت مشروعك وفكرتك الناهضة وقضيتك الكبرى ألا تعارضها بشيء مهما كانت الحاجة الملحة إليه، وإياك ألف مرة من الشتات والفوضى! ولعلك تحفظ ما قال لك وتستوعبه حتى لا تضل الطريق (نجحت إلى حد كبير في توظيف المال بدلاً من أن يوظفني، فلم أضطر قط إلى أن أقوم بعمل يتناقض مع مشروعي الفكري أو يعوقه، ولم أعمل إلا في وظائف أقوم بتوظيفها لخدمته، ولم أشغل قط أي منصب إداري من أي نوع طيلة حياتي).

❖ التركيز يصنع لك أحلامك وآمالك الكبرى في الدارين، وما سوى ذلك فشتات وفوضى لا تبقي لك شيئاً يستحق الحياة. وأضر ما عليك تلك المتعارضات في طريق واحد (فلم أعمل رئيساً للجنة أو لقسم أو وكيلاً أو عميداً لكلية، وحينما عرض عليّ أن أعمل في هيئة الأمم المتحدة براتب ضخم آثرت البقاء في وظيفتي والتضحية بالراتب الضخم، لأن الوظيفة الجديدة كانت ستستوعب كل وقتي، كما أنها كانت تتعارض كلية مع مشروعي الفكري)، ومثلك أوعى بالحياة.

❖ كل الناجحين بلا استثناء كانوا يؤمنون بفكرة التركيز، وأعطوا مشاريعهم ما تستحق من ولاء، وبذلوا في سبيل ذلك الأوقات والأفكار



والأموال، واسترخصوا في سبيلها كل غالٍ ونفيس، ولن تبلغ آمالك الكبار وتبقي لك ذكريات تستحق العيش على طول الزمان ما لم تجرِ فصول هذه المعاني في حياتك بالتفصيل.

"

من الأمور المضحكة أن زوجتي كانت مصابة بحساسية من نوع فريد، إذ يصفر وجهها وتعطس حينما تمكث مدة طويلة داخل أحد المحلات، وهي حساسية يحسدني عليها كثير من الأزواج المصريين، واقترح عليّ أحدهم أن أقرضه الفايروس العظيم الذي يتسبب في هذه الحساسية المباركة، واكتشفنا حينما انتهيت من الموسوعة أننا لم نتناقش قط فيما كنتُ أدفعه من تكاليف، كما أنني حين قررت الاستقالة من الجامعة لإتمام الموسوعة وافقَتْ على قراري بعد مناقشة دامت خمس دقائق برغم ما كان يعنيه ذلك على الأسرة، وأنها ستصبح من دون دخل ثابت، وبعد حرب الخليج حين أصبح من حقي العودة إلى وظيفتي باعتبار أنني كنت أعمل في الخليج، ناقشنا الأمر لبضع دقائق أخرى ووجدت أنه لا بد من الاستمرار في التفرغ لأنهي الموسوعة، وأسمي هذا ضرباً من الجنون المقدس الذي أصابني وأصاب زوجتي، ولولاه ما انتهيت من الموسوعة. وقد هزمت بذلك مراراً ذئب الثروة في نفسي. وحاولت كذلك أن أقتل الذئب الآخر (ذئب الشهرة)، وهو الذي يعبر عن نفسه في الرغبة العارمة في أن أصبح من المشاهير، وحينما عدت للمرة الأولى من الولايات المتحدة لم أواجه هذا الذئب، إذ وجدت نفسي أكتب في الأهرام

وأتحدث في الإذاعة والتلفاز، ومسؤولاً عن وحدة الفكر الصهيوني في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، وأصبحت أحد كتاب الأهرام المنتظمين، وكل ما كنت أكتبه يجد طريقه للنشر في إحدى المجلات، وكلما شُكلّت لجنةٍ ما، كنت أجد نفسي عضواً فيها، وإذا عُقد مؤتمر لمناقشة الكتب الدراسية في الأرض المحتلة أو أي موضوع آخر كنت أدعى له في كثير من الأحيان، ولذا كان عليّ أن أرفض التعيين في بعض هذه اللجان أو الذهاب لبعض هذه المؤتمرات إذا كانت لا تصب في مشروعي المعرفي، ولذا فذئب الشهرة داخلي كان منتشياً نائماً سكران من النشوة، ولكن هذا الذئب استيقظ مرة أخرى وبكل ضراوة حينما عدت للمرة الثانية من الولايات المتحدة الأمريكية وكان جو التطبيع سائداً في القاهرة، فلم أسترد مكاني في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في الأهرام، ولم أُدع للحديث في الإذاعة والتلفزيون، وبدأ بعض المذيعين ممن كنت ضيفاً في برامجهم يخافون من الحديث معي، وكنت أجد صعوبة بالغة في الدخول إلى مبنى الأهرام، باختصار شديد: وجدت نفسي نكرة! ومن ثم بدأ جوع ذئب الشهرة ونهمه يتزايدان، وقد أخذ رد فعلي بهذه الصدمة الحضارية شكلاً فريداً، إذ بدأت في الاهتمام بالعمارة الداخلية لمنزلي، وبدأت في اقتناء الأشياء القديمة لدرجة الهوس، ودارت المعركة بيني وبين هذا الذئب، وجلست مع نفسي فاكتشفت أني أحب الشهرة ولكن رغبتي فيها نابعة من رغبتي في حماية نفسي، حتى يمكنني الانتهاء من مشروعاتي المعرفية، وحاولت أن أشبع ذئب الشهرة داخلي حسب الشروط التي يفرضها العالم

الخارجي فأكون كمَن كسبَ المعركة وفقدَ الحرب، وويل للمرء الذي يربح كل شيء ويخسر نفسه، وحينئذ أخبرت ذئب الشهرة داخلي أنني لا أمانع من الشهرة حسب شروطي تماماً، كما أنني أحب الثروة بمقدار ما تخدمني، وهكذا صرعت ذئب الشهرة وقبلت أن أعيش بعيداً عن الأضواء خاصة حين بدأت في كتابة الموسوعة بما كانت تتطلبه من عزلة شبه كاملة أحياناً.

❖ ثمة نساء مولعات بالشراء ولهن رغبة ملحة في التسوق ولا يكدن يجدن راحتهن إلا في تلك الأماكن، ويترتب على ذلك كثير من العناء للأزواج مالاً ووقتاً وفكراً، ولهذا المعنى تكثر مثل هذه الصور التي تخرج في صورة مزاح ولكنها رسائل لواقع مليء بمثل هذه المعاني المكلفة، وهذه صورة عامة ولكنها ليست صورة كلية، وكم من امرأة تجري فصول الجمال في بيتها ورعاية مالها وترتيب حياتها بأمثل من هذه الصور ألف مرة!

❖ يحكي المسيري ولأكثر من مرة في سيرته الذاتية مواقف زوجه الإيجابية معه، وتفهمها لمشروعه وقيامها بدورها الكبير في عونه وتسديده، سواء بالمال أو الوقت، وتحمّل أثقال الطريق، وها هو يحكي لك طرفاً من ذلك المعنى فيقول: (واكتشفنا حينما انتهيت من الموسوعة أننا لم نتناقش قط فيما كنتُ أدفعه من تكاليف، كما أنني حين قررت الاستقالة من الجامعة لإتمام الموسوعة وافقَتْ على قراري بعد مناقشة دامت خمس دقائق برغم ما كان يعنيه ذلك على الأسرة، وأنها ستصبح من



دون دخل ثابت، وبعد حرب الخليج، حين أصبح من حقي العودة إلى وظيفتي باعتبار أنني كنت أعمل في الخليج ناقشنا الأمر لبضع دقائق أخرى ووجدت أنه لا بد من الاستمرار في التفرغ لأنهي الموسوعة، وأسمي هذا ضرباً من الجنون المقدس الذي أصابني وأصاب زوجتي، ولولاه ما انتهيت من الموسوعة)، ويقول في مرة أخرى: (كان لزوجتي التي أصيبت بالجنون المقدس الذي أصابني الفضل الأكبر في عملية تمويل الموسوعة، فكانت لا تمانع في إنفاق كل ما نملك وما لا نملك، وكنت في مرات أتعاقد مع بعض مساعدي الباحث لأداء بعض المهام نظير أجر ما من أجل ذلك)، ومن أعظم فواتح التوفيق على إنسان أن يجد من تشاركه مشروعه وتخالطه همومه وتشعر بفكرته وقضيته وتعيش جزءاً من تفاصيل هذه المعاني الكبار، وأسوأ ما على إنسان أن يصاب بزوجه، لا تجد نفسها في شيء من هذه المعاني وتعيش تخاصمها وتنابذها، ومن فقه الإنسان أن يحسن الاختيار قبل الزواج وألا تغره المظاهر التي يراها، وأن يرعى وصية نبيه ﷺ: «**فاظفرْ بذاتِ الدِّين تربَتْ يداك**» أعظم رعاية فهي كل شيء، ومثل ذلك ما يجري في المقابل مع المرأة تكون صالحة وصاحبة دين ولها عناية بشيء من شجون الدعوة والخير والإصلاح والعمل فلا تعتني بمسألة الاختيار فتقع في زوج ينابذ هذه القضايا ولا يلقي لها بالاً، وتنشأ الخصومات على تلك التصرفات، وتبقى في شقاق ما بقي بها الزمان، ومن فقه الإنسان أن يرعى وصية نبيه ﷺ ويكثر من الاستخارة ويحسب لهذه المعاني قبل كل شيء.

❖ ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلمة جميلة في المال فقال: ينبغي أن يكون المال كالحمار تركبه ولا يركبك، وكالحمَّام تدخله وقت

الحاجة. وإذا لم يكن المال لمثل هذه المعاني الكبار فلا مفروح به في شيء، وكم من مال أصبح عبئاً على صاحبه! هو غمه وهمه وليله ونهاره وأحرص ما يكون على زيادته وعدم نقصانه، وكم عرض هذا المال للمسيري في الطريق ولكنه لم يستطع أن يعوقه عن تلك الأماني الكبار! وكم من مفتون في الطريق على أقل من ذلك بكثير! وحسب الإنسان أمانيه.

❖ من حق المثقف والمفكر أن يكون متواجداً بمشروعه وفكرته وثقافته في أي وسط من الأوساط، وأن يشارك في كل لقاء ومؤتمر ومناسبة، لا لتلك الشهادة التي يحملها أو تلك المكانة التي يتبوأها وإنما للفكرة التي يؤمن بها ويعيش من أجلها، والتي حاجة المجتمعات إليها أعظم من حاجتهم للطعام والشراب، وقد قال لك الأول: المجتمعات الناهضة فرع عن أفرادها الناهضين! وكل مجتمع لا يستثمر مثقفيه في النهضة التي يريدها فلا سبيل إلى تلك الآمال التي يرجوها مع الأيام.

❖ يحتاج المثقف والمفكر وحامل الرسالة إلى نوع من التقدير، وذلك لما يحمله من المقومات البنائية، وفي حديث عائشة ﵂ قال ﷺ: «**أنزِلوا الناسَ منازلهم**»، خاصة أولئك الذين تعبوا على أنفسهم وصنعوا فألاً في واقعهم، وكانوا جزءاً من الحياة، ومن شؤم تلك المجتمعات ألا يجد فيها المصلحون الجادون والمؤثرون نوعاً من التقدير والمكانة التي تؤهلهم للعمل في تلك المساحات.

❖ حين تواجه مشكلةً من المشكلات فلا تحبس نفسك في أحداثها وتغلق عليك بابك وتبكي زمانك على سوء ما وقع لك، بل انهض

وتعامل معها كعارض من العوارض تختبر فيه قدراتك على حمل كل ما يواجهك في الطريق، وتفاعل معه بشكل إيجابي حتى لا يهزمك ويقف عثرة أمام أحلامك الكبار.

❖ حين عاد المسيري ولم يجد فرصة للمشاركة، وحوصر في زاوية ضيّقة، ولم يجد تلك الأوساط التي كان يتفاعل معها ويؤثّر فيها أشغل نفسه بالعمارة المنزلية الداخلية، وبدأ في اقتناء الأشياء القديمة، وبغض النظر عن تصرف المسيري في ما واجه من مشكلة، فالمثقف خاصة أكبر من أن تحصره المشكلة في زاوية ضيقة، وزماننا اليوم مختلف جداً، فما كان بالأمس غير متاح إلا من أبواب ضيقة بات اليوم مفتوحاً ومشرعاً ولا سبيل إلى قفله على أحد من العالمين.

❖ كانت الأدوات في زمان المسيري بسيطة ويحكمها زمرة من الأفراد المتنفذين وهم المسؤولون عن توزيع حصص المشاركة على الآخرين، وانفتح زمانك ولا سبيل اليوم لبشر أن يقف أمام مشاركتك وفرض مساحة تأثيرك، ويبقى وعيك وقدرتك على المشاركة وحظوظ روحك من الحياة، وزمانك أحوج ما يكون للناهضين من أمثالك.

❖ يدوّن لك المسيري كلمةً تكتب بمداد من ذهب فيقول: (ويل للمرء الذي يربح كل شيء ويخسر نفسه)، وما أكثر الخصومات التي يربح فيها الإنسان كل شيء ويخسر في ذات الوقت نفسه! وأياً كانت مشكلاتك التي تواجهها وأحداثك التي تلقاها، وظروفك التي تقابلها يجب أن تحافظ فيها على قيمك ومبادئك وألا تخسر شيئاً من ذلك مهما كانت أرباحك الأخرى في المقابل.

❖ قد تربح مالا أو موقفاً أو وظيفةً ومكانةً ولكن على حساب مبادئك وقيمك الكبرى، فهي وإن كانت في ظاهرها نصراً، ولكنه نصر قام على القيم والمبادئ والمثل، فكان في حقيقته خسارة لتلك القيم والمثل الكبرى في حياتك كإنسان.

أخبرني صديق لا يؤمن تماماً بمسألة الألقاب أنه ذهب إلى النادي مرة فكان كل من يقابله يناديه بلقب (يا باشا)، ولكن أحد العاملين حضر وقال: (أي خدمة يا بيه)، أخبرني صديقي ضاحكاً بأنه فوجئ بأنه شعر بالضيق من هذا الأخير الذي أنكر عليه لقب الباشوية، إلى أن تنبه إلى نفسه فأدرك أن الفرعنة ليست أمراً كامناً في النفس البشرية، وإنما هي أمر يكتسبه المرء ممن حوله.

❖ ما كان لفرعون يوماً من الدهر أن يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] لولا تلك الجماهير التي مدت له أعناقها حتى ركب وأصبحت كالذلول التي يسير عليها إلى أي مكان شاء! وكل ما تراه في واقعك من صور تلك الفرعونية إنما هو أثر من آثار نفخ الجماهير في كل زمان ومكان.

❖ كثيرون ولدوا وعاشوا بسطاء وعاديين ولكن ما كانوا يتلقَّونه من تلك الجماهير التي حولهم هو الذي نفخ فيهم تلك الفرعونية الكامنة، وما زال بهم حتى أصبحوا جبابرة لا يبالون بما يصنعون.

❖ علينا أن ننزل الناس منازلهم، وإذا جرى من أولئك شـيئاً جميلاً يستحق الثناء يجب أن نمدحهم فرادى وجماعات سراً وعلانية، وكذلك إذا أخطأوا يجب أن يبين لهم الحق في إطاره ومساحته الشرعية، وإنزال الناس منازلهم مطلب شـرعي، ولكن فرق كبير بين نفاق يسـوّق له من خلال مديح ساذج كاذب، وحق يجب أن يكافأ صاحبه بالمعروف.

صاحب الفكر هو إنسان قد طوّر منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بقدرٍ من الترابط والاتساق الداخلي، فهي تعبر عن قلقه وآماله، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد ـ رؤية واحدة للكون ـ أما ناقل الأفكار فهو إنسان ينقل أفكاراً متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط، وتنتمي كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة.

❖ يبين لك المسيري الفرق الجوهري بين المفكر وناقل الفكرة، الأول يبني وينظم ويطوّر أفكاره في شـكل مترابط يؤدي إلى تلك المعاني التي يسـعى إليها في النهايات، والثاني مجـرد ناقل لأخبار وأفـكار وثقافات الآخرين فحسـب، وهـو درس نافع للتفريـق بين المفكر وغيـر المفكر، والمثقف وغير المثقف، وصاحب الفكرة التي يعيش لها، والداعم المشجع لها فحسب. وما أكثر الخلط بين هذه المفاهيم في زمانك! فلا تغرك الصور.

❖ ثمة علماء ومفكرون حيـن تنظر لنتاجهم الفكري ترى فكرة كبيرة وعظيمة من خلال منظومة من الأصـول المنهجية التي تقوم عليها، وترى



في الجانب الآخر كثيراً مــن النتاج الفكري، ولكنه شــتات لا يمثل هذا المعنى العميق في النهايات.



بدأت في كتابتي لرسالة الدكتوراه وعنوانها: (الأعمال النقدية لوليام ورد زورث وولت ويتمان: دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ)، وأصبحت الرسالة قضية شخصية تهمني بشكل وجودي، وقد أصبح ويتمان بالنسبة لي رمزاً للسيولة والعدمية واللامعيارية التي تهدد الإنسان، ولذا قرأت كل رسائله الشخصية، المنشورة منها وغير المنشورة، بل وذهبت إلى مدينة كامدن حيث أقام فيها في الأيام الأخيرة من حياته، وبدأت أجمع الحكايات التي انتشرت حوله، وكعادته معي تحمس أستاذي البروفسير وايمر للرسالة بشكل منقطع النظير، فكان نِعْم المشرف ونِعْم الصديق، وحين انتهيت من كتابة الرسالة اختار ثلاثة أساتذة لمناقشة الرسالة، من بينهم الأستاذ بول فسيل وهو من كبار الكتَّاب الأمريكين في الوقت الحاضر، وكنت أمقت الرجل، وكان ـ والحمد لله ـ يبادلني المشاعر نفسها، وكان الصراع بيننا يأخذ شكل مبارزة فكرية مستمرة، وحذرت أستاذي المشرف وقلت له: إن الهوة الفكرية التي تفصل بيني وبينه ضخمة وسيكون من العسير عليه اجتيازها، وبالتالي سيكون من الصعب إن لم يكن من المستحيل عليه مناقشة رسالتي، فضحك الأستاذ وقال: أنت دكتاتور وسلطان شرقي لا تفهم الديمقراطية الأمريكية وروح الليبرالية، فقلت له: أنا أفهم جيداً حدود الديمقراطية



والليبرالية.. هناك خطوط حمراء إن عبرتها قضي عليّ وقد عبرت هذه الخطوط في رسالتي للدكتوراه، طالب من العالم الثالث يتحدى الرؤية الغربية السائدة، قدمت الرسالة وقابلني بيولي وأخبرني بأن رسالتي للدكتوراة هي أحسن رسالة قرأها في حياته الأكاديمية، أما برفسير فليبس فقد قابل الرسالة بفتور شديد وقال باقتضاب: عمل عظيم، ولم يثر أي اعتراضات ولم يتفوه بأي كلمات مدح أو قدح، ولا أعرف سر هذا الفتور حتى الآن، أما فسيل فأمره كان مغايراً، إذ أعاد رسالتي بعد ساعتين من تسلمه لها ورغم أنه فعل ذلك بسبب وجود خطأ في علامات الترقيم في الصفحة الثانية! أو كما قال في خطابه: لا يمكن أن أقرأ رسالة للدكتوراه تحتوي على خطأ في استخدام الفاصلة في الصفحة الثانية، فصعق أستاذي وأخبرني بأن ما قلته عن حدود الديمقراطية على ما يبدو صحيح، فاضطررت لقضاء ستة أشهر كاملة لإعادة كتابتها وتنقيحها. فأسقطت التقسيم البرختي، كما استبعدت كثيراً من عبارات الذم والقدح في ويتمان وفي الحضارة الأمريكية، ودرست علامات الترقيم في الإنجليزية دراسة عميقة للغاية إلى درجة أن دار النشر التابعة للجامعة كانت تتصل بي لاستشارتي في بعض المشكلات المتعلقة بهذا الأمر، ومع كل هذا لم أغيّر من رؤيتي، وكل ما فعلته أنني استخدمت أسلوباً بارداً حيادياً قلت من خلاله كل ما أريد، بل إنني زدت من عيار الهجوم الفعلي ووازنت هذا ببرود أسلوبي وحياده. ثم تقدمت بالنسخة الجديدة، فوافق فسيل عليها وكتب خطاباً بدأه بالعبارة التالية: هذه رسالة ممتعة بشكل يدعو للجنون، وهي عبارة لخصت موقفه المبهم وبينت أن



تحدي النموذج المعرفي المهيمن أمر من الصعب على المرء تقبله، وحدد موعد المناقشة، وفوجئت بالأساتذة بما في ذلك البروفسير بيولي قد جاؤوا ومعهم أطناناً من الورق وأسئلة مكتوبة، وهذا أمر غير مألوف بعد قبول الرسالة للمناقشة، وصعق أستاذي للمرة الثانية، وقررت أن أستخدم مدفعيتي الثقيلة وبكل ضراوة، وفوجئت بأن أستاذي اكتشف الموقف أيضاً فقرر أن يأخذ صفي دون أي تحفظ، وهذا أيضاً أمر غير مألوف، فوظيفة المشرف في مثل هذه الحالات هي إدارة الحوار وحسب، وبدأت المبارزة فسألوني عن غياب بعض كبار النقاد من قائمة المراجع، فلخصت لهم أطروحات هؤلاء النقاد ووصفتها بأنها أطروحات تافهة، ومن ثم فهم لا يستحقون أن يذكروا في رسالتي لأنني لن أذكر كل من هب ودب، وعرض عليّ أحد الأساتذة بعض مقطوعات من شعر ورد زورث ذات طابع حلولي مغرق في الحلولية، فقلت على الفور أعرف هذه المقطوعات الحلولية المتطرفة وأعرف أنها وجدت ضمن أوراقه، ولكن الأهم من هذا كله أنه قام بحذفها من قصائده، وحذفها من شعره أعمق دلالة من وجودها في درج مكتبه! وبعد انتهاء النقاش خرجت من الغرفة حتى تتداول اللجنة، وحينما عدت أخبروني بأنهم وافقوا على منحي درجة الدكتوراه، ووقع منهم ثلاثة على الرسالة بموضوعية بالغة ثم أداروا ظهورهم لي ولم يصافحوني كما هي العادة في مثل هذه المناسبات، فصعق أستاذي للمرة الخمسين وقد اعترته الدهشة، وقال أخبروني بأنهم قالوا لي في أثناء المداولة أن حياتهم ستكون مختلفة بعد رسالة المسيري، وهذا أقصى ما تطمح له أي رسالة، ثم تساءل: لماذا إذاً



عاملوك بهذه الطريقة الجافة الجافية؟! فشرحت له للمرة المئة نظرية الخطوط الحمراء التي لا يمكن للمرء عبورها وأن هذا ما فعلته.

❖ فرق كبير وجوهري بين رسالة علمية يراد منها الحصول على الشهادة العلمية كما عليه جماهير من أصحاب هذا المعنى، بسبب نظام الدراسة وضيق فكر المسؤولين في مرات كثيرة بلغة المشاريع في تلك الجامعات، وغير ذلك من الأسباب التي تجعل الطالب لا يعيش فكرته ومشروعه وقضيته وروحه ومشاعره خلال بضع سنوات، وينتج من خلال هذه المعاني أحداثاً تستحق الحياة، بل تجعله مأسوراً بفكرة ليست فكرته، وعملاً ليس له، ومجالاً لا يتوافق مع روحه ومشاعره، فتراه أعجل ما يكون على النهاية، وعهده برسالته حين أجيزت من تلك اللجنة في ذلك الحين. بخلاف رسالة صاحب الفكرة والمشروع والقضية الحاضرة في ذهنه كالمسيري التي كانت تمثل له كل شيء في حياته، حتى قال أصعب المناقشين في النهاية: (هذه رسالة ممتعة بشكل يدعو للجنون).

❖ الشغف وحده يصنع هذا المعنى الذي يذكره لك المسيري حين قال: (قرأت كل رسائله الشخصية المنشورة منها وغير المنشورة، بل وذهبت إلى مدينة كامدن حيث أقام فيها في الأيام الأخيرة من حياته، وبدأت أجمع الحكايات التي انتشرت حوله)، وفرق بين فكرة تعتنقها ومشروع يلامس شغاف روحك ومجال وتخصص تجد له كل شيء في مشاعرك، ومجرد رسالة لشيء ما في عرض الطريق!

❖ الأعمال الكبيرة تجبر المعارضين المناوئين لها على الاحترام، ومن حق ذلك المشروع الفكري الذي عبر فيه صاحبه الخطوط الحمراء



للديمقراطيــة أن يقــول المناقش الأول فــي لقاء عارض: (أن رســالتك للدكتوراه هي أحسن رســالة قرأها في حياته الأكاديمية)، وقال له الآخر: (عمل عظيم)، ومهما كانــت عداوة عدوك والمناوئ لــك إلا أن الإبداع يفرض واقع الدهشة في نفوسهم ومشــاعرهم، ويعترفون مهما كانت كلفة الاعتراف في ذلك الحين، وهذا الاعتراف والتعبيــر بالعظمة يدلك على عظيم ما صنعه المسيري في تلك الرسالة رحمه الله تعالى.

❖ لقد أخذ أحد المشــرفين موقفاً معادياً من صاحب الرسالة وحامل الفكرة بغض النظر عن رسالته التي اعترف صاحباه بدهشتهما منها، فأعاد الرسالة بعد ساعتين فقط قائلاً: (لا يمكن أن أقرأ رسالة للدكتوراه تحتوي على خطأ في استخدام الفاصلة في الصفحة الثانية)، وكذلك النفوس! لقد سيطر عليه موقفه من حامل الفكرة، فأعاد رســالة برمتها لصاحبها كلفته بعد ذلك أن يبقى ستة أشهر حتى لا يجد فيها ذلك المبغض مدخلاً يتسلل منه مرة أخرى، وللنفوس حظوظ، ويظل الإنســان بشراً وتجري عليه هذه الطوارق وتؤثر فيه حتى يخرج في مرات عن منظومة العدل والإنصاف.

❖ من أدهش ما في رحلة المسيري الفكرية أنه لا يؤمن بالمستحيل، وأنه ينحت من الصخر ليكون سهلاً مبسوطاً ومساحة ربيع، حين عادت له رسالته بسبب خطأ في علامات الترقيم قال: (ودرست علامات الترقيم في الإنجليزية دراســة عميقة للغاية إلى درجة أن دار النشــر التابعة للجامعة كانت تتصل بي لاستشارتي في بعض المشكلات المتعلقة بهذا الأمر)، لم يبدأ في إصلاح تلك الأخطاء فقــط، وإنما أعاد ترميــم بنائه العلمي من جديد في هذا الفن، فأكب عليه حتى أصبح مستشاراً لدور النشر في هذا الباب. وكذلك صُنّاع الحياة!

❖ لو لم يعلمك المسيري إلا قضية الاعتزاز بما تملك من طاقات وقدرات وإمكانات، وينفخ فيك روحاً تؤهلك أن تكون شخصاً يستحق الاحترام والتقدير لكان كافياً، فيكف وهو يغريك بقضية الفكرة والتخصص والمشروع الذي يجعلك قادراً على أن تقف أمام أساتذة العالم كلهم وتقنعهم بما تملك من فكرة وقضية؟! وأدعوك إلى قراءة النص الذي دوّنه المسيري مرتين أو ثلاث من جديد لعلك ترى الحياة.

"

من أهم الأحداث المرتبطة بالموسوعة ما حدث في أثناء الاجتياح العراقي للكويت، إذ اكتشفت أن كل مراجعي وأوراقي ونسخ الموسوعة الوحيدة هناك في الكويت، ولم يكن من الممكن أن أبقى في القاهرة بعيداً عن هذا غير عارف بما يحدث لهذا الاستثمار الفكري، فقررت أن أذهب للكويت فإما أن أمكث بجوار أوراق الموسوعة ومراجعها وإما أن أحضرها معي للقاهرة، وكنت أقدم زوجتي ضاحكاً قبل سفري باعتبارها أرملتي، ثم قمنا بالرحلة، وقد مكثت في الكويت في أثناء الاجتياح زهاء ثلاثة أسابيع لم أتوقف أثناءها عن العمل في الموسوعة، ثم اتفقت مع مجموعة من الأصدقاء على استئجار تريلا (عربة نقل ضخمة) وضعت فيها كل صناديق الأوراق التي تخصني (حوالي ثلاثين صندوقاً)، وركب أصدقائي سياراتهم ونسيت أنا سيارتي من فرط فرحتي بالأوراق، وذهبنا إلى بغداد ومنها إلى الرشيد فالعقبة فنويبع فمصر الجديدة في القاهرة، وقمت بتفريغ السيارة واستأنفت العمل في الموسوعة.

"

❖ ما زال المسيري رحمه الله يعلمنا في هذه السيرة الشغف في أجمل وأبهج صوره على الإطلاق، بلادٌ تشبُّ فيها حربٌ مستعرةٌ وتجري فيها الدبابات والطائرات ويدخل تلك البلاد غير آبهٍ بكل ما يجري فيها من أجل فكرته ومشروعه وقضيته الكبرى التي يعيش من أجلها، وكذلك تصنع المشاريع.

❖ لن تفهم ما يصنع المشروع في حياتك حتى تقرأ هذا الفصل الذي يسرده المسيري على مسمعك ويجمع فيه بين الحرب بكل فصولها والاستمتاع في ذات الوقت في كل صوره ومشاهده، حتى أنه من فرط فرحه ترك سيارته ورافق فكرته وشغفه في الحياة!

ثقتي بنفسي هي في نهاية الأمر ثقة بالإنسان وبمقدراته على تجاوز ذاته وعلى الإصلاح والتحول، وعلى معرفة حدوده، فهي ثقة لا ينتج عنها غرور وخيلاء، وإنما اعتزاز بالإنسان وقدراته وتفاؤل بخصوص المستقبل، وتولد هذه الحالة في نفسي مقدرة على مزيد من العمل من أجل إقامة العدل في الأرض وخلق مجتمع يليق بنا كبشر، ولم يكن مشروعي مشروعاً خاصاً للشهرة أو اللذة أو تحقيق الذات على حساب الآخرين، وإنما كان مشروعاً له بعد إنساني عام، سواء حين كتبت عن الصهيونية أو عن الأدب أو عن قصص الأطفال. وأحرص دائماً في مؤلفاتي أن أعطي كل ذي حق حقه حتى لا أنسب لنفسي شيئاً لم أقم به، كما أحاول أن أعوّض من يتعاون معي عما بذله من جهد بشكل أو بآخر بخلاف ما أدفعه له من أجر زهيد.

❖ لقد كانت ثقة المسـيري في قدراته وطاقاته وإمكاناته تدعوه للعمل والتركيز والإبداع وصناعة الفرق، ولم تقف يوماً غروراً ينفخ فيه صور الزور والكذب والارتفاع على الآخرين. ثمة أفراد ينالون هذه الشهادات العلمية أو بعضها فتراها باسـطة بكل ما فيها من كبر واستعلاء في وجهه وصوته وفي كلمته، وتشـاركه في شكل جلوسـه وقيامه وحديثه مع الآخرين، وآخرون ترى جمالها في أفكارهم وأدبهم وأرواحهم ومشاعرهم وفي كل شيء.

"أبذل جهداً كبيراً في محاولة العثور على المواهب الشابة وتشجيعها، فهم في مجتمع غرق تماماً في تفاصيل الحياة اليومية واستوعبه الإيقاع السريع المجنون، وبدأت النمطية تهيمن عليه، في هذا المجتمع يمكن أن تولد عقول مبدعة، ولكنها تضيع في الزحام، ولا تتعرف على نفسها وتفقد الثقة في ذاتها إن لم يرعها أحد، خاصة مع غياب أي مؤسسات بحثية فعالة ترعاهم وتنمي قدراتهم."

❖ وهذا ما يميّز الكبار، والعارفين بمقـدرات المجتمعات والأوطان والأمم، وكم من صغير رُعي في باكر عمـره فكان حياة للأمم بعد ذلك! وكم من شـاب يقعد اليوم على مقاعد الفصول الدراسية وهو الروح التي سـتبعث العالمين للحياة يوماً ما! ومن فقه المربي أن تقع عينه على هذه النماذج الجادة والموهوبة والمولعة بالحياة فيتعاهدها بالسقيا حتى يروي منها واقع الأحلام في مسـتقبل الأيام، كم من صغير اليوم هو صيد ثمين لموفَّقٍ وقع نظره عليه وما زال يتعاهده بالغرس حتى أصبح ملهماً للأحياء!



وقد قال النبي ﷺ: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطَعَ عملُه إلَّا منْ ثلاث.. أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»، قال السعدي رحمه الله: وهذا ليس في ولد الصلب فحسب، وإنما يجري حتى في ولد العلم. اهـ

❖ لقد وصف المسيري هذا الزمان وصفاً صادقاً حين قال: (في مجتمع غرق تماماً في تفاصيل الحياة اليومية واستوعبه الإيقاع السريع المجنون وبدأت النمطية تهيمن عليه)، زمانٌ يجمع لك الهوامش والفوضى والفراغ والعبث في كل زاوية من زواياه، زمانٌ يلهيك بالصوت والصورة، ويبني لك صروحاً من الأوهام حتى يجعلك هامشاً في كل شيء، فتنبه لما يجري في زمانك من فوضى، وكن جبلاً في مواجهة تلك المغريات، وقرر ألا تهزمك هوامشه أو تلقي بك فارغاً في ساحاته في قادم الأيام.

> وكان مشروعي المعرفي خاصة إبان كتابة الموسوعة يشبه الهوس من بعض الوجوه، ولكنني مع ذلك لم أهمل حياتي العائلية الاجتماعية، فرتبت لأولادي حياتهم ولم أتوقف عن رؤية أصدقائي وأقاربي، ولم أتوقف عن التمتع بكثير من جوانب الحياة، باختصار شديد: لم أتحول إلى راهب ينكر عالم الجسد والطبيعة رغم أن مشروعي المعرفي تملّك ذاتي وجوانحي.

❖ يشير المسيري في هذه الخاتمة إلى نوع من الوعي؛ وهو القدرة على التوازن في حياة صاحب المشروع، وأنه استطاع أن يحافظ على تركيزه على مشروعه مع نجاح علاقاته العائلية والاجتماعية في ذات

الوقت من دون أن يكون هناك نجاح دور على حســـاب آخر، وهو ما يقع لكثير من أصحاب المشاريع.

❖ في مرات نمنح مشـــاريعنا كل شـــيء ولكن على حساب جوانب أخرى، فننجح في مسار على حساب مسارات أخرى، ونخرج في النهايات بنجاح ضخم في المشروع الشخصي ولكن على حساب ضياع الأسرة أو العلاقات الاجتماعية، أو حدوث الأمـــراض، وإن كان ما يجري بقدر الله تعالى ولكن العمل بالأسباب فقه ووعي.





سليمان الراجحي

”

الإيمـان بالفكـرة والمشـروع، وصلابـة الرأي وقـوة العزيمة وعـدم التـردد، ورفض الاستسـلام لعوارض الطريـق، ومعرفة أدق التفاصيل في مشـروعه الشـخصي، مع رؤيةٍ ملهمةٍ يسـير فـي فلكهـا، ومنظومـة قيم كبرى لا يكاد يتخلف عنها هي أعز ما يمكن أن يُقـرأ بوضـوح مـن خـلال هـذه السـيرة الذاتية، فدونك الحياة!

نشأت في بلدة البكيرية إحدى مدن القصيم، وبقيت فيها ست سنوات، ثم انتقلت مع والديّ على الإبل إلى الرياض، وبدأ والدي هناك في التجارة من خلال صندوق يبيع فيه الثياب والمشالح ونحوها بأشياء بسيطة جداً، وبدأت أشعر بالمسؤولية وأنا في التاسعة أو العاشرة من عمري فقررت أن أعمل، فكنت أذهب إلى السوق وأعمل حَمّالاً، وإذا جاء وقت الصلاة أحفظ للناس حقوقهم حتى يصلّوا، وكل ذلك لا يزيد على قرش ونصف القرش، وذات مرة حملت لحماً وكرشاً وكبداً لأحدهم على رأسي وكان دمها يسيل على رأسي وثوبي حتى وصلت إلى مكانه، فلما رآني قال: يا ولدي نغسل لك ثوبك وإلا نعطيك قرش، فقلت أعطني قرشاً ويكفيني، ثم ذهبت إلى أقرب بئر وغسلت ثوبي وأنا لابسه في أيام البرد، وكنت أركض ذهاباً وعودة حتى نشف الثوب، وأذهب في العصر لمحلات الحطب حين يأتي أهل الجمال، فألقط الحطب الساقط وأجمعه ثم أبيعه بعد ذلك.

❖ الظروف الصعبة والأحوال المرة في مـرات كثيرة تصقل صاحبها وتدفعه للعمل والبناء وتحضه على المشاركة الفاعلة في بناء نفسه، بعكس البيئات المنعمة فقـد تلقي بظلالها علـى أصحابها، فتخلـق فيهم روح الاتكالية حتـى يصبحوا عالة على غيرهم زمناً مـن أعمارهم، وليس هذا على إطلاقه، فكم في البيئات الناعمة من أجيـال قررت الحياة وصنعت شـأناً في العالمين! وكم فيها في المقابل من قاعد لا يسـتطيع أن يحرك ساكناً فضلاً عن أن يكون له موقعاً، وكم في المقابل من فئات في البيئات الضعيفة تربت على الكسل واستسلمت لظروفها وتعلمت السؤال وبقيت

زمنها كله تعيش على عطاء المحسنين! وكم فيها من صنع لنفسه موقعاً وترك إرثاً تتداوله الأجيال على مر الأزمان!

❖ الشعور بالمسؤولية من أعظم ما تصنع لك الحياة، وإذا رأيت مُجلّاً لوقته وحافظاً لعمله وقائماً بأدواره فتلك بعض منازل ذلك الشعور في قلوب الأحياء، وإذا رأيت في المقابل قاعداً ومتخلفاً ومتأخراً، فلفَوات حظوظ ذلك المعنى الكبير من القلوب.

❖ لقد أدرك الراجحي هذا المعنى من باكر عمره فرفض الاستسلام لهذه الظروف، ورفض أن يبقى منتظراً لعطاء والديه كما هو حال كثيرين في زمانك، فأقبل على العمل وتحمل في سبيل ذلك كل شيء، وما حاجة الأجيال إلى شيء في زمانك بعد تقوى الله تعالى حاجتهم إلى هذا الشعور الذي يدفعهم لتحمّل حرارة الشمس وحر الرمضاء وطول الطريق ووعثاء الحياة.

❖ مستقبلك صورة لحاضرك، فانظر إلى ما تصنع اليوم فهو مستقبل الغد بكل تفاصيله وأحداثه ومشاهده. وإذا أردت صورة مكبّرة لهذا المعنى فانظر لواقع سليمان الراجحي وهو يملك هذه الأموال الضخمة التي بنى من خلالها المؤسسات، وأنشأ منها الجامعات والجوامع والمكتبات، وطبع الكتب، وشيّد الأوقاف، وأعان الناس على حج بيت الله تعالى، وأجرى فصولاً للحياة ستظل بإذن الله تعالى ما بقي الزمان.

❖ كان القرش والنصف عند هذا الكبير أثمن وأعود عليه من غسل ثوبه من الدماء التي سالت عليه، لقد أخذ قرشه وتحمل في المقابل عناء تنظيف ثوبه وأعباء غسله وتكبد أذى البرد، وقاسى العناء، وبلغ به الحال إلى أن يجري في البرد ذهاباً وعودة حتى ينشف ذلك الثوب، فقل لي بالله عليك: ما يجري من هذه الصور في واقعك وزمانك؟!

❖ نعيش بحمد الله تعالى في نعيم كبير وتجري مشـــاهده وظلاله في واقعنا إلى أقصى مدى، وقد قال ﷺ: «**مَنْ أمســـى مِنْكم آمناً في سِـــرْبه، معافًى في بدنـــه، عندَهُ قـــوتُ يومِـــه وليلته، فكأنَّمـــا حيزتْ لـــه الدُّنيا بحذافيرها**»، ولئن استطاع ســـليمان الراجحي ـ كمثال ـ أن يفلق الصخر ويستخرج منه رزقه الذي كتبه الله تعالى له، ويؤسس به مشروعه الضخم، فلا أقل من أن نســـتثمر هذا النعيم فيما يمكننا مـــن الصعود وصناعة فأل الحياة في مستقبل الأيام.

❖ في زمانك تســـتطيع بقليل من الجهد والتركيز أن تكوّن نفســـك وتصنع واقعك من خلال العيش للفكرة المناســـبة لطاقاتك، والمشـــروع الملائم لإمكاناتك، والقضية التي تخاطب قلبك ووجدانك وتناغم روحك ومشاعرك، وتكتب في النهاية لنفسك تاريخاً تبقى به حياً ما بقيت الحياة.

❖ لا تستســـلم، وإياك ألف مرة أن تشتكي من قلة الأعوان، فالفرص متاحة بصورة لم تشهدها الحياة من قبل، ووسائل الاستثمار فوق تصورك، ولســـت بحاجة إلا إلى إيمانٍ يملأ قلبك بما تملك مـــن طاقات وقدرات وإمكانات، وحسن توكّلٍ على ربك، وكثرة دعاءٍ وإلحاح، وصدق، وإرادة صلبة تواجه بها معركة الفوضى التي تواجهك حتى تلقى أمانيك.

ذلك القرش والنصف والقرشان اللذان كنت أجنيهما في ذلك العمل إما أشتري بهما صاعاً من طحين في حدود الاثنين كيلو، أو أشتري بهما رأساً وكرشه وكرعان وأوصلها للوالدة، وكنت أشعر أن ما أقدمه خدمة للوالد وعون مني له على تكاليف المعيشة في ذلك الزمان.



❖ تقرأ فــي هذا الفصل من ســيرة هذا الكبير عمــق القيم التي كان يتحلى بها وهو في باكر عمره وأيام صغره وظروفه وحاجته، لقد كان يبذل يومه وفي أشق الأعمال ويتحمل على صغر سنه كل ما يعرض له في سبيل ذلك المال، ثم يُلقي به بين يدي والديه ويرى أن ذلك هو الحياة، فيا لله ما أعظم تلك القيم التي كان يتحلى بها في ذلك الزمان!

❖ قارن هذا الفصل في ســيرة الراجحي بما فيه من كبد وعناء بواقع كثيرين في مثل زمانك تربوا زمناً طويلاً على عرق وأموال وهموم والديهم، ثم توظفوا وتزوجوا وانفصلوا في النهاية عن والديهم بالكلية وعاد الوالدان من جديد في أسر الحياة وظروفها بعد أن كان الأمل قاب قوسين أو أدنى. ولو أن الواحد من هؤلاء رأى فقط ما جــرى من فصول التوفيق للراجحي بعد ذلــك البذل لأدرك مــا ينتظره من هــذا المعنى في مســتقبل الأيام، والموفَّق من وفقه الله تعالى، ولا حدود للحرمان، وقد قال رســول الله ﷺ: **«مَنْ أرادَ أنْ يبسَطَ لهُ في رزقهِ ويُنسَأَ لهُ في أجلِهِ، فليصِلْ رحمَهُ»**.

"

توفي عمي فذهبت معه إلى حائل، وبقيت أخدمه هناك، أطبخ وآتي بالماء على رأسي وأصنع له كل شيء، وقررت أن أستثمر بقائي في ذلك المكان وألا أتوقف لتلك العوارض، فرأيت النساء هناك يأتين بالبطيخ من المزارع، فقررت أن آتي به وأبيعه للناس وأربح من خلال ذلك، وما يأتي من ذلك أشتري منه ما يحتاجه الوالد من القهوة واللحم، ثم رأيت في المقابل كبير سن يُصلح طائرات من ورق ويبيعها للأطفال بقرش، فقررت أن أمارس ذات الدور، فبدأت أشتري معه واحدة وأفككها وأركبها، ثم أصلح عشراً أخرى على هذه الطريقة

ثم أقف أمامه وأبيع بنصف قرش وهو يبيع بقرش، حتى قال ذات مرة: يا هذا الصبي ما أقشرك! وبقيت على ذلك حتى رجعت إلى الرياض.

❖ الإيمان بأثر ما نفعل من خير محفِّز كبير في الصبر على طول الطريق وكلفته، ما زال الابن سليمان الراجحي وهو في قابل عمره وفي الحادية عشرة سنة يشعر بمسؤوليته تجاه والده ويسافر معه ويتفرغ لخدمته ويبقى معه في كل زمان ومكان، وما حاجتنا لشيء كحاجتنا لفقه هذا المعنى الكبير وعوائده على حياتنا بعد ذلك، وما حاجة الوالدين كذلك إلى شيء حاجتهما إلى من يتذكّر سالف الأيام ويردُّ بعضاً من الجميل.

❖ من فقهك أن تدرك أن ما يبذل في الخير سيظل أعود ما يكون عليك بالبركة والتوفيق في حياتك، والنماء في مالك، ولا تظن يوماً أن ما تدفعه لوالديك أو تنفقه عليهما أنه ضائع من مالك، بل هو كل شيء في مستقبل الأيام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: **«ما من يومٍ يصبحُ فيه العبادُ إلّا وينزلُ فيه ملكان، الأولُ يقولُ: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقاً خلفاً، والآخر يقول: اللَّهمَّ أعطِ مُمسِكاً تلفاً»**.

❖ العمل والحركة من أعظم مقومات النجاح في حياة الناجحين والمبدعين، ترى هذا الرجل لا يكاد يسكن على صغر سنه، ولا يتوقف في مساحة ما، وما وجد نفسه في مكان إلا عَمَرَه بالعمل والبذل والتضحية حتى بلغ أمانيه، ولا سبيل إلى أحلامنا إلا من خلال ذلك.



❖ العمل والحركة والتجربة والمشاركة الفاعلة تغري صاحبها بالحياة، وتعينه على استكشـــاف المجهول، وتربيه على الشـــجاعة، وتجعله أكثر خصوم الوهم وأشـــدهم عداوة له، ولا سبيل لكسر رهبة البدايات والتردد إلا من خلال كسر رهبة الخطوة الأولى، وتبديد أوهام البدايات فحسب.

❖ الإيمان بأن الأرزاق لا تطرق أبـــواب البيوت، ولا تأتي فجأة، بل تحتاج إلى بذل جهد وتعب وعناء في الطريق حتى تصل منها إلى أمانيك، وهذا العناء من الراجحي وهو في باكر عمره جزء من هذا المعنى الكبير.

❖ قرر هذا الصغير في عمره، الكبير في همته أن يتمرد على الكسل، ويكسر روتين الحياة، ويصنع جديداً، ويقرّب مسافات الأمل، فبدأ بالعمل في أرض الغربة وفي باكر عمره وترى أن عينه مفتوحة على كل ما يجري في واقعه، وعازم على تحويل تلك المشاهد إلى فرص عمل قابلة لصناعة التحديات، رأى نســـاء يأتين بالبطيخ فأقبل على ذات العمل وكســـب من خلاله، ورأى كبير ســـن يصلح طائرات من الورق فتعلم ووقف في ذات المكان وكسب من خلال تلك الفكرة ما يريد.

❖ من فقه هذا الكبير أنه يعرف أن القليل الدائـــم أربح له من كثير، يقف زمناً طويلاً لا يتحـــرك، تعلم صناعات الطائـــرات الورقية من ذلك الرجل، ثم كان الرجل يبيع بقرش فأنقص القيمة واســـتولى على السوق وباع ما لديه وتراكم ذلك القليل حتى كوّن شـــيئاً في النهايات، وكم من أصحاب تجارات وقفت في النهاية حين تخلفوا عن مبدأ (أدومه وإن قلّ)، وفاتهم هذا الفقه ففاتتهم الحياة، وكم من كثيرين صعدوا من خلال قاعدة (أدومه وإن قلّ).

طلب مني أبي ذات مرة ومن أخي محمد أن نبني بيتين بمئة وخمسين ريالاً، فكنا نصلي الفجر ثم نذهب نأخذ الماء من الآبار ونملأ البراميل ثم ندفعها حتى نوصلها لمكان البناء، ثم ننظر، فإذا كان معنا وقت بدأنا العمل وإلا ذهبنا للمدرسة ثم عدنا لها بعد نهاية الدوام، وبقينا في مدة البناء سنة كاملة حتى أنجزنا البيتين، وكان هدفي من ذلك البناء أن أجمع مبلغاً وأعطيه أمي، فأتممنا العمل وطلبتُ الأجرة من أبي فرفض، وقال لي: أنت ومالك لأبيك، فعدت إلى نفسي واعتبرت ذلك خطأ مني أن أطلب من أبي ثمناً على ذلك الجهد، وقبلت ما قال بسرور وأُنس، واعتبرت ذلك جزءاً من تربيته لي، ثم قال لي بعد ذلك: ما رأيك أفتح دكاناً وتعمل فيه والربح بالنصف؟ وأعطاني عشرة ريالات لفتح الدكان، وبدأت العمل، غير أن أبي كان يأتي لهذه البقالة في كل مرة ويأخذ ما يحتاجه منها من (سكر وشاي وقهوة وهيل) بدون مقابل، وبقيتُ على ذلك ستة أشهر لا أجد فيها عائداً، كل الربح يذهب في قهوة واحتياجات أبي، ثم اعتذرت من ذلك العمل بلطف وعدت للحمالة من جديد.

❖ طاعة الوالدين من أعظم القرب وأجلها عند الله تعالى، ولعل ما آل بصاحب هذه السيرة إلى هذه النهايات المدهشة التي يعيشها اليوم كانت أثراً لهذه القيمة الكبرى في حياته، كان العمل الذي سأله والده أن يتولاه يأخذ سنة من عمره، وفيه من المشقة ما فيه، فقبل ذلك من دون تردد، وبعد رحلة سنة من عمره في بناء هذين البيتين مع أخيه رفض والده أن

يعطيه شيئاً، وكانت نفسه في قمة الرضا والقبول، واعتبر ذلك بعض واجبه ولم يتوقف بعد ذلك عن خدمة والديه أو المشاركة معهما بما يعينهما على الحياة، والأدهش أنه كان يعمل سنة كاملة وفي نيته أن ذلك المال لأمه لا لشؤونه الشخصية، وهو درس صالح للأجيال في كل زمان ومكان.

❖ يمكن لأي إنسان أن يقول: العمل الذي بقيت فيه عاماً كاملاً ونتائجه التي خرجت بها، لا سبيل لتكراره ما دام سيؤول إلى تلك النهايات إلا في عرف وأخلاق وقيم هذا الكبير، يعود إليه والده فيكرر معه ذات التجربة في العمل شراكة من خلال مشروع البقالة، ويبدأ فيه ولم يكن ثمة فارق بينه وبين قصة بناء البيت، يأتي الوالد ويأخذ كل الأرباح التي تأتي في حاجياته الخاصة، وبقي هذا الكبير يعمل زمناً من عمره ولا عائد له إلا رضا والديه، وحين اعتذر، اعتذر بلطف لأن هذا العمل لا يصنع له جديداً، ويمكنه أن يدير عملاً آخر يلبي حاجته وحاجة أبيه في ذات الوقت.

❖ من مباهج هذه الشخصية أنها لا ترفض لوالدها طلباً، وتقبل كل التجارب التي تأتي في هذا الطريق من غير تردد، لإيمانها الكبير أنه لا خسارة فيها البتة، ولو لم يكن فيها إلا صلاح النية ونفع الأبوين وسد حاجتهما، وقد قال ﷺ: «**واللهُ في عوْنِ العبدِ، ما كانَ العبدُ في عونِ أخيه**»، وقال ﷺ: «**رضا الله في رضا الوالدَين، وسخط الله في سخطِ الوالدَين**»، ولا عذر للأبناء البتة في تحقيق هذا المعنى الكبير لوالديهما مهما كانت ظروف الطريق.



تركت العمل في تلك البقالة وبدأت مشروعاً في بيع الجاز من خلال برميل كبير وفيه طرنبة وأفرغ منه للمشتري على قدر حاجته، وأبقى على ذلك يومين وثلاثة حتى ينتهي ذلك البرميل، وأجد ربحي في النهاية قرشين وثلاثة، ثم توسعت فأخذت حلاوى وأبيعها بجانب عملي في الجاز، ثم يأتي الوالد ويطلب أشياء من هذه الأموال التي أجمعها وأجيبه إلى سؤاله ولا أقول: لا، وأخذت في هذا المجال سنتين مع عمل الحمالة الإضافي يومي الخميس والجمعة، ولا أعرف أن أبي اشترى لي يوماً ثوباً أو غترة، أنا أشتري كل لباسي، وكل ما أحتاج أنا أوفِّره لنفسي.

❖ كثيرون تؤثر فيهم التجارب السلبية وتحملهم على القعود وتولد لديهم اليأس وتبني في نفوسهم الأسف والركون والقعود في قادم الأيام، والمدهش في سيرة هذا الكبير أنه لا يؤمن بالعقبات ولا التجارب المخفقة ولا الأحداث السلبية، بل تزيده صلابة وقوة وإقبالاً، ترك العمل في البقالة وأقبل على مشروع الجاز ولم يقتصر عليه، بل فتح مشاريع إضافية حتى يضاعف دخله ويجاوز ظروفه الصعبة ويكوّن نفسه مع الأيام، وكذلك الحياة.

❖ يعود والده من جديد ويأخذ من هذه الأموال ما يكفيه وللمرة العاشرة والألف ولا يتأفف هذا الابن أو يشتكي، بل يرى أن ذلك بعض حق والده عليه، وتتعدد المشكلات والظروف والمحن والعقبات ويزداد سمواً ورفعةً ومقاماً، ويواجه كل المشكلات التي تقف له في الطريق بالرضا ويبقى صامداً رغم كل الظروف.

❖ كان يعتمد على نفســه من باكر عمره ويُبلّغــك أنه لم يعتمد على والديه في شراء حاجاته الأساسية من الثياب من صغره، فضلاً عن غيرها من الأشياء، وهو درسٌ يعلمك عزه وشموخه وإباءه ورفضه أن تكون يده ممدوة لأقرب النــاس وأحبهم إليه، فضلاً عن غيرهــم من العالمين. وإذا رأيت مثل هذه المشاهد في حياة صغير فانتظر فصولاً من الجمال والبهجة والعز والنجاح في قادم الأيام، وكم هو الفرق بين شــاب يعيش عمره كله على والديه، وشــاب تلظاه ظروف الزمان ويرفــض أن يكون في موقف السائل يوماً من أيام دهره وزمانه حتى لو كان والده!

❖ العفة من أعظم صفات الرجال، وفي الوحي: «**اليدُ العليا خيرٌ مِنَ اليدِ السُّفلى**»، وتأهيل نفسك في باكر عمرها على العمل والبذل والعطاء نوع من الاستعلاء، لا يصنع فصوله ومباهجه إلا أصحاب الهمم وصُنّاع الحياة.

في عام (١٣٦٢) مــن الهجرة النبوية فكــرت أن أعمل عامــلاً وخادماً في البيوت التي كان يوزعها الملك عبد العزيز رحمه الله على الأمراء، وقلت لهم أريد شغلاً، قالوا لي: ما فيه إلا طباخ! فقلت لهم: تم، قالوا: تضبط العمل؟ قلت: نعم، وكان المقابل ريالين في اليــوم، وبقيت على هذا العمل حتى جاء رجل فاســتأذن من أصحاب العمل وقال: أريد هــذا عندي يصنع لي قهوتي ويطبخ لي، فقلت: كم تعطيني؟ فقال: ريالين أجرة وخمســة عشر قرشــاً مصروفاً، فوافقت وبقيت أعمل معه زمناً، وكنت في تلك الفترة إذا أردت عشــاء أذهب لصاحب المخبز فيقول: الخبــزة بقرش ونصف، فإذا رأيت الخبز كثيراً انصرفت عنه حتى يمضي الوقت ويقول الخبزة بخمس

هللات، وأنتظر حتى يقول: الخبزة بأربع هللات، فأنتظر حتى يقول: الخبزة بثلاث هللات، فآخذ خبزتين بقرش ونصف بدل ما آخذ واحدة بقرش ونصف، ثم أرجع إلى مقري وأغمسها في ماء وآكلها حتى أوفر كم قرش في النهاية.

❖ تغيير بيئات العمل، وفتح الفرص للتجربة وعدم الاستسلام كانت جزءاً من سيرته، فتجده يخوض أي تجربة، ويشارك في أي عمل، ويجهد في المتاح بين يديه، ولا يتردد في التجربة في مجال يكوّن له تلك الأحلام التي يرقبها، ثم هو في النهاية يريد مالاً بغض النظر عن العمل الذي يمارسه، حتى أنه يقبل أن يعمل طباخاً في هذه البيوت، وفي البخاري قال ﷺ: «**ما أكلَ أحدٌ طعاماً خيراً مِنْ أنْ يأكلَ مِنْ عملِ يدِهِ، وكانَ نبيُّ اللهِ داود يأكلُ مِنْ عملِ يدِهِ**»، وهذه التجارب المتعددة والمتنوعة لا تكسبه مالاً فحسب، وإنما تمنحه فرصاً كبيرة وكثيرة لتجربة طاقاته وقدراته، ووضعها على محكات عملية تطبيقية لبنائها وتطويرها بعد ذلك، وتمنحه كذلك فرصاً لمعرفة العالم من حوله: كيف يفكر؟ ماذا يعمل؟ كيف يتصرف؟ وتكوّن شخصيته في مستقبل الأيام وفق هذه المعاني الكبار.

❖ مشكلة كثير من الشباب اليوم غياب الرؤية الكلية على رغم كل الظروف التي يعيشونها، فتجد عاطلاً وعالة على غيره ويبحث عن نوع من العمل ومجال محدد ومشروط بأن يكون مناسباً لحاله وزمانه وواقعه، فتفوت كل الفرص بين يديه ولم يجد منها ما يعينه على أكله وشربه، فضلاً عن زواجه وبيته ومستقبله، وفي مرات كثيرة تظل مشكلة هذا الانتظار أنه يفوّت فرصاً صالحة للتجربة والتأهيل والإعداد، وليس لها

بديل إلا الفراغ والترهل وضياع كثير من المكتسبات التي كان يمكن لها أن تقوم في تلك الأزمان.

❖ في مرحلة من المراحل يحتاج الشاب أن يبدأ مشوار العمل أياً كان، ويعتبره فرصة لسد حاجته، وفرصة أخرى لبناء ذاته وتأهيلها لمستقبل الأيام، وثمة أزمنة تدفع بفرص كثيرة ومتنوعة، وأزمنة لا تكاد تجد ما يسد حاجتك فضلاً عن أن تجد مساحة من الخيارات.

❖ كان حسُّ المسؤولية مرتفعاً لديه إلى أعلى مستوى للدرجة التي يعتبر الخمسة عشر قرشاً ليست فرصة مهيأة لفتح آفاق شهيته في الأطعمة والأمكنة، وإنما فرصة للادخار منها، وكذلك الراتب الذي يأتيه، حيث يذهب إلى الخباز ويبقى منتظراً زمناً حتى توشك أن تتصرم ساعات الليل وهو ينتظر انخفاض سعر الخبز، ثم لا يتكلف في البحث عن ما يأكله مع ذلك الخبز، وإنما يكفيه أن يحتسيه على الماء، وإذا تخيلت تلك الحياة القاسية فدعك من أحداثها، واملأ مشاعرك بما يجري في فصول صاحب القصة في مثل هذه الأزمان.

"

بقيت زمناً على هذا العمل وجمعت مبلغاً لا بأس به وصل إلى أربع مئة ريال، فجئت لأمي فقلت لها: تدرين من أنا؟ قالت: لا، فقلت لها أنا أتجر من ابن سعود، قالت: كيف؟ قلت لها معي أربع مئة ريال، فقالت لي: جيب لي حبحب، ثم ذهبت للسوق واشتريت لها ما تريد.

"



❖ لقد آل ذلك القــرش والنصف إلى مال كثير، واليوم شــيء وغداً مثله، والســيل الكبير يأتي من خلال قطرات المطــر أولاً ثم يكوّن تلك النهايات التي تتحوّل إلى فيضانات كبيرة تترك تلك الخســائر الكبرى في الطرقــات والممتلكات، وهذا فقه عزيز لدى الأســر والكبــار والصغار، فالغالبية لا تعبأ بالريال والريالين والخمسة والعشرة، وأكثر من ذلك وأقل، وتذهب هذه الأموال بمثل هذا القليل تباعاً حتى لا يكاد يبقى منها شيء.

❖ من فقه الإنســان أن يقتصد في نفقته ويحافظ على ماله حتى يعز نفسه عن ذل السؤال، ويعلم أنه مســؤولٌ بين يدي الله تعالى عن تفاصيل ذلك المال، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لنْ تزولَ قدما عبدٍ حتَّى يُسألَ عن أربعٍ**... ومنها: **عَنْ مالهِ مِنْ أينَ اكتسَــبَهُ وفيما أنفَقَهُ**»، ومَنْ فقِهَ هذا المعنى جهدَ ألا يدخل إليه إلا حلالاً صافياً، وحرصَ ألا يخرج إلا في مراضي الله تعالى ودينه ومنهجه.

❖ تعاودنا هذه الشخصية الملهمة بالقيم والمُثل من جديد، وتقرر لنا للمرة الألف أن ما تقدمه لوالديك هو أثمن ما تصنع في حياتك كلها، لقد جاد على أمه بكل ما يملك، ووضعه بين يديها، وســألها أن تأخذ منه ما تريد، وحين تنفست وأرادت شيئاً ذهب إلى السوق من أجله وجاء به. وما رأيت طائعاً لوالديه، قائماً بين أيديهما، راغباً فــي رضاهما إلا أجرى الله تعالى له التوفيق من أوسع أبوابه وأجلها قدراً ومعنًى.

فتحت بعد ذلك دكاناً صغيراً وبقيت أبيع فيه السكر والشاي حتى وصل رأس مالي ألف ريال، فقالت لي أمي: تزوّج، فقلت لها: لا

أحتاج الزواج، فقالت: إما أن تتزوج أو لا أكلمك! وكان رضى الوالدة عندي أهم شيء، فقلت لأبي: نريد الزواج، فقال: تم، ولكن حقي من الزواج مئتا ريال، ومشلح، والمشلح حينها بسبعين ريالاً، فأصبح المبلغ الذي معي سبع مئة وثلاثين، وذهبنا البكيرية وخطبت وتزوجت وأنفقت مبلغي كله ولم يبقَ لي منه في العودة إلا ثلاثة ريالات، جمعناها إلى ما مع الآخرين وتغدينا، ووصلت الرياض وأنا لا أملك شيئاً من المال.

❖ إذا أردت تعريفـاً عملياً لمشـروع العمر فهو هذه الشـخصية التي عرفَتْ توجهها وطاقاتها وقدراتها وإمكاناتها مبكراً، ثم استنفذت كل ممكن في بناء هذا المشروع مع الأيام، تقرأ تاريخ هذه السيرة فتراه لا يكاد يتوقف عن فرصة ولا مشـروع يُبلّغه أمانيه من هذا المال، ولا يفكر إلا في فُرَصِه المتاحة، ويصنع من كل موقف فرصةً لجمعه وزيادة، ولا يعرف سواه، ولا أضر عليك في حياتك كلها من الشتات والفوضى وعدم التركيز.

❖ لن تتخيّل عمق إيمان هذا الكبير وعلاقته بوالديه واستجلابه توفيق الله تعالى من خلال هذا الباب العظيم، حتى تدرك ما بذل في سبيل جمع ذلك المال من جهد وعنـاء وأوقات، ثم ألقى به فـي أمنية أمه من دون تردد. ومن عرف حديث رسول الله ﷺ: «**رضا الله في رضا الوالدَين**» أدرك ما يصنع الفقه في هذا المعنى الكبير. ولو أن عاقلاً أقبل على هذا المورد العذب لفَتحَ الله تعالى عليه من مباهج الحياة ما يسعد به في الدارين.

❖ قوة ذلك الوالد وصلابته وهو يرى ولده يكـد ويتعب ويتعنّى ثم يُحمّله كل المسؤولية بلا اسـتثناء، بدءاً من عدم توفير حاجياته الشخصية

إلى أن تزوّج وبنى بيته ولم يشاركه في شيء من ذلك، فضلاً عن أنه يأخذ مقابلاً على سلوك الطريق، ولعل هذه المعاني التي كان يجريها مع ولده هي التي بلّغت ولده تلك الأماني في مستقبل الأيام، وإذا رأيت شيئاً من والدك مع الأيام، فلعل في هذه السيرة ما يسليك لبلوغ أمانيك.

"فتح أخي صالح دكاناً صغيراً للصرافة ثم عرض عليّ أن أعمل عنده فوافقت على ذلك، فقال لي: راتبك ثلاثون ريالاً، وأنت وأكلك وزوجك عليّ فوافقت، وكان العمل مستمراً طيلة أيام الأسبوع من الصباح إلى المغرب، وليس هناك وقت للإجازة عدا وقت صلاة الجمعة، تصلي ثم تعود لإتمام عملك."

❖ بدأت تتشكل تلك الشخصية وتُقربُ مسافات طموحاتها بعد أن بذلت كل ممكن، وفي عدد من الأعمال وبضروب مختلفة من المحاولات، حتى عاد إلى العمل مع أخيه وبراتب يوازي ذلك الزمن الطويل الذي قضاه في ذات الطريق، وهكذا السنن، تتعب في البدايات ثم تجري عليك فصول الربيع تباعاً بعد ذلك.

❖ بدايات الطريق طويلة ومزعجة ومملة، وتأخذ من وقتك ومشاعرك وتلقي بك في تجارب مختلفة ومتنوعة، وتلقى فيها عالماً من الخلق مختلفاً في القيم والمثل، وتتكون لديك تجارب ضخمة وقواعد صلبة لمستقبلك، لا تكاد تبلغها إلا من خلال هذه التجارب وتلك المحاولات.

❖ العمل مكلف ومجهد ولكنه يختصر لك الزمن، ويفتح لك أبواب المستقبل، ويقرب لك المسافات، ويريك في النهايات كل شيء. فرق كبير

جداً بين إنســـان يكبر بدون تجربة ويعيش زمناً طويلاً وهو لا يعرف من زمانه شيئاً، وآخر خالط الناس وعانى عقبات الطريق، وذاق مشاق الحياة، ولظي من طول المسافات، فرق في التفكير، وفي الرؤية، وفي المفاهيم، وفي تبعات الحياة، وفرق في كل شيء.

❖ الجدية من معالم الشخصيات الناجحة، لقد تقلبت الأحوال بهذه الشـــخصية بين بائع وحمال وحارس وعامل، ولم تقع عينك على حرف يدلك على أنه يتبـــرم من زمانه، أو يتأفف من واقعه، أو يشـــكو من طول طريقه، كان يعمل يومه كله من الفجر حتى المســـاء، ويَعُـــد ذلك تدريباً لأحداث الحياة في مســـتقبل الأيام. وما أكثر الشاكين واليائسين! وما أقل المتفائلين في زمانك!

"بدأت كغيري بالدراسة، ولكني توقفت في الصف الثاني الابتدائي ولم أتمه، وقراءتي ضعيفة، ومثل ذلك كتابتي. ولو تعلمت وأكملت تعليمي لتوظفت ولما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم."

❖ يُعد التعليم من أعظم مقومـــات النجاح، وعلى قدر تعليمك تزداد أرباحك في الحياة، ولو لم يكن في التعليـــم إلا أنه يفتح لك بوابة على العالم الواسع من خلال القراءة لكان كافياً، ومع هذا فليس شرطاً لتحقيق النجاح الكبير للإنســـان، وقد توقف تعليم هذا الكبيـــر في الصف الثاني الابتدائي ولم يتمه، ومن الطبيعي أن تكون قراءته وكتابته ضعيفتين، ولكنه استقبل الحياة من باب آخر وصنع لها ألف معنًى في مستقبل الأيام.

❖ الأسر الواعية يجب أن تبذل كل ممكن لتعليم أبنائها، ولا تسمح لهم بالتسـرب من هذا الحقل حتى يأخذوا منه كفايتهـم إلا في ظروف محـدودة تُقـدّر بقدرهـا، وإجلال هـذا المعنى فـي البيوت والأسـر والمجتمعـات مهم جداً حتـى تأخذ الأجيـال حقها من العلـم، وتبني مسـتقبلها على معانيه الكبار، ولعل الظروف التي صاحبت تلك الأجيال في ذلك الحين وقلة ما في اليد من أكبر عوامل التسرب التي تعرضوا لها، ولم يكن بداً من تـرك ميادين التعليـم والانطلاق في مسـاحات أقرب لتحصيل مقومات الحياة في ذلك الحين.

❖ لقد عوّضت هذه الشـخصية كل مـا فاتها من المدرسـة بالتجربة العملية التطبيقية، لأنها حين قررت الخروج من المدرسـة استقبلت باب الحياة الكبير، وبدأت رحلة التجربة التطبيقية وهي في باكر عمرها، وعانت كثيراً من طول الطريق وشقته، ولكنها وصلت في النهاية إلى كل ما تريد.

❖ إذا تعلم الطالب القـراءة والكتابة وأتقن هذه المهـارة بالذات فلا يحتاج بعد ذلـك إلا همة ترقّيـه وإرادة صلبة تدفع به إلـى أمانيه، وعلى المدرسة أن تبذل كل ما تملك في سبيل ذلك، وأعظم جناية ترتكبها مدرسة من المدارس بكل من فيها أن يخرج منها من لا يعرف هذا المعنى الكبير.

❖ العمل الحر يفتح لك فرصاً أكثر، وآفاقاً أوسع، ويمنحك الحرية، ويجعلك صاحب القرار، وتتحرك في مساحاته كيفما أردت وفي أي مجال شئت وبالطريقة التي تراها أنسب لك، بخلاف العمل الحكومي فيحصرك في ذات المكان ولا يسـمح لك بالتطلـع إلى غيره، ويُولّد في نفسـك التواكل على ما تلقاه في نهاية كل شهر، فكيف إذا كان النظام يحظر عليك المشاركة في شيء خلافه، ويعتبر ذلك خلافاً لميثاق العمل فيه؟!

❖ يعلمك الراجحي قيمة الباعث الشخصي وأهمية المشروع وولادة الروح في الأعمال الحرة، ويخبرك خبراً ناتجاً من تجربة طويلة (ولو تَعلّمت وأكملت تعليمي لتوظفت، ولما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم) ويدلك على الطريق، ومَن جرَّب عرف، وما أكثر شواهد الحال على هذا المعنى في مثل زمانك! فدونك الفرص!

> تربيت في بيئة متدينة جداً أباً عن جد، بيت يُحرم أكل التمرة إذا دخلت عليهم من غير وجه شرعي، ونحن وأولادنا على ذلك بفضل الله تعالى، وإن كان ثمة نقص في بعضهم ولا كمال لمخلوق.

❖ تظل التربيةُ الأسرية القاعدةَ الصلبة في حياة الأبناء، وهي أول ما تكوّن أفكارهم ومفاهيمهم وتصوراتهم عن الحياة، وما تصنع تلك التربية في نفوسهم يظل أصلب وأمتن من أي طارئ يأتي متأخراً بعد ذلك، وإذا وعت الأسرة دورها وعنيت بذلك في باكر أعمار تلك الأجيال صنعت لهم أحلاماً كبيرة، ودفعت بهم للتحديات في سن مبكرة، ولو لم يكن من آثارها إلا تكوين هذه الشخصية وما جرى لها من أحداث ملهمة في الخير بعد ذلك (تربيت في بيئة متدينة جداً أباً عن جد، ويحرمون لو تمرة واحدة دخلت عليهم من غير وجه شرعي)، وكل ما جرى في سيرته بعد ذلك من قيم ومواقف هي بعد فضل الله تعالى نتيجةٌ لأحداث هذا المعنى الكبير.

❖ ليس بالضرورة أن تكون نتائج تلك التربية نسخة واحدة ومخرجة بالمواصفات نفسها، والأسرة الواعية ينبغي لها أن تؤسس للقيم والمبادئ

الكبرى من خـلال الوحـي، وتتعامل مع كل فـرد بما يناسـبه على وجه الخصوص، وفي النهاية عليها أن تدرك أن النتائج تظل مختلفة ومتباينة بين أفراد تلك الأسرة، وما يشير إليه الراجحي من ذلك التباين بين الأسرة طبيعي جداً، وعلينا أن نحسـن الغرس ونجهد في البناء ونؤسـس لهـذه المعاني الكبار، ثم نتوجه قبل ذلك وبعده إلى الله تعالى، فمنه العون والتوفيق.

أثّرت هذه التربية الدينية في حياتي، فكنت أتمنى منذ نشأت أني أملك مالاً وأوزعه في سبيل الله، ولما وصل المال عندي مئة ريال بدأت أدفع الزكاة، وكنت أنا المكلف من إخواني بجمع الزكاة وتوزيعها، وكانت روحي متوجهة للخير، وكنت أحدّث نفسي بالنفقة في سبيل الله فرسّخها الله تعالى في نفسي، وكلما بذلت صدقة يصيبني الفرح والسرور، وأسرُّ بما أبذل في سبيل الله أكثر مما يقع في جيبي، وأفرح كثيراً إذا أكل الفقير لحماً أحسن من فرحي بأكل أولادي لذلك اللحم.

❖ وهذه نافذة على آثار تلك التربية التي كان يتلقاها في بيته ووسط أسرته، يجب أن ندرك أن المخرجات القادمة هي نتيجة طبيعية لما يجري في أوساط الأسـر وبين جدران تلك البيوت في زمن الصبا، فالأصل ألا تتخلف هذه الأسـرة عن هذا المعنى الكبير في مسـتقبل الأيام، فإذا نشأ الأبناء على تقديس الصلاة كمثال وإقامتها في بيوت الله تعالى وفي سـن مبكـرة، وإذا تربّت على صلـة الرحم وحقوق الجيران ومارسـت أدواراً

عملية تطبيقية في هذه المعاني، فلا تــكاد تتخلف في حياة أولئك الأبناء يوماً من الدهر، ولو أن ابناً نشــأ كمثال على تقدير أمه لوالده وعنايتها به وقيامه على واجباته، ورأى مشــاهد الحب والتعاون والتقدير فيما بينهما، فسينشــأ مفعماً بالحب والطمأنينة والراحة عمــره كله، وقل مثل ذلك في كثير من القيم التي ترابط الأسرة عليها في ربوع تلك البيوت.

❖ التقنية ووســائل التواصل على وجه الخصوص منها، تُمثّل اليوم أعظم خطر يواجه الأسرة ويكاد يشل حركتها بالكلية، ويقضي على دورها من أصله ويجعلها صورة لا علاقة لها بشــيء. لك أن تتخيّل ابناً يتعرف على الحياة من خلال هذه التقنية، ويقضي وقتــه كله أو جله على برامج مشــوهة وقيم هابطة وأفكار منحرفة ومفاهيم خطيــرة وتصورات ضحلة، ويظل يكبر جســده وتكبر معــه تلك الانحرافات، ولا يصــل إلى مرحلة النضج إلا وقد تكونت مفاهيمه وأفكاره وتصوراته من خلال تلك التقنية. وعلى الأسرة أياً كانت ثقافتها وتعليمها أن تعتني ببناء القيم، وتهتم بشأن التربية الأسرية، وتجعل ذلك في ســلّم أولوياتها، وعليها في المقابل أن تدرك كيف تواجه هذا الخطر، وكيف تغطي مساحات الفراغ التي يعيشها الابن ببرامج ومشاريع تصنع قيمه، وتشكّل مفاهيمه، وتبني شخصيته على القيم العليا والحقائق الكبرى.

❖ لقد امتدت تلك المشاعر التي كان يعيشها ذلك الطفل امتداد عمره وظل يكبر وتكبر معه في ذات الوقت، ولم تتخلف يوماً، وكان من نتائجها هذه المشاريع والمؤسسات والبرامج والأفكار التي أخذت حظها من كل مســاحة، وما زالت تصنع مباهج لديــن الله تعالى، وتؤســس لكثير من الحقائق في واقع الحياة.

كنت إذا ركبت الطائرة إما آخذ الوجبة وآكلها كلها، أو لا آخذها لأنها سَتُرمى، فاحتراماً لنعمة الله تعالى لا أفرط فيها مطلقاً، وأنا لا آكل الحلى ولكن إذا كان فيها حلى آكله لهذا المعنى، ولذلك لا أقبل أن يُرمى شيء حتى كأس الماء لا أسمح أن يكبَّ في الأرض، وحريص أن ألبس كل حياتي شراب حتى أقلل من غسل الماء.

❖ الذين ابتُلوا بشظف العيش وعاشوا صعاب الحياة وتجرعوا مراراتها وقاسوا مسافة الطريق على وعورته وشدته أكثر الناس تقديراً لنعم الله تعالى وتقديساً لمشاهدها، وأسوأ من يتعامل معها أولئك الذين لم يستيقظوا في حر الشمس ولم يمشوا في ضحى النهار وبقوا في الظل زماناً طويلاً من أعمارهم ولم ينلْهم شيء من العناء، وهذه الفصول التي يحكيها لك صاحب هذه السيرة يعلمك كيف تقدّس النعم، وكيف تجل ما يكب في النفايات في مرات وهو يكفي أن يعيش عليه الفقراء أياماً، ونحن في أمس الحاجة اليوم إلى تقديس هذه النعم وجعل هذا المعنى ثقافة كل فرد في الأسرة، حتى تسري تطبيقاتها العملية بعد ذلك في كل مساحة من حياة الناس.

❖ كان بعض التجار إذا حضر اجتماعاً أو مناسبة ما، كَلّف من يجمع له قوارير الماء المستعملة ثم يستثمر ذلك الماء بعد ذلك فيما يصلح له، تقديراً للنعم وتقديساً لها. ورافقت زميلاً فاضلاً في رحلة إلى كوسوفا ثمانية أيام ما خلّف وراءه بقايا من طعام، إن كان صالحاً جمعه وحمله حتى يجد محتاجاً في عرض الطريق، وإن كان غير صالح ألقى به للحمام



والدجاج والطيور، وأعرف بعض كبار السن لا تكاد ترى بقايا من وضوء الواحد منهم تبل الأرض، ورأيت من التجار من يأكل المتساقط من يده على سفرة الطعام، رعايةً لهذا المعنى الكبير، ومَنْ عرف نِعَم الله تعالى جهد في حفظها ورعايتها وقام بحقوقها شكراً لله تعالى وإجلالاً لنعمه، وقد قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، و﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

❖ نماء هذه المفاهيم وتجذُّرها في الأجيال يحتاج إلى وعي من الأسرة وتدريب وتأهيل من خلال ما يجري في أوساطها في كل حين، ويحتاج في المقابل إلى قدوات حية تبدأ من الأسرة وتنتشر في كثير من الأمكنة حتى تتحوّل إلى ثقافة لدى الأجيال في مستقبل الأيام.

"كنت قاسياً على أولادي في الدراسة وحريصاً على أن يتعلموا، وحريصاً على جلسائهم وما يختلطوا مع كل أحد، وقاسياً عليهم في الصلوات مع الجماعة في المسجد، ولا يمكن أن يملك أحدهم سيارة إلا إذا تزوج، ولا يسافر خارج المملكة بأي حال من الأحوال إلا بعد الزواج، وقاسياً عليهم في أنهم لا يذهبون إلى المقاهي ولا يأكلون من المطاعم بل من البيت، وقاسياً عليهم في أدبهم مع الآخرين، وإذا أراد الواحد منهم زواجاً أزوجه وأشاركه في زواجه في اختيار العائلة وليس في الجمال، وأزوجه وأعطيه سيارة، ولا إشكال عندي في ذلك."

❖ الوعي بدورنا في التربية ومساحتنا فيها فقه ووعي وتوفيق، لقد كان الراجحي واعياً بما يفعل مع أولاده، حريصاً عليهم، معيناً لهم على الحياة، وكانت القسوة على أولاده فيما يصلحهم ولا يضرهم ولا يمثل لهم عائقاً في الطريق، وكل هذه المعاني الثمانية التي كان حريصاً عليها هي من أعظم ما يعين الأبناء على الترقي في مدارج الفلاح كما قال: كنت قاسياً مع أولادي في (التعليم، والصحبة، وصلاة الجماعة، وتقدير النعمة، وعدم السفر للخارج قبل الزواج، وعدم الذهاب لأماكن الفوضى، وعدم الأكل من المطاعم، وحسن الأدب مع الآخرين)، ومن حافظ على هذه المعاني وجد في النهاية كل شيء، وهذه القسوة التي يخبرك بها الراجحي ليست بالضرورة هي الخيار الأوحد في تربية وتأهيل الأبناء، وإنما يمكن أن تأتي هذه المعاني من خلال مساحات أكثر سعة، وقد قال ﷺ: «**ما كانَ الرفقُ في شيءٍ إلَّا زانَه، وما نُزِعَ من شيءٍ إلَّا شانَه**».

❖ يمكنك أن تعرف الفارق الكبير بين مفاهيم هذه الشخصية وأطرها في تربية الأبناء وتأهيليهم للحياة، وبين أسرة لا يعرف أبناؤها الطريق إلى المسجد في صلاة الجماعة زمناً طويلاً من أعمارهم، وقد لا يُوقَظون للصلاة في أوقاتها، وليست هذه المعاني ضمن أولوياتهم الكبرى، فضلاً عن غيرها من المعاني الكبار.

❖ إن تأهيل الأولاد لا يأتي في الغالب إلا من خلال فتح مساحات الحب إلى أقصى مدى، وجعل الحوار منهجاً لنقاش كل فكرة أو مشكلة أو عارض في الطريق، والإغضاء عن الأخطاء، وفتح العين على الإيجابيات ودعمها بكل ممكن.



❖ وجـود نوع من الحريات داخل الأسـرة وبسـط منهج الشـورى والحوار من أعظم ما يُرقّي الأسـرة ويجعلها قادرةً علـى التفاعل مع ما حولها مـن المواقف والأحداث، مع ضرورة وعي الأسـرة للقيم الكبرى التي تُشـكّل شـخصية الإنسـان في علاقته مع ربه تبـارك وتعالى ومع الآخرين. وكل منهج يخالف هذا التوازن يخسر مع الأيام.

❖ يقدم الراجحي درسـاً نافعاً وتجربة حية في قضيـة زواج الأبناء، فيتدخل في اختيار الأسرة ولا يتدخل في اختيار شريكة الحياة، وهذا نوع من التوازن يدلك على فقه الرجل وتجربتـه الكبرى. وفي مرات كثيرة لا يفقه الأبناء في باكر أعمارهم المنهج النبوي في قضية الزواج «**تُنكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالها، ولحَسَـبها، وجَمالها، ولدِينها، فاظفرْ بـذاتِ الدِّين تربَتْ يداك**»، وقد يقع في أسْـر الإعجاب وتذهب كل هذه المعاني التي قررتها الشـريعة في منهج اختيار الزوجة الصالحة، فلا ينبغـي أن يترك له ذلك مطلقاً، بل ينبغي للأسرة أن تشـارك في اختيار البيوت والحسب والدين، وتدع له مسألة الجمال وما تناسبه للعيش ما بقي معها من الزمان.

❖ إن من الخطأ الكبير أن تفرض على ولدك زواج من تريد أنت وما ترغبه بعيداً عن رغبة ولدك مهما كانـت المصالح في ذلك. من حقك أن تمارس نوعاً من الشورى وسط حوار هادئ مريح، ويدرك ابنك أن القرار النهائي من حقه وليس من حق شـخص آخر مهمـا كان حرصه ومكانته، وكثير مـن التدخلات غير المحسـوبة أفضت فـي النهاية إلـى الطلاق والفراق، وترتب عليها خلافات أسـرية ضخمة كان يمكن تلافيها مبكراً، خاصة إذا تم الاتفاق على أن مسألة اختيار البيوت والأسر من حق الوالد أن يبسط فيها رأيه ويكون له فيها القرار.

❖ ينبغي على الشباب أن يدركوا أن قراءة التجارب واستلهام العبر من خلالها وتوظيفها في كل جزء من حياتهم من أعظم ما يعينهم على النجاح، وليس بالضرورة أن نأخذ من الآخرين كل شيء لاختلاف الأفكار والزمان والمكان، ولكن يجب أن تكون منهجاً وطريقاً هادياً للحياة، وأحسب أنها أكثر المعاني أثراً في تقريب مسافات النجاح.

"أولادي في العمل لهم مرتب كغيرهم وأحاسبهم كبقية الموظفين، وأحاسب الواحد منهم أشد من غيره، وأتحمل خطأ الموظف العادي ولا أتحمل خطأه في العمل بالذات؛ لأنه لا يمكن أن يتربى إلا بالجد، وأطلب منه أن يأتي أول الناس ويعود آخر الناس، وأعامله كما أعامل نفسي في العمل، وفرق عندي بين خطئه في الشركة وخطئه في عملي الخاص، في الشركة أحاسبه، وفي عملي الخاص أفرح إذا أخطأ حتى يتعلم ويستفيد عندي وأكوّن له تجربة تعينه على الحياة."

❖ لا يمكن أن ينضج الأبناء في النعم الوارفة! يحتاجون إلى نوع من الجد الذي يجعلهم كباراً وهم في باكر العمر، كان هذا الرجل يُعد أجيالاً تقوم على هذا المال، وتعرف ما تصنع وتتحمل كل أعباء المسؤوليات القادمة، ولا بد من صرامة وتدريب وتأهيل على الحياة في باكر العمر.

❖ حين يدخل موظفٌ ما هذه المؤسسة فيرى أبناء صاحب المال وأهله يأتون في باكر اليوم وأول الموظفين، ويعودون في آخر الوقت، ويتلّقون ذات العقوبات التي توجه إلى غيرهم عند الخطأ لا فرق، تنمو



القيم في نفوسهم إلى أقصى مدى ويعرفون ســنن الحياة ويدركون جملة من القيم التي تأخذ حظها مــن التطبيق، ويتربى أبناؤهم في المقابل على تقدير العمل والبذل في سبيل ما يريدون، وأنه لا فرق بين الجميع إلا في ما تبذل لنفســك من تعليــم وتدفع من جهــد وتكتب مــن حظوظ في المساحات التي تشغلها فحسب.

ثمة فوارق بيني وبين أولادي، فسياراتهم من النوع الفخم، ويسافرون في الدرجة الأولى على رغم أني غير مرتاح لذلك وأخاصمهم عليه، وإذا سافرت أسكن في فندق أربع نجوم وهم يسكنون في خمس نجوم، وأنا أحب الأرخص والأسهل والأيسر، وهم يحبون الأحسن والأفضل، وإذا دعيت إلى حضور لقاء أو عمل في شركة ما، فلا أقبل أن أسكن في سويت وجناح وإنما يكفي من ذلك غرفة، وأعتبر ذلك من السرف حتى لو على حساب غيري. وليس فيهم بحمد الله تعالى من يدخن ولا يتابع النساء ولا يترك الصلوات مع الجماعة، وليس منهم أحد يجامل في أمور دينه، وحياتهم في بيوتهم ليس مثلي ولكنها معقولة، ويستشيرونني في كل شيء، وأنا أحمل شنطتي في السفر ولا أسمح لأحد أن يحملها عني، ولا تبحث عن العلو في الدنيا ابحث عنه في الآخرة في الحوريات ورضا الله تعالى، وليس العلو أنك ركبت طائرة خاصة أو مع من يفتح لك باب سيارتك وبيتك أو يحمل حقيبتك أو يقدم لك لقمة العيش إلى فيك، العلو الحقيقي في القربى إلى الله تعالى. وحياتي بسيطة جداً ونظريتي أن من تواضع لله تعالى رفعه، وأنا أركب الدرجة السياحية في الطائرة

لأننا نصل سوياً نحن والذي يركب الدرجة الأولى، ويمكن أن يوزع الفارق من المال بينهما في سبيل الله تعالى، وقد تعمدت ألا آخذ طائرة خاصة حتى أعيش مع الناس، وربما كانت طريقاً لمتاع دنيوي ينسي الآخرة، والطائرة الخاصة قد تكلفك من الرياض إلى جدة ثمانين ألف ريال وهي لا تكلف في الحقيقة راكباً مع الآخرين سوى ثلاث مئة وخمسين ريالاً! وهذا المبلغ قد يكون طريقاً لتنمية التجارة وإفادة العالمين، أو تجري في سبيل الله تعالى، وإذا أعطيت إنساناً وقال لي: غفر الله لك ولوالديك كانت عندي تساوي الدنيا وما فيها. وينبغي لك أن تأكل أكلاً معقولاً وتلبس لباساً معقولاً ولا تنسَ موقفك بين يدي ربك تعالى. والأصل أني ألبس للأسبوع فتبقى ثيابي معي أسبوعاً كاملاً، ما أغيرها وقد أغير في الاثنين والجمعة، ثوبان في الأسبوع كله كافيان، ومسألة التغيير الدائم فيه تكاليف ماء وصابون، وقد يسميها بعض الناس بخلاً ولكن هي قناعة لديّ، وأكرّس في نفسي ألا أسمح لها أن تزهو، ودائماً ما أحولها إلى طبقة الفقير، وهذا الذي أحاول أن أقنع أهلي وأبنائي به في موضوع الزواجات كمثال حتى نكون واقعيين ومثاليين.

❖ ليس بالضرورة أن يخرج المربي من أبنائه بصورة طبق الأصل من نفسه أو ذات النسخة، وعليه أن يدرك أن دوره ينتهي عند بذل الممكن في هذا الطريق فحسب، ويؤمن في المقابل أنه متى ما بنى علاقته معهم على الحب واعتنى بالمفاهيم الكبرى من الوحي ورباهم على القيم فستورق هذه المعاني يوماً من الزمان، وقد قال الأول: وينشأ ناشئ الفتيان منا...

على ما كان قد عوده أبـوه، وفي المقابل يجب أن نـدرك أن ثمة فوارق كبرى بين جيل الآبـاء والأبناء في كثير من الأشـياء، إن لم يكن في كل شيء، وفرق بين توسّع متاح في دوائر المباحات وتوسع مذموم في دوائر مؤثرة على منهج الإنسان ورؤيته في الحياة.

❖ من أعظـم القيم التي تراها فـي واقع هذه الشـخصية أن القضية ليست شخصية يريد فيها نماء ماله والحفاظ على مكتسباته الخاصة، وإنما شـأنه بناء القيم والمثل العليا في العالمين للدرجة التي يرفض أن يسكن في جناح مفتوح يقدمه الآخرون، وهو في دائرة المتاح والمباح، ويرى أن ذلك نوع من التبذير الذي ينبغي أن ينأى بنفسـه عنه، وهي رسـالة لكل قارئ: أن المسـألة أكبر ألف مرة من تعلق بالمال بقدر ما هي قيم كبرى يراد لها أن تأخذ حقها في واقع العالمين.

❖ لو لم يكن مـن نتائج تلك التربيـة التي تلقتها تلك الأسـرة إلا تأهليهم لهذه القيم الكبرى (تعظيم قدر الصـلاة وفي الجماعة، والتعالي على العادات السـيئة، والبعد عـن مواقع الريب، وعـدم المجاملة على حساب دينهم ومنهجهم) لكان كافياً، فكيف وقد صنع منهم كل شيء؟!

❖ هذه المعاني الكبار (تعظيم قدر الصـلاة وفي الجماعة، والتعالي على العادات السـيئة، والبعد عـن مواقع الريب، وعـدم المجاملة على حسـاب دينهم وقيمهم الكبرى) تمنحك درسـاً: وهو أن استقامتك على منهج الله تعالى وحرصك علـى دينك مفضية بك فـي النهايات إلى كل شيء، فلا تستطلِ الطريق وتسـتبطئ تلك المعاني التي تجهد في بنائها، فغداً تورق الحياة.

❖ من توفيـق الله تعالى لأسـرة ألا يصدر أحـد أبنائها عـن قراره الشخصي في حياته الشخصية، بل يتربى على تعظيم الشورى، حتى يأتي على أمانيه من خلال ذلك، والارتجال والفردية أضر ما عليك مع الزمن، فلا تستـعجل في شـيء مهما كان إلحاحه حتى تعرضـه على عقول من حولك فتسلم من آثاره السلبية في مستقبل الأيام.

❖ كل قراراتك الشـخصية التي تجري فيها الشـورى ستكون أقرب بإذن الله تعالى إلى الحقائق مع الزمن، حتى ولو تعثّر بعضها أو لم يكن صحيحاً فقد بلغت وسعك في تتبع المنهج الشرعي من خلال الاستخارة والاستشارة، وتسلم بعد ذلك من الندم فيما يجري عليك من تلك الصور، وقـد قـال تعالـى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشـورى: ٣٨]، وقـال تعالـى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولو كان أحد مسـتغنياً عن الشورى لكان رسول الله ﷺ، ومع ذلك فقد أمره الله تعالى أن يجري في فلك هذا المعنى الكبير.

❖ في مرات كثيرة تسيطر علينا شهواتنا ورغباتنا ونحاول الفكاك من هذه القيمة حتـى نبلغ تلك الأماني، ثم نتفاجأ في النهاية أننا خسـرنا كل شـيء، وكم هي المشـاريع والقرارات التي غَلّبنا فيها تلك الشهوات ثم أصبحنا أسـرى لها على رغم كل ما فيها من حرمان لفـوات هذا المعنى الكبير! ما أكثر الذين لم يشاوروا في مشروع الزواج، أو التجارة، أو السفر، ثم بقوا زمناً تأكل قلوبهم الحسراتُ على تلك القرارات! ولا سبيل للفكاك.

❖ غالباً ما تغيب غايات الآخرة عند كثير من أصحاب المشاريع، أو تضعف على الأقل ولا تكون حاضرة في مشاهد تلك المشاريع، فكم من هؤلاء من يبـذل ويضحي من أجل نجاح مشـروعه وبناء مسـتقبله بكل

ممكن ولكنه في المقابل لا يؤمن بأثر مــا بينه وبين الله تعالى في صلاح مشروعه واستقامته! تراه يحسن الاســتيقاظ باكراً لأعماله ويحرص على مواعيده في تلك المشاريع ولا يكاد يتخلف عن ذلك البتة، بينما لا تنتظم له صلاة في يومه، ويبذل أوقاتاً كثيرة وســاعات طويلة في دراسة أسباب نجاح المشــروع ويخرج وقت الصلاة وهو في ذلــك الاجتماع لم يبرح مكتبه ولا قيمة لتلك الصلاة، وقد يصلي فــي النهاية وحده ومتأخراً ولا نافلة قبلها أو بعدها ولا يــكاد يحافظ على الذكر بعدهــا، وما يزال هذا الحال يكبر حتى يصبح جزءاً من شــخصيته ونمطاً من سلوكه، وفاته في النهاية أعظم أسباب النجاح والتوفيق على الإطلاق.

❖ التواضع من أخلاق الكبار، كان الراجحي يحمل حقيبته بنفسه ولا يســمح لأحد أن يحملها عنه، ولا يحب أن يفتح له أحد الباب، ويقضي حاجته بنفسه، وكان يمكنه أن يجعل كل خطوة على أعناق الرجال بما آتاه الله تعالى من مال، وقد قــال ﷺ: **«مَنْ تواضَعَ للهِ رفَعَــه»**، وإذا رزقك الله تعالى هذا المعنى فقد رزقك كل شيء.

❖ فقه الأولويات من أعظم الفقه، ومن عرف هذا المعنى بلغ أمانيه من أقصر الطرق وأقل المســافات. يتــرك الطائرة الخاصــة ليركب مع الآخرين، ويترك الدرجــة الأولى ويركب الســياحية حفاظاً على المال، ورغبة في هضم حقوق النفس وتدريبها على التواضع، وإذا أعطى إنساناً فقال له: (غفر الله لك ولوالديك) كانت عنده تــزن الدنيا! ويوصيك أن تأكل أكلاً متواضعــاً وتلبس كذلــك، ويُذكّرك مع كل ذلك ألا تنســى مواقفك بين يدي الله تعالى يوم القيامة، فللــه ما أعظم هذه المعاني في سيرة إنسان!

❖ غالباً مــن يملك أموالاً تضيــع منه هذه المعاني التي يشــير إليها الراجحي، ولو قدر على أن يحضنها في الصباح والمساء لفعل، وما يزال يدفع كل جهد وعرق وتعب وعناء في مكاثرتها ولا يكاد ينتفع منها بشيء في حاجاته الشــخصية، فضلاً عن أنه يبني منها صروحــاً للصدقة والبذل والعطاء، والموفق من وفقه الله تعالى، والمحروم من حرمه الله.

تزوجت أربعاً، وإذا رُزق الزوج الإنصاف والصدق والعدل فلا يكاد يرى من هذا المعنى مشقة في الغالب الأعم، وإدارة الزواج ليست صعبة، ولي عادات لا أتجاوزها، أصلي العشاء وأنام مباشرة، وتركت النظر للتلفاز وقراءة الجرائد من زمن لأن ما فاتك من ذلك اليوم تُحصّله غداً، ويمكنك أن تطلع على موقع وزاوية تكفيك عن كل شيء، ولما جاءت حرب العراق ما جلست على التلفاز مرة واحدة، وحين وقعت مشكلة الأبراج في أمريكا ما وقفت على شيء منها البتة ولم أره مطلقاً، أنا ربّيت الدجاج زمناً من عمري ولذلك أنام معه وأقوم مع الديك، أقوم قبل الفجر بما ييسره الله وأصلي ما كتب الله لي ثم أصلي الفجر مع الجماعة وأعود إلى البيت، وأقضي وقتي في عمل ما أو قراءة في كتاب الله تعالى، أرتاح قليلاً حتى يأتي الدوام وأذهب إليه وأنا أول واحد يأتي العمل، وقد كانت بداية العمل السابعة والنصف، وأنا أصل السابعة، حتى جاء الأولاد واستلموا الإدارة، فهم يداومون السابعة والنصف وأنا آتي في أي وقت.

❖ الزواج نعمة، وهو سكن وراحة واستقرار، وقد قال الله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، وفيه من المصالح ما لا يأتي عليه حرف في مثل هذه المساحة، والتعدد بعضاً من تلك الشريعة، وثمة عناء وشكوى كبيرة في زمانك من التعدد وما يترتب عليه من مشكلات وطلاق وخلافات وضياع لمصالح كبرى في مرات كثيرة، وكم من إنسان كان حياً فاعلاً مؤثراً حتى عدَّد ثم جرى عليه الشقاق والشتات والفوضى والضياع! حتى أنك لم تعد تلقاه في طريقك، فضلاً عن أن تستفيد منه في مصالح دينك، وفيه مصالح كبرى، وكم من إنسان منَّ الله تعالى عليه بصالحة ملأت حياته سروراً وفرحاً! وآخر أنجبت له أولاداً! وثالث أعانته فيما بقي من العمر، ولو لم يكن في ذلك إلا قوله ﷺ: «**أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»، ورأيت من عَدّدَ فهيأ الله تعالى له ذرية صالحة هي التي قامت به عند مرضه ودفعت له من أوقاتها ومشاعرها وأموالها حتى لقي الله تعالى، فضلاً عما يصله من دعاء وصلة وبر بعد موته. وثمة أناس بهم ضرورة إلى هذا المشروع، وأناس تقوم به حاجات كثيرة، ولا يشرع الله تعالى إلا لحكمة جل في علاه، وزواج هذا الرجل الفاعل من أربع دليل هذا المعنى الكبير، وعامة السلف من صحابة رسول الله ﷺ كانوا معددين، وكثير من العلماء وأصحاب المشاريع والمؤثرين، فضلاً عن رسول الله ﷺ صاحب القدح المعلى، وأنت أعرف بظرفك وما يناسبك وما الأفضل لك، وأقدر على تحديد حاجتك من ضرورتك، وفراغك وشغلك وما يتعلق بك، فإذا عزمت فتوكل على الله تعالى وأحسِن النية واختر الصالحة، وأكثر من دعاء ربك، واجتهد في العدل، ولعلك تلقى فيه بإذن الله تعالى ما يبهجك في الدارين.

❖ الناجحون عبارة عن عادات إيجابية، والمخفقون ـ كذلك ـ عبارة عن عادات سلبية، وكان من فقه هذا الرجل أن ينام مبكراً ويستيقظ مبكراً كذلك، ولو لم يكن في هذا المعنى إلا قيام الليل لكان كافياً، ولا أعرف وسيلة أجدى في قيام الليل من هذا المعنى، ومن قدر عليه نال منه كل شيء، وقد قال ﷺ: **«وأفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الفريضةِ قيامُ اللَّيل»**، وجاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: (يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل)، وقد نعت الله تعالى أولئك الصالحين بهذا المعنى الكبير فقال تعالى: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧]، ومن تلك العادات حرصه على الانضباط في عمله ووقته وزمانه، فهو أول من يأتي للعمل، وليس أثمن من درس القدوة، وليس أزرى على الإنسان أن يأتي في آخر القوم، ما أكثر الخلل في إجلال الوقت في زمانك! وكم هي المرات التي تضرب موعداً محدداً ثم لا تكاد ترى منتظماً فيه البتة! ولا ترى في ذات الوقت تلاوماً على ذلك، حتى بات سجية لتلك النفوس، وفاتها أنه لم يبقَ قيمة لما يقولون بعد ذلك في سلم القيم، وقد أجهضوها باكراً من خلال ذلك التخلف، ولعل زماناً يكرمنا الله تعالى فيه بالقدوات.

❖ إذا أردت لعمل ما أن يكبر ويستقر في حياة أصحابه فكوّن فيه قدوة يشبع الناظرون إليها من أول وهلة، ثم انتظر أسراب اللاحقين بعد ذلك. مدهش ذلك القائد الذي إذا أذن المؤذن أوقف كل شيء وفضّ الاجتماع وأقبل على تقديس هذه الفريضة وأقامها في بيوت الله تعالى، وملهم ذلك الذي يُعظّم وقته ويأتي قبل الآخرين بزمن طويل، ومبدع ذلك الذي يحوّل الأفكار والمفاهيم والتصورات إلى واقع ثم يكون هو القدوة وأول الممتثلين، وصاحب المبادرة، ورافع راية الفلاح في مثل هذه المعاني الكبار.

كنت كل رمضان أقضيه بحمد الله تعالى في مكة تعبداً لله تعالى وتعويداً للأهل والأولاد على الخير، ومحاولات جادة لتصغير النفس وهضمها من خلال تفطير الصائمين، وأحب أن ترى نفسي واقع المحتاجين، هذا يبحث عن ماء وذاك عن تمر وثالث عن طعام، وأنا أخدم كل هؤلاء وأتشرّف بإطعامهم، وأتعود من خلال هذا العمل على التواضع، وأتذكر من خلال هذه المناظر المختلفة والمتباينة أن مرجعنا إلى قبر، وبذات المساحة لا فرق بين غني وفقير، وأحج كل عام، ولدينا هدف نصبناه من ثلاثين سنة وما زلنا مستمرين فيه حتى الآن بحمد الله تعالى وتوفيقه وهو: تحجيج من لم يحج الفريضة، وخدمة الموجودين من الحجاج وإعانتهم على تأدية مناسك الحج بصورة صحيحة، وأذكّر كل حاج تهيأت له فرصة الحج أن يتذكر مسؤوليته تجاه الآخرين تأهيلاً وتربيةً وتعليماً في هذا المكان المبارك على حسب قدرته ووسعه.

❖ صناعة الفرق في حياتنا تكمن في مشاريعنا التي نتوجه لها ونقوم عليها ونبذل في سبيلها، ومن خلال هذا المعنى يمكنك أن تحسب ذلك الفرق بين العالمين. لقد قرر هذا الكبير أن يأتي مكة في شهر رمضان وذي الحجة، يأتي في رمضان (تعبداً، وتدريباً للأهل، وبذلاً في سبيل الله تعالى، وهضماً للنفس، وجهاداً في سبيل الله تعالى)، ويأتي الحج لـ(تحجيج المسلمين الذين لم يحجوا حج الفريضة، وعون الناس وتعليمهم)، والإنسان فرع همومه وما يجري منه في يومه وليلته.



❖ وضوح الرؤية أعظم العوامل التي كونت سيرة هذا الرجل، وأعانته على وضوح الطريق والصبر على طوله وعنائه، وظلت وما زالت هي التي تسيّره في كل فكرة ومشروع وقضية، وتبعثه لكل شأن من شؤون الحياة، (وأتذكر من خلال هذه المناظر المختلفة والمتباينــة أن مرجعنا إلى قبر، وبذات المساحة لا فرق بين غني وفقير)، وما وجد هذا المعنى في إنسان إلا وجد الحياة، وغياب هذا المعنى من حياة فرد أو أسرة أو مجتمع وأمة غياب لكل شيء.

”

زواج الأسرة ما يتم منها داخل البيوت أحضره وأشارك فيها، وما كان خارج إطار البيوت في القصور ونحوها فلا أشارك فيه مطلقاً مهما كانت قرابة ذلك الشخص، وأصبحت زواجاتنا مرهقة وكبيرة ومكلفة ولا تعود إلى الزوجين بشيء، فنزع الله تعالى منها البركة وأصبحت مرتعاً للشياطين، وأكثر مشكلات الطلاق تخلقها العادات وفكر الزوجين والأبوين قبل الزواج وفي أثنائه وبعده، والوعي يصنع شيئاً كثيراً ويقي صاحبه من المشكلات. وزوجك خذ من حياتها وحياتك صورة تشكلها لزمانك القادم، قدّر والديها وهي تقدر والديك، وواجب الأم أن تؤهلها للحياة قبل الزواج من ناحية الأدب والعمل وما يحقق سعادتها الزوجية، وينبغي أن تعلمها: كيف تصلح من نصف كيلو وليمة؟ وكيف تتعامل مع زوجها؟ كيف تستقبل زوجها؟ وكيف تعينه على الحياة؟ كيف تكون في فلك رغباته؟ ينبغي لها أن تملأ بيتها بكل جميل، وتحافظ على ماله لأنه في الأصل لها ولأولادها.

وكذلك الرجل يبادلها ذات الشعور، ويكرمها ويبادلها الأخلاق الجميلة ويحترم والديها ويقوم لهم بحقهم، وهي قبل ذلك وبعده مسؤولية بين يدي الله تعالى، وقد قال ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته».

❖ يمكن لكل إنسان أن يرسم طريقه في الحياة، ويجري عاداته في فلك ذلك الطريق، وينظم وقته وفق ذلك المعنى، وإذا عرف الناس عنك منهجاً وسيرةً وسلوكاً ساروا معك في ذات الطريق من دون تكلف أو عناء.

❖ لقد كان الراجحي يسنُّ أنظمة من خلال القدوة، ولا يكلف الناس شيئاً، يحضر ويشارك في الزواجات التي تجري في ساحات البيوت ويحضر مشاهدها ويكوّن بذلك قدوة صامتة في دعمها وتكثير سوادها، ولا يحضر تلك التي تقام خارج البيوت، ولا يعارضها، وهي دعوة بذوق إلى الاعتراض عليها بصورة هادئة ورائعة.

❖ من أكبر صور الضياع هذه التحولات في المناسبات والتفاخر بأشكالها وصورها ووجود المحرمات فيها، خرجت عن المألوف من الأدب والحشمة والحياء، ووصل الإسراف فيها إلى حدود لا يتصورها إنسان، وكل هذه المعاني مجلبة في النهاية للخلاف والنزاع والطلاق والفراق، وما خالط هذا المعنى شيء من المحرمات إلا ألقى فيه من حظوظ الشياطين ونزع منه البركة وبث فيه من الفرقة على قدر ذلك.

❖ مشكلة كثير من البيوت في عالم اليوم أنها لا تؤهل الفتاة لهذا المستقبل الكبير، فتنشأ الفتاة في بيتها لا تعرف شيئاً من شؤون الزواج ولا

تشارك في شيء من متطلباته وواجباته ومهماته، وليس لها في الأصل حظ من القراءة أو التجربة حتى تصبح زوجة، ولها بيت وبين يديها مسؤوليات كبيرة وكثيرة ومختلفة وتتحول إلى أم ربما في عامها الأول، فتختلط عليها كثير من شؤون الحياة الزوجية في أيام، ومن ثم تخفق في إدارة شؤون بيتها وتعود إلى والديها من جديد.

❖ ماذا لو أن الأم وضعت جزءاً من أعمال البيت من مسؤوليات البنت ودربتها على ذلك، وأوكلت إليها بعضاً من شؤونه، ثم جلست معها وأعانتها بجملة من المفاهيم والتصورات التي تستطيع من خلالها فهم الحياة الزوجية ومتطلبات الزوج وإشباع تلك الحاجات في أول أيام الزواج ومن أولى اللقاءات؟! فكيف إذا استطاعت أن تجمع عدداً من الكتب وتطلع على جمع من الدورات، وتسمع شيئاً من التجارب من الناجحين في حياتهم الزوجية بعد ذلك؟!

❖ الزوج في المقابل يحتاج هو الآخر إلى تأهيل لإدارة حياته ومشروعه الجديد، ولا ينبغي له بحال أن يدخل مشروع الزواج كأضخم مشروع في حياته وهو لا يعرف عنه شيئاً، خاصة إذا أدركنا اليوم أنه يمكنك أن تقرأ مئات الكتب وتحضر عشرات الدورات، وتسمع كثيراً من التجارب التي أخذت حظها من النجاح.

❖ إن كثرة الطلاق اليوم مسؤولية مشتركة بين الاثنين، وإذا لم يكن كل واحد منهما مؤهلاً لإدارة هذا المعنى الكبير، فسيؤول أقرب ما يكون إلى الفشل والإخفاق والضياع، وفي بعض الدول لا يلتقي الزوجان إلا بعد عقد مجموعة من الدورات المفاهيمية التي تعينهما على إدارة مشروع الزواج بنجاح، وإذا كان اليوم لا يتم الزواج إلا بعد أخذ موافقة من وزارة



الصحة من خلال تحاليل معينة لتجنب بعض الأمراض، فينبغي كذلك ألا يتم إلا بعد عدد من الدورات الفكرية والمفاهيمية التي تؤهلهما للدخول في هذا المشـــروع الكبير، وثمة جهود ومحاولات في هذا الطريق تحتاج إلى شيء من الدعم حتى تبلغ تلك الأماني الكبار في قادم الأيام.

”

نشأت الصرافة من خلال أخي صالح، فتح دكاناً صغيراً للصرافة وبدأت معه كموظف، ثم تحولت إلى شريك بعد ذلك، وتمت الشراكة بمئة ألف ريال مناصفة، ثم تحولت إلى مؤسسة خاصة وفُتحت فروع في سائر مناطق المملكة، وكان بداية عملها تبديل عملة وقبول ودائع الناس كأمانات، وكانت قوتها في مكة والمدينة وجدة بحكم توافد الحجاج والمعتمرين، وكنت حينها أسافر إلى بيروت بعملات أبيعها هناك، وأرجع بعملات أخرى أبيعها للحجّاج، وكان دوامنا من الساعة التاسعة صباحاً إلى الواحدة فجراً في أيام الحج خاصة، وفي غير الحج للعاشرة مساءً، وأحياناً في الحج نبقى للفجر، وكنت أذهب إلى بيروت صباحاً وأعود مساءً في ذات اليوم أبيع الصرافين والبنوك في بيروت، وأعود بعملات جديدة أبيعها للحجاج، وأفطر وأتعشى في الطائرة، وكان ذلك السفر محفوفاً بالمخاطر حتى أنه كان في مرات تصل العملة التي أسافر بها في الشنطة التي أحملها ثلاثة ملايين.

“

❖ هكذا يبدأ مشروع كل إنسان، صغيراً بسيطاً ثم ما يزال يكبر ويتمدد وتتسع مساحاته حتى يصبح كبيراً بهيجاً في النهايات، ما الصرافة بالأمس

في حياة هذا الرجل وشريكه؟ وما الصرافة اليوم؟ كيف بدأ ذلك المشروع وكيف أصبح بعد زمن؟ كل تجربة تبدأ كالطفل المولود أول وهلة، ثم ما يزال يكبر ويتعلم من خلال المواقف التي يتلقاها كل يوم حتى يصبح في النهاية رجلاً قادراً على كل شيء. وهذا المعنى درس لكل إنسان: أن يبدأ في ما يُحسنه، ويدرك أن مشروعه في بدايات أمره لا شيء، إلا أنه ومع الزمن وشيء من الصبر وتحمل أعباء الطريق وتوظيف التجارب التي تعرض سيتحول إلى شيء عظيم وكبير، وعامل الزمن في هذه المعاني مؤثر إلى أقصى مدى، والعجلة أخطر ما على الإنسان، ومن أراد شيئاً تعنَّى له.

❖ الحركة والفاعلية من سمات المبدعين، لم يبلغ هذا المشروع أحلامه الكبرى التي آل إليها بعد ذلك إلا بعد التفاعل مع الفكرة وتحمل التبعات في سبيل ذلك، لقد كان الراجحي يفتح دكانه من التاسعة إلى الواحدة، وفي مرات للفجر، ويسافر ويعود إلى بيروت في يوم واحد، ويأكل في الطائرة أثناء سفره ذاهباً وعائداً ولم يبقَ في مطعم ينتظر طعاماً حتى بلغ أمانيه. ولا يمكن أن تنضج فكرتك وتأتي من خلالها على أمانيك الكبار إلا من خلال هذا الجهد المضاعف والتركيز الكبير، وقلَّ أن تجد ناجحاً في التجارة مثلاً يؤثر نومة الصبح على بركات الفجر، أو يتأخر في فتح محله في الصباح أو يُبكر في إغلاقه في المساء، بل لو تتبعت سير هؤلاء لسمعت ما يدهشك، وكل مشروع لا تصحبه هذه المعاني لا تكاد تجد له خواتيم تليق به، ويظل ركيكاً ضعيفاً بارداً حتى تكفنه الأيام بعد ذلك، وربما بعد ضياع الجهود والأموال والأوقات.

❖ إذا أقبلت على مشروع فاختر شغفك وحبك واهتمامك، وتوجه في مجالك وتخصصك، وركز على فن تجد فيه روحك وتستلذ فيه المصاعب والآلام، وإياك ألف مرة أن تختار مشروعاً تحسب فيه أوقاتك وجهدك وتعبك ومعاناتك، فليس هذا من شأن مشاريع الشغف في شيء. المشاريع التي تُولَد من حبك وشغفك واهتمامك وتتوافق مع طاقاتك وقدراتك وإمكاناتك تخرج في النهايات مبهجة ورائعة ومثيرة وملهمة إلى أقصى مدى، وما لم يجرِ من ذلك شيء في شغاف قلبك فلا شأن لك به البتة. ودعك من محاكاة الآخرين، وإياك والتقليد البارد، ولا تجعل للأوهام عليك طريقاً.

❖ المغامرة من صفات الملهمين، وقد قال الأول: الحياة محاولة جريئة أو لا شيء، والمبدعون لا يهابون بداية الطريق، ولا يخافون ظلامه، ولا يتوجسون من أحداثه مهما كان موغلاً في الظلام. وإلا فمن يأخذ شنطة في يده أيام قلة الأمن فيها ثلاثة ملايين ريال ويتنقل بها ويبيع ويشتري في بلاد غريبة ثم يعود إلى بلده في ذات اليوم؟!

❖ كن جزءاً من الحياة، والضوء الذي يبدد الظلام، وقل كما قال الأول: إذا غامرت في شرف مروم.. فلا تقنع بما دون النجوم. وابعث في كل مساحة ألف معنى للشغف، وكن شجاعاً، ودعك من التردد، واملأ الحياة فألاً، وردد في كل مرة: ممكن، وقريب، وسهل، وإياك من تلك الأوهام العارضة في الطريق: صعب، وغير ممكن، ومستحيل، فذلك شأن المحبطين والمخفقين، ومثلك أوعى بالحياة.



كنا في السابق نبعث العملات من جدة للرياض ومن الرياض لجدة على الثقة الظاهرة فقط، بمجرد أنك تعرف أنه مسافر وتلقاه وتتوسم فيه الخير تسلّمه مبلغك ولو كان مليوناً وتقول له: تجد أخي في المطار يأخذها منك، وكل أصحاب الصرافة كذلك، ولا نستطيع أن نسأله عن اسمه حياءً، وتتصل بأخيك وتقول له أعطيت رجلاً طويلاً معه عقال أو معه كوت لونه أبيض أو أسود حتى يجده. وكنا نشحن لبيروت ونيجيريا والكويت بمجرد أن نضعها في صناديق ولا نؤمّن عليها متوكلين على الله تعالى. وذات مرة بُعث بأحد الصناديق إلى نيجيريا وبقي خمسة وأربعين يوماً ثم وصل وفيه ثلاث مئة ألف، بقي يتنقل من مطار إلى مطار حتى وصل، مع أن المفترض أن يصل في أربع وعشرين ساعة. وكم تعرضنا لمخاطرات كبيرة في المال، ولكن إذا أديت حقه كاملاً من الزكاة بقي لك ولا يكاد يضيع مهما حصل له في الطريق.

❖ في مشروعك الشـــخصي وقضيتك التي تعيش من أجلها يجب أن تجرب كل شيء، وتخوض غمار الأحداث غير متوجس، وتحاول في كل طريق حتى تبلــغ أمانيك، وهذه الجرأة من أصحـــاب هذه الأموال بعض تلك المعاني في حياة أصحاب المشــاريع، وأســوأ ما يجري في حياتك ذلك التردد القاتل الذي يصحبك في مشــروعك، ويلازمك في فكرتك، ويبقى معك في كل خطوة، حتى تذهب الفرص وأنت في ترددك.



❖ تعلم وتـدرب على كل ما يتعلق بمشـروعك الشـخصي، ثم خُض التجربة بعد ذلك غير ملتفت لشيء، وسـتحين مواعيد الأفراح الكبرى ولو بعد حين، ولو لم يكن من هذا المعنى الكبيـر إلا بعث الأموال الكبيرة إلى بلاد بعيدة المسـافات وفي الطريق ألف صورة من الخـوف، وبقيت الجرأة والمغامرة مع التوكل على الله تعالى جسـراً للنجاح والتفوق والإبداع، ولم يحدثنا صاحب هذه المغامرات عن تعثر واحد من هذا الباب، وكذلك الحياة.

❖ تقوى الله تعالى والتـوكل عليه وأداء حقـوق الله تعالى من أعظم وأجل وأكبر الأسـباب التي تُبلغك النهايات، وتأمل هـذا الفقه والوعي (ولكن إذا أديت حقه كاملاً من الزكاة بقي لك ولا يكاد يضيع مهما حصل له في الطريق)، وهذا المعنى لوحده كان كفيـلاً بفصول تلك النجاحات التي تحققت فيما بعد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال سـبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ـ٣].

❞

استمريت أنا وأخي صالح حتى طلب أن ننفصل فانفصلنا وتقاسمنا، صالح توجه للعقار وصار عندهم نوع من المخاطرات غير السليمة، وصار لديهم تراجعات في المؤسسة، وأنا مؤسستي في نمو، وأبلغت الأخ صالح حينها عن الأخطار التي تواجهه وقلت له: بأن لديك تراجعاً خطيراً ورأيي لك أن ترتب وضعك وتغير نظامك، وأبنت له أني أنمو في مؤسستي وهو متراجع، وقال لي: ما الدليل؟ قلت له: اذهب إلى سويسرا، البنك الفلاني، فيه الصراف فلان، اسأله



وخذ منهم معلومات، فذهب وسأل ووجد ما قلت له صحيحاً، فاتصل بي وطلب أن نلتقي، فلما زرته طلب أن نعيد الشراكة من جديد وما زال بي في محاولات متكررة حتى عدنا مع بقية الإخوة. وأعترف أني شديد في الريال لا يخرج إلا في طريقه، وإذا خرج في طريقه فأنا من أسهل الناس في ذلك. ثم تقدمت للدولة بعد ذلك وجاءت الموافقة أن يتحول إلى بنك وحولناها إلى شركة الراجحي للصرافة والتجارة، وكان رأس المال وقتها (٦٠٠) مليون، ثم حُولت إلى مصرفية، وكان الهدف منها أن تكون إسلامية ولها هيئة شرعية تضبطها وتحميها من المخالفات.

❖ تقرأ هذا الفصل فتلحظ شـراكة فيها معاني الإخاء الصادق والود الكبير القائمة علـى معاني الرحمة والصدق والجدية وحسـن النية، وقد قال ﷺ: «**أنا ثالثُ الشَّريكينِ ما لم يخُنْ أحدُهما صاحبَه**»، وقال ﷺ: «**واللهُ في عونِ العبدِ مـا كانَ العبدُ في عـونِ أخيه**»، والجميـل أن الذي طلب الانفصال صاحـب الفكرة صاحب التجـارة في الأصل، ولـم تأتِ هذه المبادرة من سـليمان الذي كان بالأمس عاملاً ثم تحوّل إلى شـريك ثم أصبح قادراً على الاستقلال، وهذا معنى يستحق الاحتفاء. كثيرون يبدؤون جزءاً من مشروعٍ وفصلاً من فصول، وبعضاً من شيء، ثم إذا وجدوا الحياة بدأوا يتمـردون على الأصل، ويتنكـرون للماضي ويعيشـون أنانية، ولا يحفظون ود الأيام السالفة من الدهر، وقلة جداً تحافظ على معنى الإخاء والروح التي ولدت أول مرة، ولا يخرجون عن مباهجها يوماً من الدهر إلا لمصالح أكبر وأعظم.

❖ كل الناجحين يملكون قناعات واضحة المعالم باتجاه أفكارهم ومشاريعهم وقضاياهم الكبرى؛ ولذلك كبرت مع الأيام وتحولت إلى قضايا لها شأن عظيم في تاريخ الأمة، وكل مشروع وقضية وفكرة لا تدفعها القناعات لا تكاد تصنع واقعاً ولو طال زمانها ولذلك قال: (وأنا لدي قناعة واضحة جداً)، وهذا المعنى واضح عنده أشد الوضوح؛ ولذلك بلغ أمانيه فيه كما يشاء، وكل فكرة لا تدفعها قناعات كبرى لا تبلغ مستقبلها ولو استعان عليها بعد ذلك بكل شيء.

❖ لو لم يكن لهذا المشروع إلا أثر النية الصالحة في بدايته لكان كافياً (وكان الهدف منها أن تكون إسلامية ولها هيئة شرعية تضبطها وتحميها من المخالفات) في زمن لا تكاد تجد فيه شيئاً من ذلك. وإذا صحت النية صح كل شيء، وقد قال ﷺ: «**إنَّما الأَعمالُ بالنِّيَّات**».

"أردت أن أفتح صرافة إسلامية في لندن فرفضوا، فذهبت إليهم وقابلت المسؤولين هناك وقلت لهم: هذا عمل إنساني وبدون فوائد ولا ضرائب، وتكثر السيولة في البلد، فوافقوا، وأردت أن أُعرّف الغرب بهذا المعنى العظيم فعملت جولة في كل أوربا أشرح لهم هذه الفكرة في البنوك المركزية والبنوك العادية، وفي دول اسكندنافيا دخلت ثلاث بنوك في يوم واحد، الدولة الأولى دخلتها الساعة التاسعة صباحاً وانتهيت من البنك، وإلى المطار وبعد الظهر قابلت البنك في الدولة الثانية، والثالث قابلته في المساء، والفجر مشيت للمكان الآخر، عرضت الفكرة في أوربا وأمريكا في كل البنوك المركزية من

دون استثناء، وعرضتها في آسيا ووجدنا صعوبة في تأسيس العمل الإسلامي، ولكن وصلنا بحمد الله تعالى، وأصبحت اليوم مقررة في البنك المركزي الأمريكي والبنك الدولي وأصبحت عالمية، وأصبح العمل الإسلامي في كل مكان، وكلٌّ سيحاسبه الله سواء صدق في ذلك أو كذب.

❖ وضوح الفكرة والانتماء إليها وجعلهـا أولويةً يكوّن لها واقعاً مع الأيام، حين أراد أن يعمم التجربة واجه رفضاً فـي البداية في لندن وهذا شأن الأفكار الجديدة والمحاولات الأولى، فسافر إليها وقابل المسؤولين وما زال بهم حتى أقنعهم بالفكرة، ولم يتوقف عند ذلك بل سافر إلى كل البنوك في دول أمريكا وأوربا وآسيا من أجل الفكرة التي يحملها، وما زال بهم حتى اقتنعوا بها جميعاً وأصبحت المصرفية الإسـلامية عالمية، ومَنْ أراد شـيئاً تعنّى له! والأفـكار الكبرى تحتاج إلـى ولاء أصحابها وبذل المسـتحيل في سـبيل تكوينها، وإذا وجدت القناعات كونت كل شـيء وأصبحت ضروب المستحيل واقعاً معاشاً في الأرض.



كل شيء ممكن، وإذا آمن الإنسان بما يريد صنع الله تعالى له كل شيء، بعثنا مندوباً من الجنسية الصومالية إلى بلده ليأتي بعمال، فقُبض عليه، وقيل لا يمكن أن يخرج إلا بمليون ريال، وأردت أن أسافر بشأن موضوعه فشاورت جملة من المهتمين، فقيل لي: لا تذهب لأنك قد تلحق به، فقررت أن أذهب وقابلت ملك البلاد مباشرة، وفي لقاء وعبر دقائق خرجت بصاحبي بين يدي وعدنا



للمملكة سوياً. وحين رفض البنك المركزي في لندن فتح صرافة إسلامية ركبت طائرة ونزلت من المطار إليه مباشرة وأقنعتهم بأثره على البلاد فوافقوا. وحين بعثت شيكات إلى بلاد أوربية فسرقت وقالوا راجع شركة التأمين رفضت أن أراجع أي شركة وأخبرتهم بأن كل مالي سيعود، وعاد كله بحمد الله تعالى بعدما أخذه السُّراق ورموا تلك الشيكات في البحر، وقيل لي أكثر من مرة: لا تسافر بهذه المبالغ الكبيرة فتتعرض للقتل وتودي بنفسك للتهلكة، وسافرت بها مراراً وسلمت بحمد الله تعالى من كل سوء.

❖ الشجاعة من أعظم صفات الرجال، والجرأة والمغامرة جزء من تلك الأرواح التي تقرر أن تكون، والمستحيل وغير الممكن والصعب لا يوجد في قاموس النجباء، وفي النهاية يعود غير الممكن ممكناً، والصعب سهلاً، والمستحيل حقيقةً وواقعاً، وإذا أردت لفكرتك ومشروعك وقضيتك أن تبدأ فدونك هذه المعاني الكبار.

❖ تقرأ هذه السيرة فتقرأ المغامرة والجرأة وسلوك الطرق الصعبة والمظلمة وتقف أمام شخصية لا تقبل الاستثناء، وتؤمن إيماناً كاملاً بأن كل شيء ممكن، والأمر بسيط ويسير، ويمكن أن يكون ولو كان فيه ألف عقبة، ومثل هؤلاء يستطيعون أن يبسطوا للحياة ألف معنى مهما كانت عقبات الطريق في ذلك الحين.

❖ التردد مقبرة الفرص، والجبناء يخافون المغامرة، ويجبنون أمام التحديات الكبرى، ويبقون يراوحون في كثير من القرارات، وبينهم وبين

الجرأة ألف ميل، ولا يكاد الواحد منهم يتنفّس عند خلق الفرص الكبرى ويظل متردداً حتى يقتل كل شـــيء، ومثل هؤلاء حقهم أن يبقوا في الظل حتى يأذن الله تعالى بالرجال.

لا أحد لا يخطئ ولا يندم، ولكن أكبر الأخطاء أثراً أن تخطئ ثم تستمر أو لا تعترف من الأصل بخطئك، وقد أخطأت كثيراً في الطريق، ولولا هذه الأخطاء لما جاء هذا النجاح، لقد أدبني الخطأ ورباني وعلمني كثيراً، ولا أنصحك بالندم على شيء جرى في حياتك؛ لأن مقتضى الإيمان أن تعلم أن ذلك جرى بقدر الله تعالى، حين دخلت في مشروع دواجن الوطنية أتينا بشخص من بلجيكا، واعتبرناه مسوّقاً لشركة الدواجن، وأتينا بواحد آخر إنجليزي كان يشتغل في مشروع دواجن في العراق كموظف، وبقينا نأخذ برأيهم في هذا المشروع فبنينا مشروع الدواجن خطأ بما في ذلك البنية التحتية، قالوا: لا تصبوا أرضية بيوت الدواجن، وصنعوا تهوية للبيت ضعيفة، وقاربوا البيوت كل ستة عشر بيتاً بجانب بعض، ما بين البيت والآخر إلا مئة متر، وكل هذه الترتيبات خطأ فنياً، وبدأنا نعمل والوفيات تزيد، وكانت الوفيات ناتجة عن شيء علمي، فصارت خسائر وتراكمت بشكل كبير، وقد جاؤوا لنا بموظفين غشونا فيهم، يخرج الواحد منهم من المسلخ بثياب الدم ويدخل الفقاسة، وهذا خطأ، وفي الأخير قررنا رحلة إلى خارج المملكة وبقينا نمر على جميع الشركات في هذا المشروع بدءاً من أوربا، حيث زرنا أحد المسالخ في بلجيكا فوجدناهم كاتبين: على الطريقة الإسلامية،



ووقفت على ذلك المسلخ وإذا بالدجاج يأتي ويمر على الصاعقة (ماء حار كي يدوّخ الدجاجة حتى تكون مهيأة للذبح)، فأخذت خمس دجاجات قبل أن تصل للذبح، فوجدت ثلاثاً موتى، فقلت للمشرفين من الشؤون الإسلامية على المسلخ: كيف تصدِّرون للمسلمين موتى؟ قالوا والله لو نفعل الطريقة التي تفعلها لما جاءتكم ولا فرخة واحدة، فزادني ذلك تفاعلاً وقناعة بمشروعي واستثماره في أرضي وفي وطني، وقررت أن أُطعم المسلمين أكلاً حلالاً فانطلقت من جديد متحمساً، ومررت على بقية المسالخ في تلك البلاد وتعرفت على كل الأخطاء التي ارتُكبت في مشروعنا، فجئت بقرارات وأفكار جديدة، فبدأت أنا بنفسي وهدمت بعض البيوت وبنيتها بالبلك الأحمر وخففتها بدل ست عشرة حضيرة جعلتها ست حضائر، وباعدت بين بعضها البعض وتحولت الوفيات من (٥٠٪) إلى (١٥٪) ثم تأملت فوجدت الخطأ في تعبئة البيت، لما تأتي هذا البيت وتعبيه وفيه دجاج عمره أسبوع ثم تأتي بدجاج عمره يوم، فهذا الذي عمره يوم يؤثر على الذي عمره أسبوع، والذي عمره أسبوع يؤثر على الذي عمره يوم، فغيّرنا الخطة وعبيناه من جنسه، فنزلت الوفيات إلى (١٠٪) فوصلنا إلى نوع من الاستقرار، وصلت الخسائر في بداية المشروع إلى مليار وخمسين مليوناً، ولكن كان عندي حماس أنه أمن غذائي، ثم أعدنا بناء الحضائر والتبريد، وشرينا أراضي وتوسعنا ووضعنا بين المزرعة والأخرى كيلو، وعملنا فقاسات أحسن من الفقاسات التي تأتي من الخارج بأفكار محلية، فاستقرت الأمور، وبنينا لها نظاماً فبدأ المشروع يأخذ وضعه في النهايات.

❖ العاملون في الميدان هم أكثر الناس عرضة للأخطاء، بخلاف المتفرجين القاعدين، يجب أن ندرك أنَّ الخطأ فرع عن العمل، يقرر لك هذا الكبير أن الخطأ يعلم ويربي ويؤدب ويجعلك أكثر وعياً بصعاب الطريق وعقباته وتكاليفه، وإن حمّلك بأثقاله إلا أنه يصنع لك ميداناً فسيحاً من التجربة والتأهيل. لقد كان اختيار هؤلاء لإدارة مشروع عملاق مثل هذا المشروع خطأً فادحاً، وإن كان ظاهره أنه اختيار متخصصين، ولكن حتى هؤلاء يجب أن يخضعوا لإجراءات أكثر في الاختيار حتى تسلم من تبعاتهم بعد ذلك، وأياً كان مشروعك يجب أن تشاور فيه وتسأل وتنوّع السؤال، وتأتي للناجحين فيه بالذات حتى تسلم طول الطريق أو تبعاته فيما بعد.

❖ من أكبر عقبات الطريق أمام أصحاب المشاريع ذلك الندم الذي يسيطر على تفكيرهم ومشاعرهم عقب تلك الأخطاء، وقد تحاصرهم تلك الأخطاء للدرجة التي يتوقفون فيها عن كل شيء، وأعظم علاج لذلك أن يؤمن الإنسان بقضاء الله تعالى وقدره، ويفقه قول رسوله ﷺ: «**واعلَمْ أنَّ ما أصابَكَ لم يكنْ ليخطِئَك، وما أخطأَكَ لم يكنْ ليصيبَك**»، ويدرك أن الالتفات مؤذن بالأمراض والتشتت والضياع، ومن وعي الإنسان أن يأخذ من الخطأ ما يعينه على تصحيح المسار ومواصلة الطريق فحسب، والتوقف ليس من أخلاق المتوكلين في شيء.

❖ لن تتخيل إيمانك بفكرتك وحماسك لمشروعك وولاءك له إلا إذا تخيلت خسارة مشروع تصل إلى مليار وخمسين مليوناً ثم لا تثني صاحبها عن مواصلة الطريق. هؤلاء فقط الذين يستحقون العيش في الحياة والنجاح في النهايات، وثمة فرق ضخم وكبير بين المؤمن بفكرته وصاحب الولاء لها، وبين الذي يريد أن يجرب الطريق ويبذل نوعاً من المحاولة وتساوره

شـكوك الإخفاق في كل خطوة من طريق أحلامه، حتـى إذا ما واجه أي خطأ أو مشكلة عاد نادماً شاكياً وتوقف بالكلية.

❖ كم مرة بدأ الإنسـان مشـروعاً علمياً أو فكرياً أو تربوياً ثم لبعض العوارض وأخطاء البدايات تنازل عن كل شيء، وهذا الكبير يخوض تجربة مالية عميقة ويخسر فيها ما لا يأتي على بالك، ثم يأبى أن يتنازل أو يعود للوراء أو يلتفت مجرد التفات، ويبقى مصراً حتى يبلغ تلك النهايات.

❖ قرر أنك إذا بدأت في مشـروعك وفنك وتخصصك ومجالك ألا تقف، وإياك والالتفات فإن ذلك نوع من ضيـاع الفرص وفوات الأرباح. كن أنت وقرر ألا تهزمك ظروف الحياة وعثرات الطريق حتى تبلغ أمانيك.

❖ المتفائلون والجادون لا يتوقفون عند أول صدمة، بل يغالبون ذلك الواقع بالفأل والأمل والسـفر والركض في الأرض والبحث عن التجارب الناجحة. تدرب على طرح الأسئلة الفاعلة: كيف حصل الإخفاق؟ وكيف يتم التصحيح؟ لقد كانت هذه الخسـارة باعثة للإصرار في قلب صاحبها وحاضَّة له للبحث عن الحقائق، يخفق ويخسـر خسـائر كبرى ويأبى أن يبكـي زمانه أو يتردد في قراراه، قرر أن يسـافر إلى بـلاد الغرب ووقف بنفسه على المسالخ هناك، وقضى من وقته زمناً لمعرفة أدق التفاصيل في ذلك حتى تشكلت معرفته لهذا المشـروع من جديد، ثم جاء وتولى كل شيء بنفسه وكتب الله تعالى له في النهاية النجاح.

❖ ما زالت النية الصالحة تقود هذا الرجل إلـى أمانيه الكبار، واحد من المعطيات التي جعلته يستمر على رغم الخسارة الكبرى في الدواجن أنه وقف علـى حقيقة صادمة، وهـي: أن ما يصل من هـذا الدجاج إلى المسلمين يصل ميتاً وحراماً، وفي ذلك من الحقائق الصادمة ما فيها، وقرر



أن يُطعم المسلمين حلالاً صافياً، والنية الصالحة تعين صاحبها من جهة، وتصلح لــه ما يجري في مشــاريعه بعد ذلك من جهة أخــرى، وما نحن بحاجة إلى شيء حاجتنا لهذه النية التي ترد بنا إلى تلك الأماني الكبار.

كل تجاربنا في سائر المزارع لا نستخدم المبيدات مطلقاً، سواء مزارع الفواكه أو الخضار ومزارع الزيتون والأغنام والنَّعم، كلها لا تدخلها المبيدات مطلقاً وكلها سماد طبيعي، لأنه يمثل أمناً غذائياً لكل إنسان، وقد قالوا لنا: لا يمكن أن تقوم هذه المزارع بدون مبيدات، ورفض المهندسون والمختصون الذين جلبتهم من دول العالم الفكرة من أصلها، وقالوا: هذه مخاطرة كبيرة جداً، وعرفت فيما بعد أنهم يضعون شيئاً من ذلك بدون علمي ليقينهم أنه لا نجاح بدونها، فجمعتهم وقلت لهم: الذي منكم شريك في مالي يقدم لي ورقته حتى أتعامل معه على أنه شريك، والذي موظف عندي يسمع ما أقول وينفذ وليس عندي أكثر من ذلك، إما أن تسمع كلامي أو تقدم استقالتك، ولا تربط شهادتك بنجاحي وإخفاقي، أنا لدي منهج متجه إليه وأنا المالك وأتحمل قراراتي كاملة، ونجحت بحمد الله تعالى نجاحاً كبيراً للدرجة التي لو أحاول الآن في إقناعهم بالعودة للسماد الكيميائي لرفضوا بالكلية، وأصبح هذا بحمد الله تعالى ممكناً وواقعياً من خلال هذه المزارع المنتشرة في الجوف والقصيم وغيرها من المناطق، ولم أتأثر أو ألتفت لكلام الآخرين، وينبغي للإنسان أن يكون لديه قوة في مشروعه تعينه على تجاوز الصعاب.

❖ المســألة ليســت فكرةً أو مشــروعاً لبناء ذاته وبلوغ أمانيه في أن يصبح تاجراً، فرق بين إنسان يريد أن يكون شيئاً بغض النظر عن أي اعتبار آخر، وآخر يرى أنه لا يمكن أن يكون شــيئاً على حساب الآخرين مطلقاً. لقد كان مضموناً بنسبة كبيرة جداً أن يقوم مشروعه على المبيدات، وهي تجربة ممتدة في كل المزارع التي قد تراها في زمانك، ويكسب ألف مرة وفي أعجل وقت، إلا أن القيم الكبرى تأبى على أصحابها أن يكبروا على عواتق الآخرين. رفض الفكرة من أصلها وخاض تجربة مرهونة بالفشــل والإخفاق، خاصة إذا عرفنا أن مساحات المزارع كبيرة جداً ووقوع أي خطأ مكلف ولو كان بســيطاً، بدليل أن كل المهندسين والمختصين وأصحاب الشهادات العليا الذين جلبهم لهذا التخصص أجمعوا على أنه لا يمكن أن يقوم مشروع كهذا إلا على هذه المبيدات، ومع ذلك رفض الفكرة وأصرَّ على رأيه، وكان لديه إيمان عميق جداً بأن ما يرضي الله تعالى سينجح ولو طال زمان انتظاره أو تعرض في بدايات الطريق إلى إخفاقات، وتحقق له في النهاية مــا يريد، ولن تتخيل الآثار التي يقدمها له هذا المشــروع بين يدي الله تعالى في موازين الحسنات إلا إذا عرفت قدر المخاطرة التي قام بها من أجل الله تعالــى ورعايةً لإخوة الدِّين، وقد قــال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقــال ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكــم حتَّى يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِه**».

❖ الثقة بالله تعالى من أعظم معطيات التوفيق وأجلّها على الإطلاق، لقد تلقى نصائح كبيرة ومخوفة ومنذرة بخســارة ضخمة، ومن مختصين وأصحاب شهادات عليا ومع كل ذلك لم تقف في وجه إيمانه بالله تعالى وثقته بأنه على الطريق الصحيح، وظل مصــراً وأبى الالتفات، وتحقق له في النهاية كل شــيء. ما أكثر ما نؤمن بالقيم ونجلّها ونقدّسها حتى تبدأ



قصص العمل، ثـم نبدأ نبحث عن أي عذر يمكننا مـن التخلي عن تلك القيم في ذلك الحين، ويبقى هذا الكبير نموذجـاً في الثبات على المبدأ والنضال من أجل القيم، والإصرار علـى ذات الطريق الذي يعتقد صحته ولو كلفه كل شيء.

"

نجحت في إدارة مشروعي بالتنظيم وعدم المركزية، وأعطي كل جهة صلاحيتها، ومهمتي متابعة الصلاحيات، ولا يمكن أن تبدع في إدارة مشروعك حتى تفرغ مخك، ركّز على فكرك وعقلك وأحسن ما تدخل فيه يفرز لك في النهاية قرارات صحيحة، والإبداع فرع عن التنظيم وعدم المركزية، وهذا التفرغ ولّد عندنا إبداعاً كبيراً في شتى المجالات، من صور ذلك التفرغ للإبداع: أننا نظرنا للدجاج حين يشرب وجدنا أنه ينزل رأسه ليشرب، فيحصل فاقد في الأكل، فالذي قريب من الفم يسقط في الصحن فيلوث الماء من جهة، ويضيع جزء من العلف، فرفعنا المشرب إلى أعلى لينزل الماء إلى المعدة مباشرة حتى لا يضطر الدجاج أن ينزل للشرب فنفقد شيئاً من العلف، وقد قُدر ما نفقده في ذلك إلى (٥٪).

"

❖ (التنظيم، وعـدم المركزيـة، وتفويض الصلاحيـات) مرتكزات النجاح، وهي خلاصة تجربة طويلة الأمد يقدمهـا لك صاحب نجاحات كبيرة وملهمـة في الحياة. وغالب الخلل من ضعـف التنظيم أو المركزية التي يتحطم عليها كل شيء.

❖ إذا نُظم العمــل، ومنحت الصلاحيات للفريق داخل كل مؤسســة أمكن رئيس تلــك الدائرة من التفــرغ للإبداع، وجعله ذلــك قادراً على التفكير والنظر خارج الصندوق. مشكلة بعض المسؤولين أنه يريد أن يقوم بكل شــيء، ويعرف كل شيء، ويوقع على كل شــيء، ومثل هذا تترهل مؤسسته مع الأيام حتى تصاب بالفشل والإخفاق، وأي غياب أو طارئ له تتوقف تلك المؤسسة أو ترتكب أخطاء كبيرة ومؤثرة، ومن الفقه والوعي أن يصنع فريقاً متميّزاً ويتعــب على تأهيله وينظم العمل ويرتبه ثم يفوّض لكل فريق أو فرد مــا يخصه من تلــك المنظومة، ثم يتفــرغ هو للتقييم والإبداع.

❖ الرئيس يمثل حجر الزاوية في المؤسسة، وفريقه الذي حوله يحتاج أن يرى صوراً من القدوة المتمثلة في حماسه وولائه لفكرته وقدرته على العمل، وروحه التي يهب منها لمن حوله، ويحتاجون في المقابل إلى من يبث فيهم الحماس والشــجاعة والعمل والتحديات، ويخلق فيهم أرواحاً تبذل كل ما تملك وتصنع ما تريد في المساحات المتاحة لهم.

❖ وصل التفرغ للإبداع عند هذا الرجل أنه اســتطاع أن يقلّص حتى (٥٪) من الفائض الذي يضيع من العلف خلال شرب الدجاج الماء، حيث اكتشف أن نزولها للشرب يُسرّب جزءاً من الأعلاف الضائعة، وبقي يفكر حتى ابتكر طريقةً تحفظ ذلك الضائع، بحيث إذا احتاجت للشراب تشرب من أعلى ولا تكون بحاجة إلى النزول، وكم من مسؤول انغمس في العمل الروتيني وظن بأنه يصنع كل شــيء، وفاته أنه يخســر كل يوم من فكره وطاقته ما كان يمكن أن يجعله صانعاً للإتقان والإبداع.





"

سافرت من أجل مشروع الروبيان دول العالم، وزرت المزارع والمصانع وأخذت كل شيء وعدت بالإيجابيات، ورسمت خرائط المشروع كاملة بنفسي مع إشراف المهندسين، كيف أعمل قنوات؟ كيف أخرج الماء من البحر؟ كيف الطريق إلى إخراجه من عمق البحر؟ كيف نصبُّه في القنوات الرئيسية؟ كيف نوزعه في القنوات الفرعية؟ كيف ندخله الأحواض؟ كيف نخرجه من الأحواض؟ كيف أوصله للقناة الرئيسية؟ كيف أرجعه للبحر مرة أخرى؟ رسمت الخطة كاملةً وجئت بعد ذلك بمهندسين وخبراء وأطلعتهم على الخارطة، وسمعت آراءهم ونقدهم وأخذت منهم أفكاراً تعين على نجاح الخطة حتى اقتنعت بالعمل، ووفقنا في رسم الخارطة، فأصبحنا ندخل إلى عمق البحر لجلب الماء وأخذنا مسافة كليو وسبع مئة متر، وذهبنا للكسارة في الداخل نكسر القنوات، وكلفنا ذلك ملايين حتى حفرنا قناة طويلة وأخذنا منها الماء، لأن البحر العميق حلاوته أكثر من الضحل، ومشروعنا يحتاج لهذه الحلاوة، وفي الضحل تلويث وهذا الماء صافٍ، والقناة طولها أربعون كيلو وعرضها مئة وسبعون متراً، وجميع القنوات الفرعية تأخذ منها، ولما انتهينا وبدأ المشروع استدعينا أكبر خبير في أمريكا فجاء ورأى العمل، فقال: ما وصلتم إليه أنا لم أصل إليه وهذا أعظم نظام دخل في مشروع الروبيان، هذا إبداع! وسألنا: هل يوجد خبير أكبر منه؟ قالوا: يوجد فرنسي، فجئنا به وقال: هذه معلومة تنفعني لكل من جاء يستشيرني سأدله إلى هذا الطريق.

"



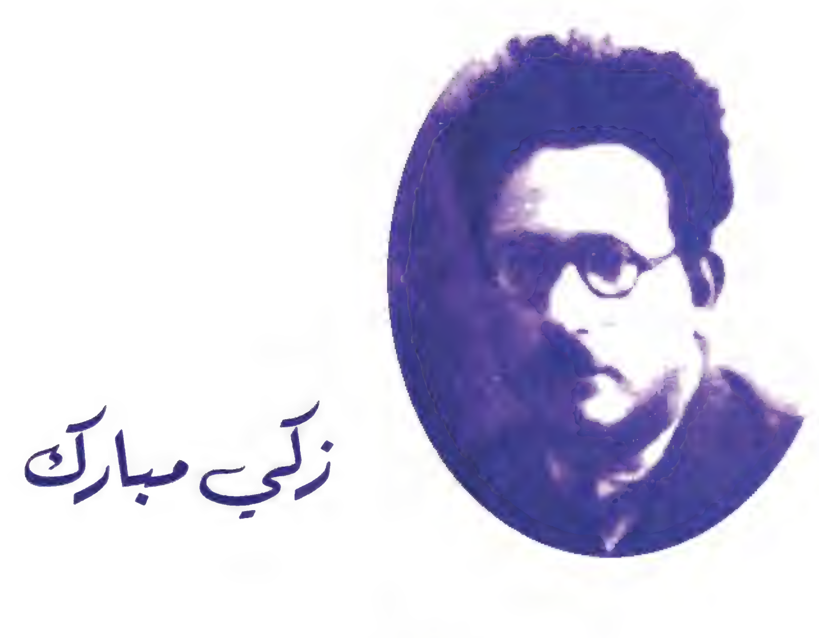
❖ من أكثر مشاهد الإثارة في هذه الشخصية أنه يعرف أدق التفاصيل في عملــه، وهو الذي تولى بنــاء جملة من المشــاريع بيده، ســواء الدواجن أو الروبيان، وهو درسٌ كافٍ لكل من أراد أن يقيم مشروعاً ويبني قضية ويحقق نجاحاً في فكرته: أن يكون هو كل شــيء فيها، خاصة في البدايات، التنظيم والترتيب وتأهيل العاملين وتفويض الصلاحيات شــيء، والإشــراف المباشر ومعرفة أدق التفاصيل في هذا المعنى شيء آخر، كم هي المشاريع التي قامت وصاحبها هو أجهل الناس فيها، وبعض الموظفين من يدير تفاصيلها، وتراها في الظاهر قائمة وتؤدي دوراً وهي تُستلب من الداخل، ولا يتنبَّه صاحب الحق إلا على النهايات المرة والإفلاس العام، ولا يتدخل إلا بعد فوات الأوان.

❖ لقد كان هذا الرجل من أكثر الشــخصيات عمقاً في إدارة مشاريعه حتى قال وهو يروي هــذا المعنى: (كنت أذهب إلــى أصحاب المصانع للآلات التي عنــدي فأطلب منهم إجــراء تعديلات عليهــا للدرجة التي يســتغربون ويقولون: لأول مرة يأتي صاحب مشــروع يطلب تعديلات له ولمشــروعه خاصة به)، ومثل هذا من الصعوبة بمكان أن يتســلل الخلل لشيء من مشاريعه المالية وهو يعرف أدق التفاصيل فيها.

❖ أياً كان مشــروعك يجب أن ترتوي منه حتى الثمالة، وتشــبع منه حتى التخمة، وتعرف فيه أدق التفاصيل وتكــون أباه الروحي، وما يجري من الأعمال بين موظفيك بعد ذلك يأتي في سياق واضح ومنظم؛ حتى لا تستلب مقدرات هذه المشــاريع وتضيع في النهايات على أيدي العاملين. مشــكلة كثيرين أنهم إما أن يكونوا كل شيء وفي أدق التفاصيل، ومركزية طاغية، أو غياب كلي فلا يعرف ماذا يجري بالكلية، وكلا الفريقين مخطئ!







في هذه السيرة ستقرأ مشاهد العز والإباء والشمم، عاش مقتنعاً بأفكاره مناضلاً عنها، وبذل في سبيلها كل شيء، وجعل التعليم سلماً لبناء رجال الغد كما يريد.

"

وُلِدْتُ في الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١م فأضيف للوجود خيرٌ جديد وشرٌّ جديد. ونذر والدي أن يحفّظني كتاب الله تعالى، فدخلت الكُتّاب في سن مبكرة وحفظت القرآن في شهور، ثم ما زلت أعيده وأكرره إلى سنتين.

"

❖ ليس هناك فرق في التاريخ الذي يُـدوّن بينك وبين الآخرين عند الميلاد، وإنما الفرق في الزمن الفاصل بين الميلاد والوفاة وما يجري في ذلك الزمان من أحداث، وهو ما أشار إليه زكي مبارك وعبّر عنه في قوله (خير جديد وشر جديد).

❖ يقرر ﷺ أن الإنســان يولد على الخير حين قال: «**كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفِطرة، فأبواهُ يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه**»، وهذا هو الأصل ما لم تتدخل التربية الأسرية في تشويه تلك الفطرة وتسهم في انحرافها عن ذلك الأصل المتين.

❖ تفاءل بالخير، وكن جزءاً من النور، وظنَّ بنفسك خيراً، واجهد أن تكون جزءاً من الجمال، وبعضاً من الحياة، وفألاً في الطريق، وربيعاً من العمر، وفي إمكانك أن تكون كلّ شيء في النهاية.

❖ كثيرون ولدوا فكانوا جزءاً من الظلام، وبعضاً من الفوضى، وشيئاً من الألم، وكانوا في النهاية شؤماً على الحياة، وبعض أولئك كانوا النور الذي انتظرته الحياة زماناً طويلاً، وحتى لو اسـتيقظت مـن تلك التربية وأنت في غير الطريق، فتذكّر قـول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ

﴿يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، ومثلك أوعى بالحياة.

❖ ثمة جوانب مما يشير إليه زكي مبارك في سيرة أي إنسان، وتتقاسم الأسرة والفرد المسؤولية فيما بعد في حسر الجوانب السلبية ومواطن الشر وتقليص تلك المساحات قدر الوسع، ودعم الجوانب الإيجابية وزيادة مساحتها بالقدر الذي يخرج الإنسان مؤهلاً وصالحاً للحياة.

❖ (ونذر والدي أن يحفّظني القرآن) رسالة ضخمة في دور الأسرة وتطلعاتها من خلال بناء أبنائها، وجعل الوحي أولويةً في تأهليهم، وملء ذاكرة الطفل في باكر عمره بالقرآن، وجعل ذلك فاتحة العمر الزاهر بالأمل والجمال، وكم من أسرة في زمانك اليوم ترابط على هذا المعنى فأجرى الله تعالى لها التوفيق! وكم من أسرة فوتت على أبنائها هذه المعنى ففوتت عليهم أدهش المعاني على الإطلاق!

كنت في طفولتي شيطاناً من الشياطين، ولي شاهدان على ذلك: الأول: أن سيدي الذي يدرِّسني في الكتّاب كانت له مطواة يبري بها الأقلام وكانت تقع منه فلا يرى أين وقعت، ويعتقد أن أحد الطلاب أخذها فيأمر بالفلكة لكل طالب، ويبدأ في ضربه على قدمه حتى يعترف، حتى جاء دوري فقلت له: أنا الذي سرقتها، فقال: وأين هي؟ قلت في البيت، فقال لي: اذهب وأتِ بها، فذهبت إلى البيت وأخبرت أبي بما وقع، فخرج معي وفي يده خيزران، فانزعج المعلم حين رآه

وقال له أبي: ما هذا الذي تصنع؟ فقال: وجدتها بعدما ذهب زكي، فخرج أبي وقَبّلني وقال لي: يعجبني ذكاؤك. والموقف الثاني: كانت السباحة ممنوعة على الأطفال وكان للمعلم ختم من الطين المحروق يختم به سيقان الأطفال يوم الخميس ليرى يوم السبت أنهم لم يستحموا في الترعة، فقد كان الخوف من الغرق مرضاً يساور كل الآباء، ولكن موج الترعة كان يستهويني، فأخذت قطعة من الطين وسويّتها بيدي وخططت عليها تلك الخطوط، ثم وضعتها في المحمى حتى استوت، وفي صباح كل سبت أنثر عليها الحبر وأختم بها ساقي فيعرف الشيخ أنني لم أنزل للترعة ويقول للأطفال: أعظم طفل في الكُتّاب هو هذا الولد المطيع.

❖ لا تستهن بالصغار من حولك سواء كانوا أبناء أو طلاباً، هؤلاء الصغار يملكون من العقول والمواهب والقدرات والإمكانات ما يفوق تصوراتك عنهم، ولا تظن يوماً أنك قادر على ضبطهم بغير الحب والاحترام والتقدير مهما كان عقلك وفكرك، ستظل العقوبة التي تفرضها شكلية وصورية ولا تصنع موقعاً في قلوبهم ومشاعرهم، بل تدعوهم إلى صناعة الحيل للخروج من تلك المآزق التي تضعها لهم في كل حين.

❖ الثقة والحب ومساحات الحوار وغض الطرف عن الأخطاء ودعم المواقف الإيجابية مهما كانت صغيرة وبسيطة من أعظم ما يبني تلك الأجيال في مستقبل الأيام، وثمة مراحل من الفوضى واللعب والعبث ستمر بها تلك الأجيال حتى يحين الكمال الذي تنتظره، ومن فقهك ألا تحرص على طي المراحل وتعجل على مرادك منهم قبل الأوان.

❖ عقوبة الضرب كمثـال تنجح بامتياز في مـرات كثيرة في تحويل سـلوك الأبناء إلى الخفاء وتحجبه في الظلام وتحـت الدرج ومن خلف الأبواب فقط، ولا تخلق سـوى الكذب والالتواء والنفـاق، وتربي القلق والتمرد في نفوسهم، وتخلق فيهم الفوضى في كل حين، وليس أجمل ولا أروع ولا أدهش من مشـاهد الحب والرحمة والصدق والرفق مع هؤلاء، ومن طريف ما يذكر في هذا الباب ما حدثني به أحد المعبّرين للرؤيا مِنْ أنَّ أخاه اتصل به ينقل له رؤيا رآها أحـد زملائه، ويريد أن يُعبّرها، وهي: أنه يرى فأراً يمشي على جدار بيته في كل ليلة، وتلازمه هذه الرؤيا عدداً من الليالي، قال: قلت له: هذا طبق فضائي في بيته يُرى فيه ما يسوء، فقيل له: ليس بصحيح ولم يدخل بيته على الإطلاق، فراجع ذلك المتصل أخاه وأخبره فقال المعبّر: هذا الذي يبدو لي في الرؤيا فحسـب، ودارت الأيام وكان الأب يفتّش عن حاجةٍ ما في بعض غرف بيته، فإذا به يعثر على طبق فضائي في أحد الصناديق، وعرف فيما بعد أنه لمـا منع أبناءه من جلب الطبق احتالوا عليه فحفروا له أسلاكاً في الأرض، حيث ينتظرون خروجه من البيت ثم يشاهدون البث فيه، ثم يغلقونه ويضعونه في ذلك الصندوق، وكان ذلك التصرف فرعـاً عن لغة المنـع المجردة الخاليـة من الحوار والنقاش والإقناع والتربية على القيم، وقد نجحت تلك الممارسات بامتياز في وجود صور ظاهرية لا علاقة لها بالقيم والمثل في شيء. ومن الوعي للأب والمربي والمعلم ومن يعيش في أوسـاط الشـباب أن يبني علاقته معهم على الحب والثقة، ويربي على القيم والصراحة والشـفافية حتى لا يخلق جيلاً صالحاً في الظاهر، متهالكاً في قيمه وبنائه من الداخل. وزكي مبارك يقدم درساً صالحاً للآباء والمربين.

قلت لأبي: أنا أحب أن أتعلم في الأزهر، فقال: من أين وصل إليك هذا الخاطر؟ فقلت له: أمل يساورني منذ أيام ولعل في تحقيقه خيراً كثيراً، وذهبت إلى الأزهر وسني سبعة عشر عاماً وجلست أستمع إلى الشيخ سيد بن علي المرصفي، وكان الدرس: إن الله ما عُصي بشعر كما عُصي بشعر عمر بن أبي ربيعة، فقال الشيخ: أهذه مثلبة أو منقبة؟ فأجاب أكثر الطلاب بأنها مثلبة، وأجبت وحدي بأنها منقبة، فقال: وكيف؟ فقلت: يريد ابن عباس أن شعر ابن أبي ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب فينقلها من الهدى إلى الضلال.. فقال الشيخ سيد المرصفي في حماسة شديدة: إيه يا عروس الأدب. وكانت أول كلمة حببت إليّ دراسة الأدب.

❖ إذا رأيت ولدك طامحاً فلا تحدّه عن بلوغ أمانيه، وأثمن شيء في الأبناء هذه الصراحة والشفافية معهم، وأروع ما في الآباء هذه الروح القابلة للنقاش والمستعدة للتفاوض في بناء مستقبل الشباب، ثم لك أن تقوم من مقامك وأنت تقرأ فصلاً واحداً من فصول البناء في حلق العلم، فصل التشجيع وبناء الثقة وتحريض النفوس على بلوغ أمانيها الكبار من خلال كلمة (إيه يا عروس الأدب).

❖ تخطئ الأسرة خطأ فادحاً حينما تختار لأبنائها تخصصاتهم وتوجهاتهم، وتريدهم في مرات في ذات الفن والفكرة والتخصص بغض النظر عن قدرات وطاقات وإمكانات أولئك الأبناء، وكم تسببت هذه

القرارات في إخفاق أولئك الأبناء وأضاعت عليهم الفرص! إن دور الأسرة في مثل ذلك يقف عند حد الحوار والنقاش وإبداء وجهات النظر وفتح آفاق تلك التخصصات فحسب، وليس من حقها أن تتجاوز إلى أبعد من ذلك. وعلى الولد أن يختار ما يناسبه ويتحمل بعد ذلك تبعات قراره أياً كان.

❖ ثم رغبة تَبدّت لزكي مبارك وتحدّث بها مباشرة إلى والده وأفضى إليه بها، وهذا القدر مدهش لأقصى مدى، أن تجد ابناً يفضي إلى والده برغبته من دون أن يتحرج، ويلقي إليه بهمومه من دون تردد، وهي مساحة يجب أن تأخذ حقها من الاتساع والانفتاح، وكلما ضاقت كثرت عثرات الأبناء وتعددت مشكلاتهم وطال إخفاقهم على مر الزمان.

❖ المدهش في سيرة المرصفي رَحِمَهُ اللهُ هذه الأسئلة التي تخلق الحياة في نفوس الأجيال، وليس هناك أسوأ من الدروس الخاملة التي لا تنخل عقول الشباب وتدفعهم للتفاعل والتفكير، والأدهش هذه الكلمة التي قالها فصنعت منه رجلاً في مستقبل الأيام! كلمة كانت كافية في بناء تخصص ومشروع وقضية وقصة حياةٍ لإنسان توجَّه من خلالها للأدب، وبدأت رحلة الحياة، وقد بلغك أن صحيح البخاري كان أثراً لكلمة شيخ في حلقة حين قال: لو تفرغ أحدكم لكتابة الصحيح، فجرت في سمع البخاري، فصنع منها مشروعه الكبير، والذهبي قال له معلمه يوماً: إن خطك يشبه خط المحدثين. وما أكثر صور هذه المعاني وأحداثها في حياة المربين والمعلمين والآباء والمصلحين على مر الزمان! تَعلّم أن تُلقي على أسماع من حولك ما يحيي قلوبهم ويصنع مشاعرهم ويسهم في بناء مستقبلهم، ويبعث في نفوسهم الجمال والإبداع، وإياك ألف مرة من كلمة تخرج في غير طريق فتبقى حجر عثرة في حياة إنسان ما بقي الزمان.

لا زمتُ الشيخ سيد المرصفي سبع سنين، وكنت أكتب جميع ما يقوله في الدرس ثم أصل جناحه بدرب السماكين، والمسافة لا تحتاج إلى أكثر من عشرين دقيقة، ولكننا نقطعها في سبعين دقيقة لأن الشيح كان يحب أن يسمع شعراً فأسمعه بعض ما أحفظ من شعر العرب، وكنت قد حفظت نحو ثلاثين ألف بيت، وحين يسمع الشيخ بيتاً جيداً يقف ويقول: الله، الله. ومضيت إلى الشيخ مرة فقال لي: هل عندك نسخة من لسان العرب؟ فقلت: لا، فقال: تبيع جبتك وقفطانك وتشتري لسان العرب.

❖ هكذا وعي الجادين، وإذا هيأ الله تعالى لك معلماً صالحاً أو رفيقاً مؤثراً أو صاحباً مورقاً، فخذ منه ما يدفعك لبناء مستقبلك الكبير، حين تهيأت الفرصة لزكي مبارك مع معلمه اقتطع له من عمره سبع سنين، وكم هي الفرص التي تُلقي بك مع معلم، أو صديق وصاحب أو مربٍّ ثم لا تلقي لها بالاً فتذهب، وكان يمكن أن تصنع لك كل شيء.

❖ تأمّل في المقابل هذا البناء الشخصي الكبير في حياة هذا الطالب (وكنت قد حفظت نحو ثلاثين ألف بيت من الشعر) وهو ما زال طالباً على مقاعد الدراسة، فيا رب هيئ لنا جيلاً يعي هذا الدرس ويقوم بأثقال هذا المعنى الكبير في مستقبل الأيام.

❖ معلم مدهش يسمع لطالبه ويطربه الشعر ويهب للجمال مساحات، ويفتح ألف معنى للعلم في الطريق العام، فضلاً عن أوقات العمل والبناء، فرق كبير بين معلم يؤدي دوراً وينتظر مقابلاً، ومعلم تطربه مشاهد العلم

وتغريه حتى يصل غرفة الفصل بالشـــارع والطريق إلى البيت، ويصنع في تلك المساحات كل شيء.

❖ تخيّل في المقابل عطاء المربي ونصيحتـــه التي ألقى بها في فكر طالبه في ذاك الزمان (ومضيت إلى الشيخ مرة فقال لي: هل عندك نسخة من لســـان العرب؟ فقلت: لا، فقال: تبيع جبتك وقفطانك وتشتري لسان العرب)، وما حاجة أديبٍ في هذا الزمان حاجته إلى هذه الوصية بكمالها وتمامها، والمربي الجاد لا يفتأ من ذكر ما ينفع طالبه سواء في درس العلم أو في أدبه العام، وكلما رأى شـــيئاً نافعاً ألقى به على سمعه، وحضّه على اقتنائه، ودفعه إلى تكوين نفسه من خلال ذلك.

❖ من فقه المربي أن يضع عينـــه على النجباء مـــن طلابه ويدفعهم للترقي من خلال كلمات الثناء والتشجيع، ويشير عليهم بما يكوّن ثقافتهم وفكرهم ويصنع منهم قادة مؤثرين في مســـتقبل الأيام، وإذا قرأت وصية هذا المعلم فسترى أنها في شـــغف طالبه وما يثير الدهشـــة فيه، وليست وصية عامة لا علاقة لها بمشـــاعره، وفرق بين وصية لطالب علم راغب، ووصية في ذات الطريق لمن لا علاقة له بالعلم، وإن كانت الكلمات تبقى زمناً وتؤثّر في الأحياء ولو بعد حين ولكن مراعاة أن تأتي في عمق التوجه ملهم لأقصى مدى.

أقامت إدارة الأزهر درسين في المسجد الذي يطل على شارع الحمزاوي، درس يلقيه الشيخ سيد المرصفي في علم اللغة، ودرس يلقيه الشيخ مصطفى عبد الرزاق في فن الإنشاء، فنظرت فرأيت



الشيخ المرصفي يرسل ورقة إلى الشيخ مصطفى فأنهى الشيخ مصطفى درسه وحضر ليجلس متربعاً على الحصير ليسمع بقية درس الشيخ المرصفي، ثم في نهاية الدرس رأيت أن أنسحب، فقال الشيخ المرصفي: ليس بيننا حجاب فتعال معي، وكانت المفاجأة أن أرى الشيخ الزنكلوني ينتظرنا في المقصورة التالية ليشهد ما يريد الشيخ أن يقول، فقال الشيخ الزنكلوني: كل سر جاوز الاثنين ضاع، فقال الشيخ المرصفي: زكي مبارك يعرف جميع أسراري، وأنا لا أخفي عليه أمراً من أموري؛ لأنه عندي أعز من أبنائي، وأنا أرجو ألا يضيعه الأزهر كما أضاع طه حسين.

❖ الأدب أول شـــيء، وهذه الصـــورة التي يحكيها زكـــي مبارك عن المرصفي والزنكلوني بعضاً من مشـــاهد الجمال بين معلمين في جنبات الأزهر، يؤديان دوراً حيوياً ويبنيان صرحاً للعلم، إلا أن ورقة كانت كافية لإيقاف درس أحدهما ويأتي صاحبه بعد ذلك طالبـــاً أمام الآخر، وهكذا هي مشاهد العلم يا كبار.

❖ إذا تأملت عناية المرصفـــي بطالبه زكي مبـــارك أدركت ما يصنع الكبار، وقد لا تقرأ في رعاية المواهب، والحرص على الطاقات، واستثمار الجادين كلمة أمتن مما قال المرصفي رحمه الله تعالى حين قال له صاحبه: كل ســـر جاوز الاثنين خرج، فقال له: (زكي مبارك يعرف جميع أســـراري، وأنا لا أخفي عليـــه أمراً من أموري؛ لأنـــه عندي أعز من أبنائـــي، وأنا أرجو ألا يضيعه الأزهر كما أضاع طه حسين)!

❖ المربي الواعـــي ينبغي أن يضـــع عينه على الجاديـــن والملهمين وكذلك المؤسســـات، لقد وضع المرصفي عينه علـــى زكي مبارك وأولاه عنايته واهتمامه، وكان يدخله في كل شأن من شؤونه ويحتفي به ويشركه فيما يجـــري بينه وبين العلمـــاء، ويرجو ألا تتكرر تجربـــة الأزهر مع طه حسين، فيا لجلال هذه المواقف! ويا لآثارها في حياة صاحبها في مستقبل الأيام!

حين عاد الشاعر شوقي من منفاه تلفّتُّ لرؤيته فرأيته أول مرة في منزل الصوفاني، رأيته رجلاً قليل الكلام، لا يدل مظهره على شيء، وإن أطبقت شهرته الآفاق.

❖ إنما أنت بأصغريك لسانك وقلبك، وما تفعل الصورة والشكل؟! وفي الوحي: «**إنَّ الله لا ينظرُ إلى صورِكُم ولا إلى أجسادِكُم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكُم وأعمالِكُم**»، وبلال الحبشي بُشّر بالجنة وهو يمشي على ظهر هذه الأرض، وســـمع النبي ﷺ خشخشـــة نعليه في الجنة وهو في الدنيا وأخبره بالذي بَلّغه تلك النهايات، وحين تضاحك الصحابة لدقة ساقي ابن مســـعود رضي الله عنه قال ﷺ: «**إنَّهما في الميزانِ أثقلُ مـــن جبَلِ أُحد**»، ويُســـجّل زكي مبارك في هذه الكلمة مشـــهداً واقعياً على هـــذه المعاني الكبار، فشوقي فكراً وموهبة وليس شكلاً وصورةً، وكذلك العالمين.

❖ من فقهك ألا تقيم الرجال على صورهـــم ومظاهرهم وأحاديثهم، وإنما يجري ذلك وفق المعنى الكبير الذي أشـــار الله تعالى إليه في كتابه

بقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ونظير هذا المعنى في المقابل قول الله تعالى في المنافقيـــن: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقـــون: ٤]، فيمّم وجهك تجاه ما يعلو به الإنسان في الدارين، ودَعْك من الهوامش والصور في كل شأن من شؤون الحياة.

لم نجد في عظماء الرجال أحرص على المجد وأعشق للفضل مع احتمال المكاره واقتحام المخاطر مثل هذا الذي لم يشغله الفقر وهو شاغل، ولم يسكنه المرض وهو قاتل، بل جاهد البدر في قتل الظلمة وكشف الغمة حتى أسلم الروح وانتقل إلى جوار ربه.

❖ صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ! فالعظمة هي احتمال المشاق في الطريق إلى المعالي، وارتكاب الأهوال من أجل تلك النهايات. ليس الشـــأن أن يتوفر لك كل شـــيء فتنجح، فذلك في إمكان كل إنسان، وإنما الشـــأن أن تكون فقيراً معدماً ثم تواصل الطريق، وتقف الظلمـــة دون طريقك فتدفعها بحرصك وجرأتك وتقتحم الطريق على رغم كل الأصوات التي تحذرك من الخطو فيه، وتملك الشجاعة التي تبني بها فكرتك ومشروعك وقضيتك وأنت لا تجد شيئاً مما يعين على الوصول.

❖ حين تنحـــت الصخر، وتصبر علـــى طول الطريـــق، وتتحمل حر الرمضاء، وتصيب الشـــمس كل جزء من بدنك، حينها تستطيع أن تكون شـــيئاً ما، وكم من مُقعَدٍ لا يحرّك إلا رأســـه وما زال مصـــراً على الحياة

وصنع له موقعاً في الزحام، وأبى إلا أن يكون شيئاً ملهماً، حتى أني ذات مرة رأيت أحدهم في معرض الرياض الدولي للكتاب وهو ملقًى على سرير ولا يحرّك سوى رأسه، وأبى إلا أن يشارك في هذه التظاهرة الثقافية، فيا لتلك الأرواح الناهضة في زمان القعود!

نظام المدارس لا يتيح فرصة للتعمق وإنما يلهي الطلبة بالقشور لكثرة ما يعرض عليهم من العلوم والفنون، وسيجيء يوم يعرف فيه الناس أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية، لأنهم كانوا يعرضون على الطالب علوماً قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق.

❖ ما زال التعليم على ذلك من زمن زكي مبارك حتى هذه اللحظة التي أدوّن فيها هذه الأسطر، ما زال كثرةً على حساب الكيفية، ومعرفةً على حساب العمل والتطبيق، وزمناً طويلاً وليس فيه حركة علمية تطبيقية ميدانية، منذ أن يدخل الطالب إلى أن يخرج من التعليم وهو على مقعده يسمع ولا يتحدث، أو يتحدث ولا يعمل، ويظل متلقياً ما بقي به الزمن، فإذا ما خرج للعمل خرج ضعيفاً لا يجرؤ على الخطوة الأولى، ولا يستطيع أن يعمل شيئاً، فضلاً عن أن يأتي بجديد، وثمة محاولات هنا وهناك، لعل الله تعالى أن يمد في آثارها ويحقق تلك الآمال.

❖ يدرس الطالب مقررات ضخمة وكثيرة ومتنوعة ويبقى فيها زمناً من عمره، ويعيش فيها شتاتاً، وعليه أن يضبطها كلها بتنوعها وتخصصاتها ومجالاتها، وإلا عُد مخفقاً راسباً فاشلاً، وما حاجتنا إلى شيء حاجتنا

لمعرقة قدرات هؤلاء الأبناء باكراً وتوجيههم إلى ما يناسب تلك الطاقات والقدرات، واستثمارهم فيما يمكن أن يكونوا شيئاً فيه ويصنعوا من خلاله أحلام الدارين.

يجب أن نفهم أن الشبان ما بين العاشرة والعشرين صالحون لفهم أصعب الدقائق، ويجب أن يكون في نيتنا أن نجعل التعليم الثانوي مرحلة حاسمة في تكوين عقول الشبان. وتضييع هذه الفرصة إثمٌ موبق؛ ذلك أن مرحلة التعليم الثانوي هي المرحلة النهائية، ثم يلتفت الشباب إلى حاله فيكون رجل عمل في أي ميدان.

❖ هذا المعنى الذي يحكيه زكي مبارك هنا يجب أن يكون فكراً وسلوكاً في فكر الآباء والمعلمين والمربين، الأبناء طاقات كامنة وتحتاج إلى من ينفخ فيها هذه المعاني الكبار حتى يتمكنوا في مستقبل الأيام من تجاوز رهبة الخطوات الأولى، وكسر الأوهام، وتخطي حواجز الخوف والتطلع إلى المستقبل مهما كانت كلفة الطريق.

❖ أخطر ما نعاني في حياتنا تلك المعتقدات التي تخبرنا بين فينة وأخرى بأننا غير قادرين على النجاح، ولسنا أهلاً لتحمل المسؤوليات الضخمة، وفي الطريق ألف عقبة لا يمكن تجاوزها، وما نحن بحاجة إلى شيء حاجتنا إلى بناء تلك القناعات التي تبني في أنفسنا الثقة بأننا قادرون على صناعة أحلامنا كما نشاء، وكتابة تاريخنا كما نريد، وشيء من القراءة الفاعلة، وصحبة الجادين تجعلنا بإذن الله تعالى قادرين على تحقيق ما نريد.

❖ فرق كبير جداً بين أسرة تغمر أبناءها بالثقة من خلال العمل وتشركهم في كل شيء، وتدعوهم إلى حمل الصعاب وتحمُّل تبعات الطريق، وتبني فيهم كسر رهبة المواقف من خلال التجارب الحية، وأسرة تربيهم على عدم الثقة من خلال القيام بكل شيء عنهم، فيكبرون ويكبر معهم الخوف والتردد والجبن عن المحاولات الجادة في بناء مستقبلهم.

❖ فرق بين أسرة تُسلّم جزءاً كبيراً من مسؤوليات البيت لشاب في مقتبل عمره فتجعله يصيب ويخطئ ويتعثر ويقوم، وينجح ويفشل حتى يخرج في النهاية بطلاً يصنع كل شيء، وأسرة تشتري له ملابسه، وتغسل له ثيابه، وتنظم وترتب له غرفته، وتصنع له قراراته واختياراته، وتقوم عنه بكل شيء، فتربيه أن يكون تابعاً ضعيفاً جباناً غير قادر على تكوين شخصيته وبناء نفسه في مستقبل الأيام.

❖ كنت مرة في ضيافة أحد القضاة في المنطقة الشرقية مع رفقة عمل، ودخلت المسجد فاستقبلني شاب في المرحلة الابتدائية عند باب المسجد وسلم عليّ بحرارة وقال لي: أنا ابن فلان، وأنتم ضيوفنا هذا اليوم، فحياكم الله، ثم صلينا ودخلنا البيت، فجاء بعدنا وسلم ورحّب بنا، ثم أكرمنا بالقهوة، ثم لما حضر الغداء أشار إليه والده بطرف عينه فوقف ورحب وقال كلاماً جميلاً ثم دعانا للغداء، وهكذا تعد الرجال، وتصنع المواقف، وتبنى الأجيال.



للحَمام طبيعة هي غاية في الصدق، وهي أنه يطرد فرخه من العش حين يشب الفرخ عن الطوق، يطرده بدون رفق ليتفرغ لتغذية زغب الحواصل من أفراخه الناشئة. ألا غضبة الله على ابن يحتاج إلى رعاية أبيه بعد سن العشرين!

❖ إن بيئاتنا اليوم صالحة جداً للتدجين، وقادرة بامتياز على خلق حالات الترهل في واقع الأجيال للدرجة التي يبلغ فيها الشاب الخامسة عشرة، ويتجاوز سن التكليف وهو غير قادر على حمل مسؤولية، ويظل عبئاً على أسرته زمناً طويلاً يأكل ويشرب وينام دون شيء، ولا يضيره ما هو فيه، وقد لا يحرك ساكناً للبحث عن فرصة أو التأهل لمستقبل الأيام. وأضر ما على الإنسان هذه الاتكالية التي تقضي على كل ما يملك من مقومات، ويبقى رهين زمانه ولو طالت به الأيام.

❖ في مرات يحتاج الشاب أن يعي دوره ويدرك مسؤوليته، ويرفض أن يعيش على عرق والديه ما دام قادراً على السعي في الأرض، وفي مرات أخرى تحتاج الأسرة أن يكون ذلك جزءاً من ثقافتها في تربية وتأهيل أولادها، حتى لا يكبروا على الكسل والدعة، وقد قال ﷺ: «**اليدُ العليا خيرٌ مِنَ اليدِ السُّفلى**».



حين توليت تدريس آداب اللغة العربية بالجامعة المصرية رأيت أنه لا يجوز أن يسقط تلميذ؛ لأن سقوط التلميذ شهادة على ضعف الأستاذ. كنت أعطي الطلبة واجبات من أول العام، ثم أقول لهم: هذا هو عملكم العام كله، ولكم عليه درجات، ولكم أن تختاروا الموضوعات.

❖ هكذا يصنع الوعي، ودور المعلم تأهيل هذه الأجيال من خلال ما يُلقي إليهم في مساحات العلم من واجبات وأنشطة وبرامج، وليس حفظ تلك المعارف والمفاهيم حفظاً مجرداً وقياس مدى ضبطها معرفياً في حياتهم الدراسية.

❖ الواجبات والأنشطة والبرامج ينبغي أن تبني مصفوفة المفاهيم، وتُدرّب على تَعلّم المهارات، وتُجذّر القيم الكبرى في نفوس الناشئة، حتى تستطيع أن تخرّج أجيالاً قادرة على الفهم والوعي، ولديها مهارات تستطيع أن تخرج بها إلى سوق العمل، وتملك قدراً من القيم يعينها على الحفاظ على دينها ومنهجها، وينظم تلك المعاني في سلسلة لا تتخاصم مع بعضها البعض.

❖ هذا المعنى الذي يذكر فيه زكي مبارك شعوره بأن سقوط الطالب سقوط له، وإخفاقه إخفاق له، من أعظم ما ينبغي أن يعمّم حتى يكون ثقافةً في نفوس المعلمين في كل زمان ومكان.

❖ دور المعلم الحقيقي أن يقيّم ويصنّف أولئك الطلاب الذين يجلسون بين يديه، ثم يعطي كلاً منهم بقدره، ففرق كبير بين أدنى جهد يقدمه المعلم

لطلاب متميزيــن، وجهد آخــر مضاعف يختــص به جملة مــن الطلاب المتعثرين الذين هــم بحاجة إلى وقت أطول لنقــص بعض القدرات، وقد يحتاجون إلى وقت إضافي يحتسبه المعلم خارج إطار الحصة، أو نوع من التدريبات والتطبيقات المناسبة لطاقاتهم وقدراتهم، أو طرائق أخرى أنسب وألطف، أو حتى الاقتصار على أصول تلك المعاني التي يراد منهم النجاح فيها، ونتنبه ألف مرة من المقارنة بين طالبين في ذات الفصل.

❖ ثمــة واجبات ينبغي أن تُحــل في البيت، وواجبــات في الفصل، وواجبات فردية وأخرى جماعية، علــى أن تكون كل تلك الواجبات تبني مهارات، وتعلم وتدرب من خلال تلك التطبيقات، وليست معارف مجردة يراد لها أن تُنقل من الكتاب المدرسي إلى دفاتر الطلاب فحسب، وليس بالضرورة أن يكون التقويم واحداً وبذات الميزان لكل الطلاب، وفرق بين طالب متميز وآخر متوســط وثالــث ضعيف، فيقبل مــن كل واحد منهم بقدره، ويرتب له جهداً آخر مضاعف يعينه على استكمال منظومة المعارف والقيم والمهارات التي يراد تحقيقها من تلك الواجبات.

استعرض مشكلته التي وقع فيها مع (المسيو) رأس المستشرقين الفرنسيين، وكانت له آراء مدونة عن نشأة النثر الفني عند العرب، قال: وما كدت أصل لباريس حتى هممت بمهاجمته، فنصحني آخر وأفهمني أنه صعب المراس، وأن منزلته في المعهد العلمي عظيمة، وأن المستشرقين جميعاً يُجلّونه أعظم الإجلال، ولكن كتب الله ألا أنتصح فابتدأت رسالتي العلمية بفصلين نقضت فيهما آراءه من

الأساس فغضب الرجل وثار، وصمَّم على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسية في البحث، ولكنني صمَّمت على إبقائهما بحجة أنهما العماد الذي تنهض عليه نظريتي في نشأة النثر الفني. وكأنما عَزَّ على الرجل أن أهاجمه في عقر داره فمضى يعاديني عداءً خفياً كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتفضت رعباً من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف. وقد قابلت خصومته بلدَدٍ أقسى وأعنف، ورأيت الحرص على آرائي أفضل من الحرص على رضاه، فأبقيت الفصلين وأضفت إلى البحث الذي قدمته فصلاً آخر قد أشار بحذفه لأني هاجمته فيه، وانتهينا إلى عاقبة أفصح عنها من نصحني أول مرة، إذ قال حين لقيته أخيراً في باريس: إن الميسو لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينساك.

❖ الثقة فيما أعطاك الله تعالى من طاقات وقدرات وإمكانات تكفي لصناعة واقعك مهما كانت عقبات الطريق، وكم هي الموارد الضخمة التي يملكها الإنسان كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ومع ذلك يذهب كثير منها إن لم يكن كلها في أدراج الرياح، ويواجه الإنسان عواصف من الشكوك فيما يملك من تلك الطاقات والقدرات، ويظل رهين هذه الشكوك زمناً من عمره، فتموت كل فصول العز من واقعه ويبقى ضعيفاً هامشاً ما بقي به الزمان، ولو أن الإنسان آمن بما أعطاه الله تعالى ثم أقبل على العلم ودفع له وقته وفكره وزمانه لأصبح شيئاً يستحق الالتفات.



❖ قرر زكي مبارك أن الوصول إلى المعرفة طريق واحد يستوي فيه المعلم والطالب لا فرق، ولا سبيل لتميّز أستاذ على طالبه إلا بقدر ما يملك من تلك المهارات والمعارف والعلوم، وقد شرب زكي مبارك من هذا المعين حتى روي؛ ولذلك استطاع أن يكون بطلاً، والمعرفة قاسم مشترك بين الطالب ومعلمه، والرئيس ومرؤوسه، والكبير والصغير والرجل والمرأة لا فرق، وكل من منحها وقته وفكره وأقبل عليها بما يملك استطاع أن يتفوّق حتى لو كان في مرات كثيرة طالباً وصغيراً ومرؤوساً وامرأةً لا فرق. باختصار: كن قارئاً ملهماً في تخصصك ومجالك وشغفك، وستكون ملهماً للعالمين من حولك.

❖ العزة أثمن فصول الإنسان، ولئن تلقى رافعاً رأسه على رغم كل العواصف التي تجبره على الركوع، أحب إليك ألف مرة من جماهير لا تحسن إلا الاستسلام باسم أدب العلم، وحاشاه أن يكون ذلك وسماً له في زمان من الأزمان! لا يفتك أن زكي مبارك حين بدأ فصول هذه العزة: هو طالب من الطلاب، وعند معلم غربي، ومبتعث، ومغترب، ولا يملك من القرار شيئاً، إلا أنه أراد أن يحكي فصلاً من فصول العز والشرف والعلو لدى الإنسان فحسب.

بعد امتحان الدكتوراه أقمت في باريس لأحضر حفلتين في تكريم صاحب النشر الفني، ثم خرجت من باريس وكان صديقي محمد علي حافظ يقول: من وقت لوقت سأمر على المنزل الذي كنت تقيم فيه يا دكتور لأتمرن على الصبر الجميل.

❖ (الصبر الجميل) هذه هي الذكريات الباقية في حياتك! أن لا يتهيأ لك شيء فتخلق له مساحات من الوجود، ولا تجد مالاً فتقرر ألا يموت حلمك مهما كان شُحّه بين يديك، وتعيش مريضاً زمناً من عمرك فتتحمل أوجاعك حتى لا تنفصل عن أمانيك الكبار. الصبر الجميل حين يكون حلمك مستحيلاً فيعود ممكناً، والطريق صعباً ووعراً فيعود مسلوكاً مطروقاً بالإصرار وكثرة الترداد عليه، وإلا فلا مفروح بشيء بعد ذلك البتة، والله المستعان!

❖ الصبر الجميل أن تُبتعث وتحافظ على قيمك ومبادئك، وتحافظ في ذات الوقت على روحك ومشاعرك، وألا تموت بالغربة أو تذبل في الطريق الطويل، أن تبقى مناضلاً ما بقي بك العمر، وكبيراً ذا شأن ما طالت بك سني الحياة، وألا تستسلم لعارض مهما كان حجمه وأثره في ذلك الطريق.

❖ الصبر الجميل ألا يهزمك الآخرون، أو يثنوا عزيمتك عن أمانيك الكبار، أو يحولوا بينك وبين أحلام الدارين، أن تخرج لحلم ولا تعود إلا به، وتلقى من يقف في طريق أمانيك فتدفعه جانباً وتمضي لتلك الأماني الكبار، ولا ترضى إلا بتاريخ يستحق التدوين.

❞

وأقسم بالله أني ما فكرت في المنافع المادية حين توليت التدريس بالجامعة المصرية، وإنما كان همي أن أغرس الشوق إلى الدرس في نفوس تلاميذي، وقد ألقيت في صدورهم جذوة لن تخمد ولن ينالها سكون، ولئن أراد الله تعالى أن أبعد عن الجامعة فإن زملائي

سيذكرون دائماً أني تركت في أنفسهم آثاراً أطيب من المسك، وقد حزنوا حزناً أليماً لفراقي.

❖ صورة من صـور مباهج العلم في حياة زكـي مبارك، يعرف قدر العلـم ويدفع من أجله كل شـيء، ويمّم وجهه إلى صناعة الشـوق في نفوس المتعلمين، وهذان المَعْلمان مـن أعظم وأبهج معالم الجمال في حياة المربين!

❖ أن تأتي لرسالة وتدفع أوقاتك ولا يهمك كم يأتيك منها من مال، وإنما كم يجري عليك من آثارها في نفوس المسـتقبلين، فذاك شأن كبير يحتاج إلى فصول ومشاهد ومسـاحات من البيان. وما يأتيك من آثار هذا المعنى أعود عليك وعلى تاريخك ومشـروعك ألف مرة من كل العوائد التي تأتي لك في الطريق.

❖ ماذا لو كان الدافع للتعليـم صناعة أجيال الغد، وتخرج كل صباح من بيتك وأنت تتقد حماسـاً لفكرتك ومشروعك وقضيتك، وحين تلقى طلابك كأنما تلقى الحياة لا فرق.

❖ فرق ضخم جداً بين معلم ينتسـب لهذه المهنة الشريفة، وأجلُّ ما يقوم به لا يجاوز الحضور والانصراف، والوصول إلى آخر ورقة من ذلك المنهج المكلف بإيصاله إلى الناشـئة، وآخر يحدثك عن همومه وغاياته الكبـار ويقول لك: (وإنمـا كان همي أن أغرس الشـوق إلى الدرس في نفوس تلاميذي)، وما قرأت في هموم المعلمين أثمن من هذه الكلمة، ثم هي لم تكن مجرد أمنيـة مقطوعة الصلة بواقع التطبيـق، بل تجربة حية

يخبرك فيها زكي مبارك بقوله: (وقد ألقيت في صدورهم جذوة لن تخمد ولن ينالها سكون)، ولو لم يصنع المعلم إلا بعضاً من هذا الشوق وجزءاً من هذا المعنى، وطرفاً من هذا الشجن لكان كافياً في سيرته ما بقي به الزمان، فكيف وقد ألقى في قلوب طلابه بكل شيء؟!

❖ فرق كبير بين معلم يؤدي دوراً ضمن مجموعة، ومعلم يقوم على فكرة، وينوء بهموم مشروع، ويعرف أثقال العلم، ويلتذُّ بكل دقيقة تُصرف في هذا الطريق الطويل، وما حاجة الأمة اليوم إلى شيء حاجتها إلى صاحب شغف يعيد لها بعضاً من هذه الشجون.

الذين يحاربونني لم يطمعوا في محاربتي إلا لظنهم أني رجل أعزل لا أنحاز إلى حزب من الأحزاب، وليس لي في الحكومة عمٌّ ولا خال، ولكن خاب ظنهم، فإن الحق أعز وأقوى، وسيرون كيف أزلزل أرواحهم وكيف أملأ قلوبهم بالرعب، وكيف أريهم عواقب ما يصنعون. إن النصر سيكون حليف من يصلون النهار بالليل في تثقيف عقولهم، أما الثرثرة الفارغة التي يعتصم بها أمثال طه حسين فلن يكون لها في عالم الجِد بقاء. وأعرف أن أمامي مصاعب كثيرة وأنني أقف وحدي في ميدان القتال، ولكني لن أحزن ولن أضعف وحسبي من النصر أن أكون غصة في حلوق المبطلين والمرجفين.

❖ فصل من فصول الجمال وقطعة من سبائك الذهب، ومساحة من ربيع، فاقرأ هذا المعنى الكبير: (إن النصر سيكون حليف من يصلون

النهار بالليل في تثقيف عقولهــم)، وصدق ألف مرة! ما رأيت مقبلاً على العلم مجلاً للفكر إلا كان حدثاً يستحق الاحتفاء.

❖ لن تجد مؤثراً وحاملاً لراية وكبيراً ملهماً في واقعه إلا وقد وصل ليله بنهاره وأذاق عينه الكرى، وقرر أن يكرر ما جاء في كتاب الله تعالى على لسان نبي الله تعالى: ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ ﴾ [الكهف: ٦٠]! ووالله ثلاثاً، ما نحن مشتاقون لشــيء ما نحن مشــتاقون لهذا المعنى الكبير. أما آن زمان نرى فيه من يصل نهاره بليه، وأول يومه بآخره وقرر ألا يتوقف ولو طال به الطريق، وكان مؤمناً من أول خطــوة أنه على مواعيد الفرح يوماً من دهره وزمانه؟! وا شــوقاه لنفوس الأحرار، وهمم الكبار، وتحديات المصلحين.

كتبت رسالة لطه حسين قلت فيها: لقد ذهبت أنت وأتممت دراستك في باريس، وذهبت أنا فأتممتها في باريس، أما أنت فذهبت على نفقة الجامعة، ومضيت أنا متوكلاً على الله فأنفقت ما ادخرت من عرق الجبين، واتصلْتُ أنت بالمسيو كازانوفا فعرض عليك آراءه فرضاً، ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ، واتّصَلْتُ أنا بالمسيو ففرضت عليه آرائي فرضاً، واتّصَلتْ بيني وبينه الخصومة فآذاني إيذاءً شديداً، ولكن قناتي ظلت صلبة واستطعت أن أقوّض كبرياءه في عقر بيته وفوق كرسي السربون. ولم تمر هذه المعركة بلا غنيمة، فقد وقف المسيو ماسينيون يوم أديت امتحان الدكتوراه وقال: إنني حين أقرأ أبحاث

طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت إلينا، وحين أقرأ أبحاث زكي مبارك أشعر بأني أواجه شخصية جديدة. فإن كنت في ريب من ذلك فاسأل من حضروا امتحاني في السربون وكانوا مئات وفيهم مدير البعثة المصرية في باريس، ولك أن تسأل المسيو ديمومبين ليخبرك أن المسيو مرسيه صارحه بهذه العبارة: إني لا أستطيع أن أمنح زكي مبارك ما يصبو إليه، فإني أقرأ في وجه هذا الفتى آيات الطموح الجارف، وأخشى أن يجيء غداً ومعه سفير مصر ليطالب بكرسي من كراسي السربون.

❖ حياتك نتيجة لأفكارك ومفاهيمك، وليس بالضرورة أن تتهيأ لك الظروف حتى تصنع فرقاً، في مرات كثيـرة التحديات والظروف الصعبة وعقبات الطريق هي التي تصنع فصول ذلك المجـد بامتياز، وإياك ألف مرة أن تقول يوماً: لم أجد معيناً في الطريق!

❖ القناعة بما نملك تدك الجبـال، والإيمان الكبير بأننا قادرون على إضافة إسهامات مدهشة يبسـط لك الطريق، ولئن تمضي وحدك وأنت لا تملك شـيئاً من مقومات النجاح وتنحت من صخر ظروفك حتى تصنع واقعك، أعظم وأعود عليك ألف مرة مـن أن تبقى منتظراً لمن يمد إليك يده داعماً ومعيناً على النجاح.

❖ لقد قرر زكـي مبارك أن يخـوض التجربة بنفسـه، ويتجاوز كل الظروف التي تحيط به، ويتعالى على كل المشـكلات، ويرفض أن يبقى أسيراً لتلك الأوهام؛ فذهب على حسـابه الخاص، واختار رسالته، وألقى

فيها مفاهيمه وأفكاره، وعـارض القوم في ما يعتقدون فـي عقر دارهم، ورفض أن ينحنـي لتلك الآراء، وظـل صامداً أمام أفـكاره حتى أوردها النهايات. ومثلك أقدر على صناعة الفرص وكتابة التحديات، ويكفي في النهاية أن يعترف صاحب الأفكار المعارضة ويقول في النهاية: (فإني أقرأ في وجه هذا الفتى آيات الطموح الجارف).

أعيذكم أن تلجؤوا إلى السنين والحساب، هيهات، هيهات، ففي الدنيا فتيان لم يتجاوزوا العشرين ولكنهم يعيشون بقلوب هرمة أضناها الضعف والهزال، وفي الدنيا شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم يعيشون بقلوب معمورة بالبأس والفتوة والشيطنة والاعتزام. ومن أمثال الفرنسيين: لا تسأل عن سني، ولكن اسأل عن عمر قلبي.

❖ هذا هو الحساب الحقيقي لعمرك! أن تبقى حياً تعيش لفكرة وتحيا لقضية، وتجاهد في سبيل مشروع، ثم لا تتوقف بك تلك الأماني يوماً ما. ثمة أناس يكبرون فتكبر معهم أحلامهم، تطول أعمارهم وتطول في ذات الوقـت أمانيهم ويبقون يتنفسـون عزهـم وأحلامهم ويرفضـون القعود والاستسـلام، كان البيروني رحمه الله في اللحظات الأخيـرة من عمره وعلى سرير موته لما رأى ذلك العالم يزوره ابتدره قائلاً: كيف حساب الجدات؟ فقال: وأنت في هذا العمر؟! قال: لئن ألقى الله تعالى وأنا عالم بها خير لي من ألقاه وأنا جاهل بها.

❖ كانت تلك الأجيال ترفض فكرة الموت والتوقف وتأبى الاستسلام، وقد قال سـعد بن الربيع يوماً وهو طريح على أرض المعركة حين رأى من يتفقده: الله الله أن يوصل إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف. إياك أن تجعل ذلك التاريخ المدون في بطاقتك هو سـجلك التعريفي! دع قلبك وشبابك وروحك وغبار قدمك وحياة مشروعك وفكرتك هي التي تعرف بك، الحياة أجلُّ من أن تحتاج فيها إلى أن تسرد للسـائلين أرقاماً لا علاقة لها بسيرتك ولا شأن لها بتفاصيل حياتك، كن حراً أبياً ناهضاً واملأ الأرض ربيعاً، ولئن وجدت سـائلاً فارغاً يسـألك عن عمرك فستجد مئات يسـألونك عن عمر فكرتك ومشروعك وقضيتك، وكم هي أنفاسك من خلالها في العالمين!

كان (حافظ إبراهيم) أقوى من تغنَّى بشعر الوطنية وهو شاب، وكانت قصائده على ألسنة الناس، وكان اسمه ملء المسامع ثم اختطفته الحكومة فألهته بوظيفة في دار الكتب المصرية فسكت زماناً طويلاً، أما شوقي فكان شاعراً في شبابه وشيخوخته، وكان شعره في الشيخوخة أرقى وأجزل، والسر في هذا يعرفه من عرف شوقي، فالرجل كانت له آمال عراض طوال، وكانت أعصابه كتلة من القوة والفتوة، وكان يضمد جراح الشيخوخة بأحلام الشباب، ومن أجل هذا ظل يهدر هدير الفحول إلى أن عقله الموت بأعنف عقال.

❖ هذا الفرق بين شوقي وحافظ إبراهيم، الأول انشغل والثاني تفرغ، الأول وجد ما يصرفه عن فكرته ومشـروعه، والثاني بقـي لها ما بقي به



العمر وازدانت أفراحها به فيما بعد، وفي هذا التعريف درس يكفيك مدى الحياة، ومثلك أوعى بما يجري في فصول التاريخ.

❖ إذا آمنت بقضيــة واعتنقت فكرة وكانت هي مشــروعك فإياك أن تبرحها ما بقي بك الزمان. الأفكار الكبيرة والملهمة والمدهشة تحتاج إلى أن تخالج شــغاف قلبك وروحك ومشــاعرك، ثم تُفرّغ لها بعد ذلك كل وقتك، وترفض بكل ما تملك أن يشــاركها شــيء في تلك المشــاعر أو ينازعها شيء في الأوقات.

❖ كن متطلعاً لمســتقبل الأيام، واملأ قلبك بالجمال، وقرر أن تكون شيئاً، وإياك أن يذهب عمرك في الهوامش! ومثلك أوعى بالحياة.

دخلت بغداد وأنا متأهب لإعداد جيل من الأساتذة يقومون بإحياء الآداب العربية في البلاد العراقية، وقد قسّمت الدرس إلى قسمين: قسم شفوي وهو شرح سورة الحجرات في تفسير الزمخشري، وقد ضجر الطلبة من أن نقضي العام كله في تفسير سورة الحجرات، وكان جوابي أن المهم عندي أن تعرفوا أسلوب الزمخشري في تفسير القرآن وتتذكروني بالخير حين أرحل عن هذه البلاد. أما القسم الثاني فهو تكليف الطلبة بواجبات من أول يوم، واجبات قوية تروضهم على البحث والاستقصاء، فكنت أقضي الأمسية في الإشراف عليهم بالمكتبة العامة مكتبة بغداد، وكان الغرض ألا يسقط تلميذ في الامتحان؛ لأني أؤمن أن سقوط التلميذ هو أيضاً سقوط للأستاذ.

❖ المباهج التي تراها في مرات كثيرة باسـطة فـي واقعٍ ما هي آثار الرجال! لقد ذهب إلـى بغداد وكان هدفه واضحاً جليـاً (إعداد جيل من الأساتذة يقومون بإحياء الآداب العربية في البلاد العراقية)، والرؤية تصنع أمانيـك الكبار، وليس أضر عليـك من العشـوائية، ولا أخطر عليك من الفوضى، وإذا أردت أن تعرف هذا المعنى فسـل نفسك: من أنت؟ وماذا تريد أن تكون بعد عشرين عاماً من عمرك؟ في بيتك وأسرتك، ما الرؤية التي قررت أن تعيش لها في تلك الأسـرة؟ في مجتمعـك وحيّك، ماذا لديك من آمال لتكوّن بها مساحات الربيع القادمة في حياتك؟ هذه أسئلة الحياة، أسئلة وجودك في الدنيا، أسئلة المعنى الكبير الذي تعيش له، وما عدا ذلك ففوضى لا علاقة لها بصناعة الأحداث الكبرى في واقع إنسان.

❖ ما أكثر أعباء الكمّ في حياة أجيالنا! ومـا أقل العناية بالكيف! ما أكثر ما يحملون من كتب في باكر كل يوم! وما أقل ما يعودون من آثارها في آخر اليوم! يحمل هذا الكم كله ليحفظه ظهراً عن قلب، وليس مطالباً في مرات كثيرة بنتائجه التطبيقية العملية في شيء. وقد قلت لك وما زلت أكرر: كل مدرسـة لا تُعلم المعـارف، وتؤهل على القيـم، وتدرب على المهارات فلا علاقة لها بمستقبل تلك الأجيال في شيء.

❖ ما زال زكي مبارك يكرر عليك واحدة من أعظم قناعاته التي عاش لها ومن أجلها (لأني أؤمن أن سـقوط التلميذ هو أيضاً سقوط للأستاذ)، ولن تتخيّل هذا المعنى حتى ترى في المقابل من يعمل في حقل التعليم بمجرد أنه قدم درسـاً معرفياً مجرداً يحاكم الطلاب عليه ويرسـب عنده عشـرات، ويرى ذلك نوعاً من الأمانة العلمية، وفاته أن يسـأل نفسه: ما دورك أنت؟ وهـل ما قدمته يكفـي لإقناع تلك الأجيـال بحمله؟ وأين

صناعة الدهشة في تلك المقررات؟ وهل المراد تلك المعارف أو ما يترتب عليها من آثار؟ وهل تعاملت مع أولئك الطلاب كلٌّ على حسب قدراته وطاقاته وإمكاناته، أم أنك افترضت أنهم كلهم على نسق واحد وبذات الطاقات والقدرات؟

❖ هل يقاس دورك كمعلم بعدد الناجحين في النماذج التطبيقية لمادتك؟ أو بالذين حفظوا تلك الأسطر من المقرر عن ظهر قلب ثم ألقوا بها في ورقة الإجابات؟ ما علاقتك كمعلم بذلك الطالب الذي جلس بين يديك؟ كم هو أثر قدوتك وتسامحك وجمالك وأدبك في صناعة واقعه في مستقبل الأيام؟ كم هو أثر تلك النقاشات التي دارت بينك وبينهم في تكوين أفكارهم وبناء قناعاتهم؟ وهل كانت تلك المادة مجرد وسيلة لتلك المعاني الكبار التي دارت رحاها في تلك المساحات؟

❖ هل نتائج دورك تقاس بإعادة تلك المعارف التي قلتها وهي مبسوطة في المقررات؟ أو بالآثار التطبيقية والعملية التي كونتها تلك المعارف؟ كم من أولئك الطلاب خرج من تلك القاعة مأسوراً لأدبك وأناقتك وحبك لهم وبعْث الحياة في قلوبهم ومشاعرهم؟

"

طُلبت مرة لمواصلة عملي في دار المعلمين، فقلت لمن طلب مني ذلك: لا أكتمك أن عندي مشروعاً أدبياً سيحرمني التشرف بصحبتكم في العام المقبل، وهو طبع كتابي الذي نلت به الدكتوراه في الفلسفة من الجامعة المصرية برتبة الشرف، وطبْعُ هذا الكتاب لا يتيسر في

بغداد لأسباب فنية، وتأجيل طبعه يزعجني لأني أراه أعظم عمل قمت به في حياتي، وأحب أن يرى النور قبل أن أموت. وإنما اقتصرت على هذا السبب في تخلفي عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية لأنه سببٌ علميٌّ تقدره أنت ويقدره العراق الذي يعرف قيمة الحرص على آثار العقول.

❝

❖ لا شيء يعدل الشغف بمشروعك الشخصي وفكرتك وقضيتك في الحياة، وحين تبذل في سبيلها كل شيء يمكن لها أن تبقى ذكرى صالحة للأجيال، وكل مشروع لا يستولي على فكرك ومشاعرك ويأخذ وقتك، لا يصنع لك شيء. لقد اعتبر زكي مبارك التضحية برحلة ابتعاثه كاملة بكل ما فيها من فصول العناء، بعض عربون الولاء لمشروعه وفكرته التي عاش لها وبذل لها زمناً من عمره، وكان يشعر تجاهه بالخوف والوجل الذي لا يستحق معه التأخير ولو بعض الزمن، وبدون هذا المعنى لا بقاء للمشاريع والأفكار والرؤى الكبرى في تاريخ إنسان.

❖ حدثني عن أحلامك، وأخبرني عن مشروعك، وقل لي ما فكرتك؟ واسرد عليّ فصول أحلامك التي تعيش من أجلها، فلكم طال شوقي لمثل هذه الأخبار.

❞

قال وهو يودع العراق: أما تلاميذي فليس بيني وبينهم ما يوجب العتاب على الرحيل، فقد قدمت إليهم جميع ما أملك من المعارف الأدبية والعلمية والفلسفية، وسيصيرون بإذن الله تعالى من أشرف

خُدّام العراق، وإن كان فيهم من يعتب أو يلوم لأني أثقلت كاهله بالواجبات فسيعرف بعد حين أن الرجل لا يذوق معنى السعادة إلا بإقذاء العينين تحت ضوء المصباح.

❖ كل ما تقوله يظل قاصراً عن إقناع العالمين من حولك ما لم تترك براهين وشـــواهد على تلك الآثار التي خَلّفتها بعـــد رحيلك، إن صناعة الرجال من أعظم وأجل ما تترك في واقع ما، وإذا كان ذلك على شـــرف العلم والفكر فذلك شأن الجادين المخلصين.

❖ ثمة أناس يأتون إلى وظيفة أو ساحة درس أو جامعة أو مدرسة، أو حتى حلقة من الحلقات فيصنعون مشاهد من الجمال والجلال، ويتركون في نفوس الباقيـــن بعدهم ذكريات أجـــلّ من أن تُنســـى، وآخرون يأتون ويخرجون كما قدموا أول مرة لا فرق.

❖ يعلمك زكي مبـــارك في هذا النص أن العبـــرة بالنهايات، وأن كل جهد لا يترك نتيجة ضخمة في النهاية ويضع لك شـــاهداً تراه بعد رحيله ويحاكمك عليه، فلا قيمة له مهما كانت أيامه ولياليه، وهكذا النجباء! فرق كبير وضخم بين معلم ومعلـــم، كما هو الفرق بيـــن أب وأب، وأم وأم، وزوج وزوج! وبين هؤلاء من الفروق ما لا يمكـــن أن يقف عليه إلا من رأى بعينيه تلك المعاني التي بسطها كل واحد من هؤلاء في المساحة التي عاش فيها، وما يصنع الإنسان إذا لم تكن له مثل تلك الذكريات؟!

❖ جهدك وتعبك وعناؤك وســـهرك وســـفرك في ســـبيل بناء فكرك وعقلك من أعظم ما تصنع بـــه واقع الأحلام لمســـتقبلك، وأعظم صور

الجهاد تلك التي تبذلها في بناء نفسك وتأهيل ذاتك، وقد قال لك زكي مبارك: (إن الرجل لا يذوق معنى السعادة إلا بإقذاء العينين تحت ضوء المصباح)، وهي من أثمن ما يقال لك في هذا الطريق الطويل. ومن طلب الراحة فاتته الراحة، ولا سبيل لك إلى تلك المعاني الكبار إلا من خلال إقذاء العينين تحت ضوء المصباح!

سمعت أن رسول الله ﷺ قال: «منْهومانِ لا يَشْبعانِ: طالبُ عالمٍ وطالبُ مال»، وأنا منهوم في طلب العلم بصورة فظيعة، وعقلي هو معدة تأكل الحديد.

❖ من عرف الحقائق دفع من أجلها كل شيء! وصدق رسول الله ﷺ، ومن جرَّب عرف، ومن ذاق استلذ، وقد قال ﷺ في شأن صاحب المال: «**لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ مِنْ ذهبٍ لابتغى ثالثاً، ولا يملأُ فاهَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّراب**»، وكلما زاد ماله زاد في المقابل شحّه وبخله، وصار أحرص على الدنيا من ذي قبل، وطالب العلم كذلك، وتفاوت ما بين المنزلتين في الآثار كما بين السماء والأرض، وكم هي آثار العلم على صاحبه! وكم هي مباهجه في النهايات! وهو مع ذلك بحاجة إلى صدق نية وحسن إقبال على الله تعالى وقيام بحقوقه، حتى لا تجري عليه ذات الصور التي تجري على صاحب المال.

❖ يخبرك زكي مبارك: أنه منهوم في طلب العلم بصورة فظيعة وعقله معدة تأكل الحديد، فما خبر نهمتك؟ وهل عقلك معدة تلتهم الأفكار

والمفاهيــم الضخمة مــن خلال أوراق تلــك الكتب؟ مــا همومك التي تصحبك في هذا الطريق؟ وكم تبذل من أجل هــذه المعاني الكبار؟ وإذا حدثك الرجال، فكن كما قال الأول: وكن رجلاً إن أتوا بعده.. يقولون مرَّ وهذا الأثر! وما بينك وبين العز إلا صبر أيام!.

تكلم عن القاهرة فقال: في القاهرة أقطاب الملحدين وأقطاب المؤمنين، وفي القاهرة خلفاء الحسن البصري وخلفاء إبليس، في القاهرة أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، والموعودون بالنعيم والموعودون بالجحيم، في القاهرة منازل لا يدخلها الفأر بسبب النعمة، وفيها منازل لا يدخلها الفأر بسبب الجوع، وفي القاهرة ناس يموتون من الظمأ وناس يموتون من الشراب، في القاهرة خدود تجرحها خطرات النسيم، وفيها وجوه تعجز عن لفحها النيران.

❖ يحدثك زكي مبارك عن حقيقة في القاهــرة، وهي حقيقة في كل مكان، كل الأمكنة فيها أهل الخير وأهل الشــر، المحســنون والمسيئون، أصحاب النجدة لكل مكلوم، وأصحاب الفرجة على جراح الثكلى، ولولا هذا التضاد لما جرت الحياة بين العالمين، ولما خلقت الجنة والنار، ولما جرى النعيم والعذاب، ولما كان السؤال والحساب.

❖ سعة النظر من كمال عقلك، وضيق العطن وقصر النظر من أسوأ ما يواجهك، وكل مساحة ســتجد فيها كل تلك المشاهد فخُذْ منها ما يُجْري لك الحياة، ودعك من كل عارض لا يمنحك الجمال.

حياتي الحقيقية هي اللحظات التي أخلو فيها إلى قلمي وإلى كتابي وما عدا ذلك فهو عمر ضائع في الهواء.

❖ وهي يا زكي أعياد عند من ذاق لذائذهـا وجرب أحداثها، وعاش ليلها ونهارها، وسـلك طرقها، وذاق تلك المتع فـي ربوعها. يا لجمال الحياة بين قلم وكتاب، وفكرة ورأي، وقضية ومشروع! وما تصنع إذا لم تكن على علاقة بالعلم؟!

❖ من رزقه الله تعالى إقبالاً على القراءة فقد رزقه الله تعالى كل شيء، فلله كم من ليلة فتحت عينك على فكرة! وصنعت لك رأياً، وكونت لك مواقف تستحق الحياة!

❖ العمر الضائع منك هو ذلك الذي يمضي في غير طريق، ويسـلك بك إلى غير غاية، وتتقضى سني عمرك وأنت لا تملك من هذا المعنى ما يبعث فيك الجمال ويجعلك مورداً عذباً في ربوعها.

❖ فرق كبير جداً بين القارئ وغير القارئ، كالفرق بين النهار والليل، والسـماء والأرض، والحياة والموت والعلم والجهل، ولا سبيل لك إلى تصوّر ذلك الفرق إلا حين ترى البون الشاسـع بين هـؤلاء وأولئك في الأفكار والمفاهيم والتصورات.

❖ تخيّل الفرق بين اثنين في عمل واحد، الأول يقرأ بنهمٍ في الأفكار والمفاهيم التي تعينه على فهم وفقه وظيفته، ويأتي كل يوم وفي فكره ألف معنًى في تلك المساحات، والآخر الذي لا يعرف كتاباً فضلاً عن أن يقرأ

في شيء من صفحاته! تخيّل أسرة قارئة وتستمد من القراءة كل المفاهيم التربوية التي تعينها على سقاء تلك الأجيال، وأسرة في المقابل لا علاقة لها بشيء من ذلك! ولو أنك وسّعت هذه المقارنات فسترى بوناً لا سبيل إليه بحال من الأحوال.

"يجب أن تقرأ كل ما يصل إلى يديك، ففي كل كتاب فكرة تنفعك لو تنبهت. والكتاب كالصديق لا تعرفه من أول مرة، وإنما تعرفه وتصل إلى أسراره بعد تجارب طوال."

❖ ينبغي أن تكون نهماً في القراءة، وتَوسُّع هذه القراءات سيوسع ثقافتك ويبني تصوراتك، ولكن ليس على سبيل الوجوب، وليس بالضرورة كل ما يصل إلى يديك، فكم من واصل قد يكون سبب انحرافك! صحيح أنَّ في كل كتاب فكرة تنفعك مهما كان في ذلك الكتاب من غثاء، ولكن فرق بين قارئ وقارئ، قارئ يقال له: اقرأ كل ما يصل إلى يديك، وقارئ يقال له: لا تقرأ كل ما يصل إلى يديك فالشُّبه خطّافة، وكم من كتاب ألقى بك إلى الضياع!

❖ في البدايات ينبغي أن تكون قراءاتك محدودة وبتوصية من ثقات وأمناء، حتى لا تقع في بحر الشتات من جهة، وفي ظلام الشبهات فتغرق ثم لا تجد مخرجاً في النهايات من جهة أخرى، ثم بعد أن تمتن في هذا الطريق فلك أن تتوسع بقدر فهمك ووعيك، وليس على سبيل الانفتاح في كل شيء.

❖ في البدايات يجب أن تقرأ دينك ومنهجك وتؤصل نفسك في هذا الطريق، حتى إذا ما تكوّنت القاعدة الصلبة التي تستطيع أن تحاكم عليها ما يرد إليك من أفكار، أمكنك بعد ذلك التوسع بحسب تلك القدرة التي تحاكم عليها كل جديد، وإياك في البداية من القراءة للنكرات!

أتحدث كثيراً عن مكتبتي في مقالاتي بجريدة البلاغ، وليس الغرض هو الزهو بمكتبة فيها نحر عشرين ألفاً من المجلدات، وإنما الغرض أن أخلق عند قرّائي ذوق المكتبة، وهو أشرف الأغراض.

❖ وهذه نوايا صادقة عند كثيرين لا يعرفها الآخرون، والصورة أبلغ من الكلمة، والتجربة أقصر الطرق إلى النجاح، وما تراه بعينك واقعاً أعظم ألف مرة من مثال يقال وقد جرى عليه الزمان بالبلى! ونقل ما لديك إذا حسنت فيه النية وأُرِيد به تقصير الطريق وبلوغ الناس لأحلامهم من خلاله، من أعظم الأعمال، وأثرها أبلغ وأمكن في نفوس الآخرين.

❖ من هذا الباب وفي ذات الطريق نقْلُ تجاربك الشخصية سواء في كتب السيرة أو عبر وسائل التواصل الاجتماعي، أو من خلال أي وسيلة متاحة في ذلك الزمان، نقلها يحتاج إلى نية صالحة تقرّب بها مسافات الطريق على الآخرين وتسلم بها من ذهاب أعمالك في الرياء، وبين الأمرين شعرة، وأنت أوعى بما تصنع في النهايات.

❖ ومن ذلك ما تنقله عن تنقلاتك ورحلاتك إن أردت بها توسيع تلك الأفكار وتكثير تلك المفاهيم وبسطها في واقع الناس، فذلك شأن

الصالحين الصادقين، فغالبْ نيتك، وتبرَّأْ من حولِك وقوتك، وأقبل على ربك، واصدق في دعائك، وسَلْه أن يُجْري بها ما تنوي وتسلم أعمالك من الشتات.

❖ لا ينبغي لنا أن نحكم على الآخرين من خلال ما نراه من تلك النقول، فالله تعالى أعلم بالنيات، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وكم من صدقة كان إظهارها على الملأ دعوة لقيام مشاريع عمر! وكم من صمت قتل كثيراً من تلك المعاني الكبار في حياة الناس! وفي الوحي: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى**».

لم أندم على مصاحبة الصدق الذي كدَّر حياتي، فالنفع الذي يصل عن طريق الكذب نفعٌ سخيف.

❖ صدق رحمه الله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال ﷺ: «**ولا يزالُ الرَّجلُ يصدقُ ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتبَ عندَ الله صدِّيقاً**»، وهو منجاة، وقد تنزلت توبة الله تعالى على كعب بن مالك بأفراح الدارين حين صدق في توضيح سبب تخلفه عن المضي مع رسول الله ﷺ، وقال كلمته المشهورة: (إني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين حتى كانت تلك الغزوة)! وما خاب من تلبس به، وعاقبته إلى خير وإن طال طريقه.

❖ الكذب مع ما فيه من تضليل للحقائق وتزوير لها لا يليق بإنسان، قال ﷺ: «**ولا يزالُ الرَّجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكـذبَ حتَّى يُكتبَ عندَ الله كذَّاباً**»، وهو من صفات المنافقين، قال ﷺ حين ذكر تلك الصفات: «**وإذا حدَّثَ كذبَ**»، وأياً كان نفعه الظاهر فعواقبه وخيمة، وصاحبه معدود فيمن لا يوثق بهم في شـيء، ومـن زوَّر الحقائق حقيق ألا يكون له شـأن في شيء.

> لو بقيت مدرساً بالجامعة المصرية كما كنت أو مفتشاً بوزارة المعارف كما كنت لضاعت هذه الثروة الأدبية.

❖ ما أكثر الذكـرى بهذا المعنـى الكبير لكل صاحب مشـروع في الحياة! وهي والله من أعظـم الوصايا لصاحب المشـروع، ومتى عارض مشـروعك وفكرتك أي عارض فلا سـبيل إليها أو إلى كمالها مهما بلغ حرصك وحدبك عليها. المشـاريع تحتاج تفرغاً وإقبـالاً وبذلاً للأوقات والأعمال والأعمار والجهود في سبيلها، ولا سبيل لقيامها ونهضتها بغير تلك المعاني الكبار، فليكن ذلك منك على بال!





عمر فرّوخ

رسالة

لـو لم يكن فـي فصـول هذه السـيرة إلا تلـك القيـم التـي تكسَّـرت عليهـا نصـال الشـهوات، وتلك العـزة بالمنهـج والوحي، والاعتـزاز بمـا لـدى الإنسـان مـن طاقـات وقـدرات وإمكانـات وإبـاء وشـمم لكانـت كافية عن كل شيء، فدونك الحياة.

إن عمل المعلم لا يقتصر على إلقاء الدروس في الصف، بل يجب عليه أن يكون أباً للتلاميذ، وعليه أن يكتشف مواهبهم ويُعدّهم بعد التأمل في هذه المواهب لحياتهم المقبلة.

❖ وجود قدر معين من هذا الشـعور لدى كل معلم وهو يتعامل مع طلابه كافٍ فـي البدايات لبنـاء علاقة متينـة بين الطلاب والمدرسـة، والطلاب والمعلم، والطلاب مع من حولهم في جنبات المدرسة.

❖ فرق كبير جداً بين معلم يأتي للمدرسـة مثقلاً بهمومها ومفصولاً عن أحداثها، ولا يُشكّل له وجود الطلاب سوى مجموعات يريد أن يوصل إليهم تلك المعارف المكلف بها من قبل الجهات المسـؤولة، ولا شيء سوى ذلك، وبين معلم يأتي إلى المدرسـة وكأنه يأتي لبيته، ويبدأ درسه وكأنما يبدأ مع أسـرته، ويتعامل مع كل واحد من هؤلاء على أنه فرد من أسرة ولبنة من بناء، وروح تجري في شغاف القلب قبل كل شيء.

❖ حين يتحوّل المعلم إلى أب سـيظل مشـغولاً قبل أن يبدأ درسه بمشاعرهم وقلوبهم وحضورهم وغيابهم، وهل معهم من المال ما يكفي ذلك اليوم، أم يحتاج بعضهم إلى شيء من العون، وسيأتي درسه بعد ذلك مشحوناً بالحياة في شـكله وصورته وحرفه ومعناه، وسيتسلل إلى قلوب أولئك الطلاب ويبني فيهم كل شيء.

❖ كان أحد المعلمين الكبار وهو يدرّس في مجموعة قرى قريبة من بعض يقول: هذا الذي لا يعرف كيف ينظّف مخاطه من الطلاب، والآخر

الذي لا يستطيع أن يقفل أزرار ثوبه، والثالث الذي يأتي بثوبه متسخاً كل يوم، والرابع الذي يقف في جنبات المقصف المدرسي لا يجد ما يشتري به فسحته، هم الذين سيأتون بعد زمن طويل خُطّاباً لبنتك، وعرساناً لمستقبلها الكبير، وضياع تأهليهم ضياع لبيتك قبل كل شيء. فكيف لو امتد ذلك الشعور وأدرك المعلم أن التقصير مع كل فرد من هؤلاء ضياع لمقدرات مجتمعات ووطن كبير وأمة تنتظر هذه الفصول بشوق؟!

❖ ماذا لو أن المعلم حين يتهيأ لإعداد درسه في كل ليلة استحضر في ذات الوقت حنان الأبوة ومشاعر التربية والإصلاح، ورافقته في كل درس من تلك الدروس، وبقي يبحث وهو يعد درسه عن قصة قصيرة في البر بالوالدين، ومقطع في تعظيم الله تعالى، ورسالة قصيرة في تقديس الصلاة ورعاية حرمات الله تعالى، بدل تلك الأسطر التي يقام ويقعد لها كل مساء لا من أجل شيء، وإنما من أجل الفكاك من مسؤولية تستقبله في ذات اليوم فحسب؟!

❖ يجب أن يدرك المعلم أن الأسر التي حوله أنفقت كل ما تملك على أولادها لتلقي بهم بين يديه، وأنه هو المسؤول الأول عن بنائهم وإعادة تشكيل تصوراتهم وإثراء فكرهم وتمتين قيمهم ومبادئهم، وكل من بين يديه على حد سواء بحاجة إلى قلبه ومشاعره وروحه، قبل حاجتهم إلى تفاصيل درسه وشرحه.



الفقر الحقيقي إنما هو في عقول الناس لا في جيوبهم.

❖ صدق ﷺ في أن الفقر الحقيقي فقر العقول، والغنى الحقيقي غنى الأفكار والمفاهيم! قد لا تملك مالاً ولكنك بالفكر الذي تملك تستطيع أن تكون أغنى العالمين، وقد تملك أموال الدنيا ولا تتحرك قيد شبر.

❖ لا أعلم وسيلة تبني فكرك وتوسع عقلك كالقراءة، والكتاب الجيد يثري فكرك بالجديد، ويفتح عينك على آفاق الحياة الواسعة، ويصنع لك تصورات ضخمة ومؤثرة عن نفسك وعن الآخرين من حولك. وما حاجتك إلى شيء كحاجتك إلى استثمار بعض وقتك في القراءة الجادة النافعة، وسترى الحقائق رأي عين.

❖ لن تستطيع أن تكون زوجاً مدهشاً وأباً رائعاً وقائداً مُلهماً وأنت لا تقرأ، مهما كانت تلك القدرات التي كنت تحملها، القراءة فقط هي التي تصنع منك رجلاً بألف، ومن لا يملك المعرفة لا يملك شيئاً يستحق الإعجاب!

❖ يحاول عمر فروخ في هذا المعنى أن يُشكّل لك تصوراً جديداً غائباً عن كثيرين وهو: أن الفقر والغنى ليس بالنظر إلى ما في جيبك أو حسابك البنكي، بل فيما تملك من أفكار ومفاهيم ورؤى صالحة لإدارة شأنك وبناء مستقبلك في الدارين.

❖ إن الذي يملك فكرة يملك كل شيء، والذي يملك أموال الدنيا إذا لم يجد أفكاراً تسعفه لتنمية ذلك المال فسيعيش حارساً على بوابته ما بقي به العمر، ويموت في النهاية وهو لم يستمتع به في شيء.

❖ إذا أردت أن تعـرف غنى مجتمعـك من فقره فـلا تنظر إلى كم رصيده من الأموال، بل انظر إلى كم رصيده من الناهضين من الرجال، ولا نهضة لإنسان من دون علاقة متينة بالكتاب.

إن الجاهل هو الذي لا يريد أن يتعلم، والمريض هو الذي لا يطلب الشفاء، والفقير هو الذي وهبه الله تعالى عقلاً ثم هو لا يستخدم العقل الذي وهبه الله تعالى. إن ابن خلدون لا ينكر أن الفرد بعد الفرد يمكن أن يقع في حين بعد حين على ركيزة (كنز في باطن الأرض)، ولكن لا يجوز لكل إنسان أن ينام في الشمس طول حياته وهو يحلم أنه سيقع على كنز كبير. ولا نكران أيضاً في أن في باطن الأرض كنوزاً كثيرة، ولكن يجب على الإنسان في سبيل الحصول على هذه الكنوز أن يحفر في الأرض حتى يصل إليها.

❖ إذا كان الجاهل لا يريد أن يتعلم ويظن أنه ليس في حاجة للتعليم، وأن ما معه يُمكّنه من الحياة على أكمل وجوهها وأبهج معانيها، والمريض على رغم كل ما يعانيه من آلام ومشكلات يُصرُّ على أنه ليس مريضاً ولا يعاني من شـيء فلا سـبيل إلى عافيته، ولو أنَّ الفقير فكـر كل يوم أين سيقعد من حافة الطريق ليسأل الناس ـ أعطوه أو منعوه ـ فلا سبيل له إلى غناه. وحين يكون الأمر كذلك فلا سـبيل لك أن تُقنـع الجاهل بجهله، والمريض بمرضه والفقير بفقره، وستتعدد صور الجهل، وتتراكم أعراض

المرض، ويمتد الفقر في الأجيال القادمة ما دامت هذه الصور تأخذ حظها من البقاء.

❖ لا يمكن لحرٍّ أن يرضى بالجهل ولو كلفه ذلك عمره كله، وقد خرج جابر بن عبد الله في طلب حديث واحد لعبد الله بن أنيس في الشام، ثم سمعه وقفل راجعاً، وقال موسى لفتاه ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾ [الكهف: ٦٠]، وظل ابن عباس (ابن عم رسول الله ﷺ) يأتي إلى بيت العالم فينام على درج البيت ويُسفى الغبار في وجهه حتى يقوم العالِم ويفتح له الباب ويرويه من مباهج العلم.

❖ إذا ابتلي المريض بعارض للصحة طلب الدواء، وفي الحديث قال ﷺ: «**عبادَ الله تداووا**»، وقال ﷺ: «**ما أنزلَ الله مِنْ داءٍ إلّا أنزلَ لَهُ دواءً عَرفَهُ مَنْ عَرفَهُ، وجَهلَهُ مَنْ جَهلَهُ**»، وقال ﷺ: «**الشِّفاءُ في ثلاث**»، ومن فقهك وكمال عقلك إذا ابتليت بشيء من عوارض الصحة فاطلب الدواء واحرص عليه، ولا تبقَ مستسلماً للأمراض.

❖ لا شيء يدافع الفقر مثل السعي في الأرض كما قال تعالى: ﴿ فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]، والخطوة التي تمشيها في علاج فقرك تفتح لك طريقاً آخر، وهكذا حتى تصبح غنياً مع الأيام، وكل غاية ينبغي أن تسير في ذات الطريق وإلا كانت في النهاية لا شيء.

❖ لا ترضَ بالفقر وظنَّ بربك خيراً، واقبل على استثمار مهاراتك وطاقاتك وإمكاناتك، ولا تتوقف عن العمل والجد والبذل في سبيل تلك الأماني التي ترومها مع الأيام، فكم من فقيرٍ أصبح غنياً، وعاديٍّ أصبح مشهوراً، ويائسٍ قانطٍ عاد مورقاً بالجمال!

إن الشهادة لا فائدة منها في نفسها، وإنما هي مفتاح يفتح لك باب الحياة.

❖ من أعظم المفاهيم التي تقودك لبناء مستقبلك: أن هذه الشهادات التي تبذل فيها عمرك إنما هي مفاتيح، وكل شهادة لا تملكك هذه المعاني الكبار فلا قيمة لها في شـيء. وما تصنع بورقة لا تضيف جديداً لعقلك وفكرك، ولا تخلق فألاً وأملاً في قلبك ومشاعرك، ولا تجعلك قادراً على صناعة واقعك وإضافة حية في مساحتك؟!

❖ لن تعرف قدر هذا المعنى (أن الشهادة لا أثر لها في نفسها) حتى ترى حاملاً لشهادة شرعية يخطئ في تلاوته لكتاب الله تعالى، أو لا يحسن عبادة من العبادات، أو حامل شهادة العربية ولا يكاد يحسن جملة واحدة ويلحن في حديثه الواحد ألف مرة، وكثيرون لا يفهمون من تلك الشهادات إلا أنها ملّكتهم موقع التأثير ولا علاقة لهم بها في شيء، وكان يمكن أن تكون كل شيء.

❖ الشهادة التي لا تمكّن صاحبها من إثراء واقعه ومد مساحته بالعمل والبناء، ولا تمنحه الحركة الفاعلة، ولا تثـري مجاله وتخصصه بالجديد هي مجرد ورقة لا قيمة لها في شيء، ومن حق تلك السنين الطويلة التي قضاهـا صاحب هذه الشـهادة على كراسـي العلم أن تصنع قـادراً على النهوض بمجتمعه ووطنه وأمته، وما عدا ذلك فلا شيء يستحق الأفراح.

"في السنة الأولى التي دخلت القسم الثانوي كنت في الخامسة عشرة وكانت الجامعة لاتزال تدرّس التوراة، فاجتمعنا وقلنا للمدير: نحن لا ندرس التوراة، فأقرّت الجامعة تدريس الأخلاق مكان التوراة، ولكن قررت علينا كتاباً كله قصص مأخوذة من التوراة، فدخل المعلم وأغلقنا كتبنا ثم استدعاني المدير وأمر بحجزي، فتعلمت بعد ذلك أن أتوسل إلى غاياتي باللين، لأن العنف يولد المقاومة، والمقاومة المتبادلة مضيعة للوقت وللجهد والغايات."

❖ صانع المواقف ولو كان صغيراً يخبرك عن موهبة قادمة تحتاج إلى عناية النابهين، وإذا رأيت ابنك في البيت، أو طالبك في المدرسة، أو تلميذك في محضن تربوي يصنع تلك المواقف فضعه في قائمة اهتمامك، فغداً ترى منه كل شيء. عمر فروخ كان مبدعاً وهو طالب على كرسي الدراسة، وأعلن مواقفه وهو في باكر عمره، وكذلك المبدعون في كل زمان وحين.

❖ لقد أغار عمر فروخ على تلك الفكرة التي مرَّ عليها أجيال ولم يتحدثوا عنها، فضلاً عن الإغارة على وجودها، وصنع فيها موقفاً وأجرى عليها تغييراً، وحاول أن يناهض واقعه من خلال ما يملك من رصيد القيم والعلم والأخلاق. وحين حاولت الجامعة صناعة تغيير صوري سَرّب للطلاب أن يتخذوا موقفاً آخر ويمتنعوا عن التفاعل مع تلك المادة، وقلّ أن تجد صانعاً لهذه المواقف في صغره إلا وتنتظره أيام كبار.

❖ لقد ترك مدير تلك الجامعة كل الطلاب وأقبل على استدعاء عمر فروخ لإدراكه أنه سـر العملية التي جرت فصولها مجتمعة في النهايات، وأنه هو صانع حكاياتها بدءاً من بناء الفكرة إلى نهايات المشهد. ومثلك أعرف أن كل نشـاط في مكان ما خلفـه صُناع لحقائقه وبناة لمشـاهده ومنظمون لكل صوره التي تجـري فصولها في النهايـات، وقلّ أن تجد جاهلاً أو فارغاً أو هامشـاً يتحرك في واقع ما، أو يصنـع فألاً جميلاً في زمان أو مكان.

❖ من مشكلاتنا الأزلية أننا لا نقبل الصوت الآخر مطلقاً، ونراه عدونا الأول والأخير، ونظـل مصرين على كبته ومقاومته بـكل ما نملك حتى نئده، وفي الحقيقة، نكون قد وأدنا فصولاً من الجمال والإبداع والدهشة كانت ستجري في تلك المسـاحات لو أفصح عن وجه مخالفته وقورنت بالحقائق.

❖ إنك لن تستطيع أن تكتشف قدرتك العلمية ما لم يناقشك الآخرون في ذلك المعنى، ولن تعرف واقعك حتى تسـتمع لآراء من حولك، ولن تقع عينـك على الجـراح الحقيقي مـا لم تسـتمع طويلاً لـكل الآراء والأصوات التي تشاركك العمل والهمّ. وقد جربت العلم زمناً من عمري فكانت القراءة تشكل لي شيئاً مهماً وتمنحني حقائق لا تقبل النقاش، حتى إذا ما كنت أدير نقاشـاً مع طالب علم أو ألقيت درساً على مجموعة من الطـلاب، وإذا بي أرى كم هي الفُرَجُ والمسـاحات المفتوحة والأسـئلة المُغْلِقَة التي تحتاج إلى إعادة تأهيل لنفسـك فيها حتـى تأتي منها على أمانيك.

❖ إذا أردت لفكرتك أن تصلب فاعرضها علــى عقول الرجال، وإذا عزمت على أن تطبق نظاماً فشاور من يفتح لك فيه ألف باب قبل التطبيق، وتذكر في كل مرة أن القمع والكبت لا يصنعان لك إلا فرجاً تتسع كل يوم حتى لا تبقي لك شيئاً قائماً مع الأيام.

التربية والتعليم ليس الحضور إلى مباني المدارس، ولا الجلوس بين يدي الأساتذة، ولكنها أن يحتك التلاميذ بالأساتذة، وأن يُعنى الأساتذة بالتلاميذ كما لو كانوا يعتنون بأولادهم.

❖ القدوة تصنع ألف معنى في حياة أولئك الطلاب، وقد قال الأول: اتقِ الله فــإن أعين طلابك معقــودة عليك في كل شـــيء، وما يجري من انتظامك في مواعيدك، وحرصك على تنظيم غرفتك ومكتبك وسيارتك، وما تتحدث به وتؤمن به، يصنــع في نفوس أبنائك وطلابك ما لا تصوله مئات الكتب بكل ما فيها.

❖ كم من معلــم يتحدث عن الصلاة ويُنظِّر لها ويحشــد الأدلة على أهميتها، ثم عندما يأتي زمن الصــلاة يكون ضمن زمر المتخلفين، وذلك على مشهد من أولئك الطلاب، فيأتي إليهم بعدها ليحدثهم حديثاً ميِّتاً لا علاقة له بالحياة في شـــيء! وكم من طبيب يصف للناس دواء الأمراض ويحضهم على شربه ويؤكد لهم في كل مرة أن الوقاية خير من العلاج، ثم يقع أسيراً لسيجارة أوقات الراحة وخارج أسوار المبنى! وكم من أب يؤكد

على القيم والمثل واحترام الآخرين، وجملة من العمال يترددون على بابه يطلبون حقهم ويقابلهم بأسوأ العبارات وأقبح الألفاظ!

❖ يذكرك عمر فروخ بأن ما تملكه من الخبرات والقدرات والطاقات يسري إلى طلابك من خلال الاحتكاك بهم في الفصول والممرات وغرف المعلمين والمواقف الشخصية، وعلاج بعض المشكلات أعود على طالبك من تلك المعلومات ألف مرة. باختصار: حين يتحول المعلم إلى مربٍّ واعٍ بمسؤوليته يمكن للتعليم أن يتخذ مساراً جديداً لصناعة الرجال.

في طبعي أمران لا أعرف كيف جاءا إليّ وأنا أحمد الله على وجودهما فيّ: الوضوح في العمل، والثبات في المسير.

❖ لله ما أدهش هذين المعنيين في سير إنسان، أن يكون واضحاً شفافاً، وجاداً ثابتاً في المسير! وما أسوأ في المقابل عدم الوضوح وعدم الثبات! أمر النبي ﷺ ذات مرة بقتل أربعة، وقال لو وجدتموهم مُعلّقين بأستار الكعبة فاقتلوهم، فلاذَ أحدهم بالمسجد، وبينما النبي ﷺ جالس مدَّ يده ليبايعه، فقال عثمان رضي الله عنه: يا رسول الله، هذا عبد الله بن أبي السرح يبايعك، فلم يمد له يده، ثم مدها ثانية وأعاد عثمان ذات الكلام فلم يمد يده، ثم أعادها المرة الثالثة فبايعه ﷺ، ثم قال ﷺ: «**أما فيكم رجلٌ قامَ إلى هذا فضَربَ عنقَهُ قبلَ أنْ أبايعه؟**»، فقالوا يا رسول الله: ألا



أومأت لنا؟ (أي إشـــارة بعينك) فقال ﷺ: «**ما كانَ لنبيٍّ أنْ تكونَ لهُ خائنةُ الأعين**»! والتذبذب وعدم الثبات من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

❖ ثمة أناس منذ عرفتهم وهم على جادة الطريق ثباتاً ووضوحاً، وإذا وجد في نفسه عليك شـــيئاً صارحك في أقرب لقاء وبث إليك نجواه ولا يتوســـط عليك بآخرين، يلقي إليك بالحقائق ويخبرك بما في نفسه ويبين لك عن كل شـــيء، وأناس تظل قلوبهـــم ملأى ما بقي بهـــم العمر، ولا يستوقفك يوماً أو يناقشك في شيء.

البيت هو المدرسـة الأولى، والأم هي الأسـتاذ الأول فـي حياة كل طفل، ثم الأعمـام والعمـات والأخوال والخـالات والأجـداد والجدات والجيـران والـزوار والرفـاق والأصدقـاء، كل هـؤلاء يُؤلفون المدرسـة الكبـرى في حيـاة كل طفـل، وهم أشـد تأثيراً فـي حياته من الأسـاتذة الذين يجلس أمامهم طوعاً أو كرهاً على مقاعد غرف المدرسة.

❖ لا يختلـــف اثنان على أن الأســـرة هي المحضـــن الأول في تربية وتأهيل الطفل وبناء منظومته الفكرية، وما أكثر براهين هذا الشأن! ويبقى السؤال الكبير: أين تلك الأسر؟ ما موقعها اليوم من هذا المعنى الكبير؟ ما دورها في تربية وتأهيل تلك الأجيال؟

❖ التقنية أعظم خطر تواجهه الأسرة على مر الزمن، ولن تدرك ذلك حتى ترى أجيالاً تتلقى من خلال وسائل التواصل الاجتماعي تربيةً مركزةً على الشهوات والشبهات وفي قوالب من الدهشـــة، ترى ذلك في صورة ألعاب ومشاهد تمثيلية وإغراءات جنسية تجعل الطفل كالمسمار أمام تلك المشاهد وتملي عليه ما تشاء، ولو أنك تســـللت يوماً إلى طفلك الصغير وهو يشاهد ذلك الجوال وشـــاركته النظر من دون أن يراك، لبقيت مريضاً زمناً من عمرك على ما يتلقاه من أفكار ومفاهيم وتصورات وهو في باكر عمره وأول زمانه، والله المستعان!

❖ تخيّل أن ولدك يُتم مشاهدة مسلســـل كوميدي بكل فصوله على لَمْز وهَمْـــز قيم ومُثُـــل دينك، ويكبر ولـــدك وتكبر معه تلـــك الأفكار والمفاهيم حتى تتجذّر مع الزمن وتصبح جزءاً من منظومته الفكرية يوماً من الزمان!

❖ ماذا لو قيل لك أن طفلك يشاهد كل يوم وبصور مختلفة ومشاهد متنوعة وإثـــارة فاعلة عورةَ الرجل والمرأة المغلظـــة، وعبر صورة مختلفة ومتنوعة، فضلاً عـــن أنه يأخذ كل يوم قدراً مـــن التفكير في البرامج التي تأتي على شكل مسابقات وقاتل ومقتول وفوز وخسارة، ومن فصول تلك المشاهد والمسابقات أنه لا يمكن أن يتجاوز مرحلةً إلا على سبِّ ربّه أو دينه أو لعن نبيه أو الاستهزاء بكتابه! وأنا أدعوك أن تشارك ولدك الصغير تلك المشاهدات وهو لا يراك وسترى الحقائق رأي عين، والله المسؤول أن يحمينا جميعاً ويقينا عواقب الســـوء، ولعل عمر فروخ يذكرك بأن الأسرة وكل من يتعلق بها من الأقارب والجيران والأصدقاء هم يشكلون منظومة القيم لأبنائك مع طول الزمان.



❖ تذكر وأنت تقرأ هذا الفصل قول ربك تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وقول رسولك ﷺ: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عَنْ رَعيَّته**»، وقوله ﷺ: «**ما مِنْ عبدٍ يسترْعيهِ اللهُ رعيَّةً يموتُ يومَ يموتُ وهوَ غاشٌّ لرعيَّته، إلَّا حرَّم اللهُ عليهِ الجنَّةَ وأدخلَهُ النَّار**»، ثم رتِّبْ لهذه النصوص عملاً يقيك من آثارها بين يدي الله تعالى.

لقد كان من حسن حظي أن نشأت في بيت فيه علم وفيه مكتبة، وتعلمت من جدي لأبي الصلاة وقراءة القرآن والسباحة وشراء أغراض البيت من السوق.

❖ إذا قرأت ما سبق عن مسؤولية الأسرة فانظر إلى أثرها الكبير التي خَلَّفته في حياة عمر فروخ، وانظر إلى ما تصنع بيوت العلم والمعرفة في حياة الأجيال، يحدثك عمر فروخ ويذكرك بأنــه عاش في بيت علم وفيه مكتبة، وتَعلَّم من أســرته الصلاة وقراءة القرآن فصنعت منه تلك الأســرة رجلاً وهو في قابل عمره وباكر الزمان.

❖ تحتاج الأســرة حتى تقوم بتلك المســؤولية الكبرى إلى عدد من المقومات، منها العناية بإصلاح ما بينها وبين الله تعالى ولو لم يكن في هذا المعنى إلا قول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ٨٢] لكان كافياً عن ألــف درس. وقــال تعالــى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، وهذا وعدٌ من الله تعالى لا يتخلف، حتى

قال مَنْ قال مِنَ السلف: إني أطيل صلاتي من أجل صلاح ولدي. وكثرة الدعاء بصلاح الذرية في الليل والنهار، وما أحسن ذلك الدعاء: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤]! وتحرّي أوقات الإجابة سواء في الثلث الأخير من الليل أو السجود أو ساعة الجمعة والإلحاح في ذلك، ثم العناية بالقدوة الصالحة وتقديس فرائض الله تعالى وتعظيمها في نفوس الناشئة: كأداء الصلاة في الجماعة ومشاركة الأبناء من سن مبكرة، ثم التركيز على بناء القيم الكبرى من خلال الدروس القصيرة والقصص المناسبة، وتأهيلهم من خلال تعويدهم على العمل والمشاركة في تحمل أعباء البيت، حتى تُروى تلك النفوس بالعمل والبناء والاستقلالية.

لم تكن والدتي تخط أو تقرأ الخط، ولم يكن أن أتعلم منها شيئاً من شؤون الثقافة غير أنها كانت ربة بيت من جميع النواحي، وقد كانت تمثل الجِد في التحصيل والحكمة في الإنفاق، وعلمتنا الخدمة في البيت، كنا نعجن، وعلمتنا المساعدة في شؤون البيت من الطبخ والغسل والمسح، وانتقل ذلك كله إلى أولادنا.

❖ الأم كل شيء في البيت، وهي صاحبة الراية في هذا الشأن بلا منازع، وإذا رزقك الله تعالى بزوج مؤهلة بالعلم ومؤمنة بدورها ومقدّسة لواجباتها في تلك المساحات، فارتقب بواعث الأمل من خلال النماذج القادمة عما قريب.

❖ القدوة الحسنة من أعظم أدوار الأم المربية، وتأهيل أبنائها من خلال ذلك المعنى الكبير، إن أداء المرأة لواجباتها وقيامها بشؤون بيتها يُقدِّم رسالة ضخمة لكل فرد في الأسرة خاصة البنات، فإذا ما نجحت الأم في توزيعِ مهام البيت وتعليم البنات على وجه الخصوص الطبخَ والنظافةَ ونحو ذلك مما هو من شؤونهن في مستقبل الأيام، وتكريسِ مفاهيم المسؤولية لدى جميع الأبناء، بدءاً من مسؤولية كل فرد عن ثيابه وغرفته ومصروفه الأسبوعي وانتهاء بتحمل المسؤوليات خارج البيت، فقد صنعت أحلاماً ستجري عليها في مستقبل الأيام بالخيرات.

> تعلمت من عمي رحمه الله قاعدة: الاقتصاد الصحيح أن تنفق في ما تحتاج إليه كل مبلغ مهما كان كبيراً، وإياك أن تشتري شيئاً لا تحتاج إليه مهما كان ثمنه متدنياً. وكان يقول لي: لا تعمل في الغُربة عملاً لم تعمل مثله وأنت في بيروت.

❖ المال عصب الحياة، وإذا تأملت الوحي كتاباً وسنة سترى عناية كبيرة بهذا المعنى وتأكيداً على جملة من القواعد في هذا الباب، بما يدلك على عظمته وأهميته، قال تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال ﷺ: «لنْ تزولَ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عَنْ أَربع... عن مالهِ منْ أينَ اكتسبَهُ وفيما أنفقه».

❖ لو لم يكن في المال إلا أنه يعفيك عن سؤال الناس ويجعل يدك عليا، وقد قال ﷺ: «**اليدُ العُليا خيرٌ مِنَ اليدِ السُّفلى**»، ويعينك على توسيع أثرك في الدارين لكان كافياً، ونعم المال الصالح في يد الرجل الصالح!

❖ من أعظم ما يعين في هذا الباب ثلاثة جوانب مهمة: القراءة في مثل هذه المعاني، وحضور الدورات أو سماعها، واستشارة أصحاب التجارب الحية، وهذه الثلاث مفضية بك بإذن الله تعالى إلى بلوغ أمانيك في هذا الشأن بالذات. ويكفيك منها القليل، فكن مرتباً وخذ من الحياة ما يجعلك غنياً عن الآخرين.

❖ أعظم ثلاث قواعد في البناء المالي: تأجيل الرغبات، والادخار، والاستثمار.

❖ القاعدة الأولى: (تأجيل الرغبات)، لا تعجل في كل حاجة تريدها أو تُطلب منك، تريَّث قليلاً، وجدول تلك الرغبة في الأشهر القادمة، وضعها في وقتها المناسب، وكوّن لها خطة متدرجة، وليس بالضرورة أن تأتي مرة واحدة، واقتطع لها من راتبك ودخلك على شهرين أو ثلاثة أو أقل وأكثر، حتى لا تأتي في غير موعدها فتُربِكَ سيرك في هذا الطريق الطويل.

❖ القاعدة الثانية: (الادخار)، ينبغي لك أن تستقطع من كل ما يصل إليك في نهاية كل شهر ولو كان قليلاً، والقاعدة النبوية: «**أدوَمه وإنْ قلّ**»، ثم تودعه في حساب لا سبيل لك إلى الوصول إليه إلا عند الضرورات. لو أن كل موظف استقبل هذا المعنى في أول شهر لبنى له تركة ضخمة في نهاية تقاعده ولتحوّل إلى غني مع الأيام.



❖ القاعدة الثالثة: (الاستثمار)، فالمال الذي تَدَّخره ينبغي أن يكون منه ما لا تحركه إلا في الضرورات، ومنه ما يجري في الاستثمار حتى يكوّن لك جوانب مالية ضخمة مع الأيام.

الأساس الأول في التربية إنما هو القدوة الحسنة، وكل ما يفعله الأب في ستر سيعرفه طفله يوماً ما.

❖ لو لم يكن من الأسرة إلا التركيز على هذا المعنى الكبير لكان درساً مؤثراً على مرور الأيام، وكم من قدوة تركت في نفوس الأبناء دروساً صالحة للزمان ومؤثرة على مر الأجيال! كن صادقاً، وأميناً، وعادلاً، ومحافظاً على صلاتك في وقتها، وأجِلَّ أوامر ربك، وملتزماً بمواعيدك، ومقدّساً لحقوق الآخرين، وسترى فصول هذه المعاني مع الأيام كاملة مستوفية في حياة أبنائك.

❖ لن تستطيع أن تربي ولدك على العدل، وما يجري منك في بيتك خلاف ذلك، ولا سبيل إلى تعظيم ولدك للصلاة وأنت تؤديها في البيت، ولا قيمة لكل دروسك عن الوقت وأنت تتخلّف في تلك المواعيد في كل مرة وحين، وما بك حاجة إلى شيء حاجتك إلى هذا المعنى الكبير.

❖ لِيرَك ولدك تقوم للصلاة عند الأذان، ودعْهُ يملأ عينه من مواقفك في البر مع والديك، وأخلاقك الفاضلة مع زوجك، وليشبع ألف مرة وهو يراك في كل مرة تصل رحمك بالزيارة والسؤال والمال؛ وستجري حينئذ من مشاهد هذا المعنى فوق تصورك ولو طال الزمان.

إن نفراً من الآباء يفسدون أبناءهم. والأب الذي يفسد أبناءه هو الأب الذي يحملهم على كتفه ليخفف عنهم ـ ظنه ـ مشاق الحياة فيظلون طول حياتهم عاجزين.

❖ ثمة أسر تخلق أبناء عجزة عن مواصلة الطريق الطويل، وهي تلك الأسر التي تُدثّر أبناءها بلُحُفهم عند الأذان خوفاً عليهم من البرد، ولا توقظهم إلا على السُّفَر المفروشة للأكل، وتُقرِّب الماء الذي يغسلون به أيديهم، وهي التي تتولى غسيل ثيابهم وترتيب غرفهم وتنظيم حاجياتهم وتصنع لهم كل شيء؛ فتنشأ تلك الأجيال عاجزة عن كل شيء، وتبقى عالة على الآخرين ما بقي الزمان.

❖ إفساد الأبناء يأتي في مرات من الدفاع عنهم في كل مشكلة تواجههم، والقيام معهم في كل صعوبة تقف في طريقهم؛ فتنشأ أجيال رخوة تستلسم من أول الطريق ولا تؤمن بالمحاولات الجادة في أثنائه، ولا ترى إلا الحلول الجذرية لكل شيء، وأول ما يصيبها شيء تهرع إلى أبويها تطلب منهما النجدة وتستغيث بهما عند أول طارق من طوارق الزمان.

❖ يجب أن تشعر الأسر بدورها، وتبعث في نفوس أبنائها الثقة وتفتح لهم أبواب الحوار، وتدلف إليهم بالأفكار الجادة وتوزع عليهم المسؤوليات، كلٌّ فيما يخصه ويناسبه وأقرب ما يكون إليه، وعليها في المقابل أن تتركهم يواجهون المشكلات التي تقع عليهم ويحاولون حلها، ويجربون كيف ينجحون ويخفقون في تلك الحلول حتى تقوى على تلك الأحوال مع الأيام.

العرب اليوم والطلاب خاصة فريسة نفر بارعين يحسنون سك الألفاظ والجمل ويستطيعون نشرها بسرعة، والكلام في الشروط التعجيزية زيٌّ شائع اليوم، وما أكثر ما يقولون (هذا شرط تعجيزي)!

❖ لا سبيل لمواجهة مشكلات الزمان إلا من خلال تربية قائمة على تمتين الأبنـاء أمام الأفكار الوافـدة من خلال منهج الوحـي، إن أبناءنا يحتاجون إلى بـث روح الفأل والأمل والقدرة على تحويل المشـكلات التي تواجههم إلى فرص للاسـتثمار، وتدريبهم علـى رد كل فكرة تأتي إليهم إلى الوحي لتحكيمها والخروج منها برأي من خلال ذلك، وسيظل الزمان مشحوناً بالجديد، ولن تستطيع الأسرة أن تأتي بحلول آنية لذلك الجديد في حينه، ولكن إذا ربَّتهم على الوحـي ودرَّبتهم على رد كل ما يأتيهم إليه اسـتطاعت أن تُنشـئ فيهم القدرة على مواجهة تلك السيول الهادرة من الأفكار والمفاهيم والتصـورات المغلوطة في كل حادثة من حوادث الزمان.

❖ غير ممكن، وصعب، ومسـتحيل، ولا سـبيل لك، وهذا شـرط تعجيزي، كل تلك المعانـي يراد بها في مرات كثيـرة الفكاك من العمل والتخلي عن تبعاته وإيجاد أعذار تمكِّن الإنسان من الخروج أمام الناس، وتتيح لهم فرصة ترك تلك المسـؤوليات، وإلا فالأصل لا مسـتحيل ولا صعب، ويمكـن من خلال العمـل والتركيز أن نجـاوز كل تلك الأعذار ونبني فألاً صالحاً لأنفسنا في كل مسـاحة، حتى لو وضع أصحابها يوماً شروطاً يصلح أن يقال عنها تعجيزية وغير ممكنة.

ذهبت إلى ألمانيا وعمري (٢٨) عاماً وقد جاوزت مرحلة العاطفة، تلك المرحلة التي يمر بها نفر كثيرون مراً بطيئاً، ولا أذكر أن هذه العاطفة عرقلت اتجاهي السليم في الحياة، وسبب ذلك: تربيتي البيتية التي كانت قائمة على الدين والعقل، وابتدائي بالعمل وتحصيل المال باكراً، وهذه الجوانب أخذت مكان تلك الأمور الجانبية التي يهتم بها المراهقون. وذهبت إلى أوربة لطلب العلم بمال أنا جمعته، فكان عليّ أن أحسب وأنا في الغربة حساب كل دينار وكل درهم أنفقته.

❖ تظل التربية الأسرية المبنية على الوحي والقيم الكبرى سِتراً واقياً من كل انحراف، وجبلاً متيناً أمام كل الشهوات التي تواجه الأبناء، ولو أن كل أسرة ركّزت على تلك الأجيال من خلال قدر من التربية والتأهيل في سن مبكرة، وحمت الأطفال من آثار هذه التقنية والوسائل الحديثة وحالت بينهم وبينها في سن مبكرة، لصنعت جيلاً يملأ الدنيا بالحياة.

❖ يؤكد لك عمر فرّوخ ولأكثر من مرة أن تلك التربية الدينية التي تلقاها، وتلك المسؤوليات التي حملها مبكراً من خلال تلك الأسرة كانت أرضاً صُلبة لصناعة واقع شاب ترك وطنه وأسرته وذهب إلى البيئات المفتوحة وهو في سن الشباب، واستطاعت تلك المعاني بعد فضل الله تعالى عليه أن تعينه على الثبات وإتمام مشواره العلمي دون خلل.

❖ عناية الأسرة بإشراك الأبناء في حمل المسؤوليات تؤهلهم للتعرف على معرفة الزمان بكل ظروفه وملابساته، وتصقلهم المشكلات وتخرج جيلاً عملياً تعلم من خلالها النجاح والفشل والإخفاق، وانشغل في ذات الوقت عن كثير من الشهوات بالأعمال الجادة.

❖ عاش ابني معاذ ابن الست السنوات في باكر عمره يداوم من الصباح إلى الظهر في مدرسته، وينطلق الثانية ظهراً لحلقة تحفيظ كتاب الله تعالى إلى قُرب المغرب، ويعود بعد المغرب إلى درس القراءة والكتابة، وكان يشتكي وأمه تشاركه تلك الشكوى وأصمُّ أذني عن كل ما يقولون، لأنني أعلم كم هي عوائد العمل على تربيته وتأهيله من جهة! وكم هو إسهام استثمار الوقت في صرفه عن وسائل التواصل الاجتماعي من جهة أخرى! والهداية في النهاية بيد الله تعالى، وحسبك بذل الأسباب الممكنة فحسب.

❖ لقد بات أبناؤنا اليوم يعيشون خطراً كبيراً من خلال هذه التقنية وهم بين أسرهم لما يرون من خلالها من تحلل وفوضى، فكيف بابتعاث شاب إلى بلاد الغربة؟! وهذه النقلة الكبيرة مرة واحدة بدون تدرج مؤذنة بفساد أخلاقه ومساره العلمي إلا أن يشاء الله تعالى، ومن فقه الأسرة ووعيها أن تحرص ألا يذهب إلى هناك إلا متزوجاً ويكون قد تلقى بناءً روحياً وفكرياً يُمكّنه من العيش في تلك الأحوال المفتوحة ليعود منها سالماً في دينه ودنياه.



كانت صاحبة البيت في ليبزغ تعلم علم اليقين أنه لايزورني في غرفتي فتيات.

❖ لو لم يكن في سيرة هذا الكبير إلا هذا المعنى لكان كافياً عن كل حرف فيها! شاب، وفي مقتبل العمر، وفي زهر الشباب والشهوات تعصف في الشوارع العامة ولا رقيب أو حسـيب أو حتى متابع، وكان من حوله يعلم أن هذه الغرفة التي يسكنها شاب في باكر عمره لا تستقبل الفوضى، ولا تسـتجيب للنزوات العارضة مهما كانت دواعيها الكبرى، وقراءة هذا السـطر من هذه السـيرة يجعلك تقف على قدميك وتكبِّـر إجلالاً لهذا المعنى واحتفاءً بهذه القيم الكبرى وتقديسـاً للمـروءات! وما عدا ذلك فسطور لا علاقة لها بالحياة في شيء.

في يوم من الأيام قال لنا روست (أستاذ العهد القديم) غداً مساء سنتناول طعام العشاء في بيتي، ثم التفت إليّ وقال: أريد أن ألقاك بعد الدرس، وبعد الدرس قال لي: أنا دعوتكم كلكم دعوة عامة ولكني أريد أن أقول لك: كن واثقاً أنه لن يكون على المائدة خمر ولا خنزير ولا شيء يدخل إعداده من ذلك.

❖ وهذه اللفتة كافية لك أن تقوم من مقعدك مرة أخرى وثالثة ورابعة وعاشـرة تكبر إعجاباً وإدهاشاً. الأسـاتذة والعمالقة هناك يدركون عمق

القيم والمبادئ والمثل التي يتحلى بها مسـلم في باكر عمره وفي أرض الغربة، ويعدونه وعداً صادقاً أنه لن يكون فيها شيء يخالف القيم الكبرى لدينه ومنهجه! وا شـوقاه يا عمر لأمثالك في أجيال الأمة الحاضرة! فيا رب هيِّئ زماناً تجري فيه هذه المشـاهد في نفـوس أجيال الأمة في كل وقت وحين!

الطالب الجامعي هناك يقضي معظم أوقاته في المكتبة العامة، وفي برلين تفتح المكتبة أبوابها من الساعة التاسعة صباحاً إلى التاسعة مساءً، وكثيراً ما كنا في أيام العمل أو العطل أو الأيام التي لا دروس فيها نقضي اثنتي عشرة ساعة في المكتبة.

❖ هكذا تفوق الغرب، وكوّن نفسـه، وبنى حضارته، وأصبح حاضراً ومؤثِّراً في شـؤون العالمين، لقد تعب الغرب علـى تكوين هذه الصورة مبكراً من خلال الأسـرة والحياة العامة ونظام الدراسة، حتى كوَّن أجيالاً متعطشة للعلم وعارفة بقدره ومؤمنة بالتفاصيل الدقيقة في ذلك؛ فتكونت تلك المعاني الكبار في النهايات.

❖ طالـب جامعي في بلاد الغـرب يقضي معظم أوقاتـه في رحاب المكتبات العامة، وطلاب العرب والمسلمين يقضون معظم أوقاتهم على فُتات الحياة! مكتبات مفتوحة اثنتي عشرة ساعة في كل يوم ويزدحم فيها طلاب المعرفة وتمتلئ بالباحثين، في مقابل ازدحام مماثل ولكن على غير تلك الغايات الكبار!

❖ من خلال هذا المعنى تفهم الفارق الكبير بين: المذكرة والكتاب، والملزمة والمجلد، وصور المكتبات بكل ما فيها من جلال، وصورة المذكرات على قارعة الطرق أو في زوايا البيوت أو تحت أسرَّة النوم في سكن الطلاب، وتدرك البعد الكبير ما بين الصورتين، ويطول زمان الانتظار وتطول في ذات الوقت حسراتك وآلامك، ولعل زماناً يحين بالأفراح!

> منذ بضعة أيام كنت في مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت، فاتفق أن جلس على الطاولة التي كنت أشتغل عليها طالب ثم فتح جريدة وبدأ يتطلع فيها، ودفعني الفضول إلى أن أعرف ما يقرأ، فإذا به مجتهد في قراءة صفحة الإعلانات، لقد تغيّر الزمن كما يقولون، لا، إن الزمن لا يتغيّر: لقد فسدوا وما فسد الزمان.

❖ هذه صورة مختصرة لجزء من زمانك ونافذة على واقعك وحالك حين ترى الإنسان الذي تنتظره لصناعة مجده مكباً زماناً من وقته وعمره على إعلان، وعلى صور ومشاهد الدعابة والنكات في وسائل التواصل الاجتماعي، ويصرف من وقته عدداً من الساعات كل يوم على فوضى وأوهام، ويبدد كل ما يملك من طاقات وقدرات وإمكانات في الضياع.



في ألمانيا توضع الرسائل في متناول الأساتذة والباحثين، فإن ظهر فيها ضعف ما ـ وقلَّ ما يحدث ذلك ـ أُلغيت الرسالة جملةً.

❖ إذا وجـدت القناعة بالكتاب وأثـره في تكوين المشـاهد العامة والخاصة وجدت كل شيء في ذلك المكان، وتشكلت صور المجتمعات الحضارية في تلك المسـاحات. ومن حق الأمم التي قدست هذا المعنى الكبير أن تكوّن حضارتها الكبرى كيف تشاء.

❖ قارن بين هذه الصورة التي يُلقى فيها بالرسالة العلمية بين الأساتذة والباحثين فيتناولونها بالقراءة النقدية من دون تكليف لهم بقراءتها، وإنما شـجون العلم هي التي تدفعهم لذلك المعنى الكبير، وبين واقعك الذي تُكلف لجنة بمناقشة الرسالة ثم تتفاجأ بعد مرور أشهر وفي قاعة المناقشة أن أولئك الذين هم رأس الهرم في هذه المعاني لم يقرؤوا الرسالة بعد، أو لم يقرؤوا فصولاً كثيرةً منهـا، ثم يريدون أن يناقشـوا طالباً لتمكينه من شهادة علمية!

كنت مرة في بيت أستاذي فقرأت عليه فصلاً من رسالتي فمر في أثناء الكلام ذكر محمد رسول الله، فقال: يا عمر أنت تكتب رسالة علمية وتقول: محمد رسول الله؟! فطويت الأوراق التي كانت بين يدي ونهضت قائماً فقال لي: لم فعلت ذلك؟ فقلت له: لأنني أريد أن أرجع

إلى بيروت، فقال مستغرباً: لماذا؟ فقلت له: لا أريد أن أدرس على أستاذ يضيق صدره إذا قلت: محمد رسول الله! وكان كاثلوكياً يعتقد أن المسيح هو الله، فقال لي: اقعد واكتب ما بدا لك.

❖ العزة بالمنهج من أعظم مباهج الإنســان! وهذا المشــهد من عمر فروخ يحتاج احتفاء خاصاً! طالبٌ، وفي أرض الغربة، وأمام عمالقة الفكر الغربي، وفي بداية مشواره العلمي ويقدم دروساً للعالم هناك بكل مَنْ فيه أن ما معه من المنهج أعز من كل شيء.

❖ ما أحوج كل مبتعث في دول العالم إلى موقف عمر فروخ في العزة بمنهجه والقيام حميــة لدينه وعقيدته، ودفاعاً عن رســوله ﷺ، ولئن جئنا لنأخذ بعض العلم التجريبي ومناهج البحث ممن له فيه شــأن، فلنأتِ في الوقت ذاته بمنهجنا الإسلامي بكل ما فيه من أفراح ومباهج للعالم أجمع.

❖ عمر فروخ يقف أمام معلمــه ويجمع أوراقه ويقــرر أنه عائد إلى بيروت، ولا بقــاء له في أرض يقال له فيها أن ذكرك لرســولك عيبٌ ولا يليق بالرســائل العلمية، ولا يقعد من مقامه أو ينثني عن قراره إلا بتنازل صاحب الرأي عــن قراره، وما حاجــة الأمة إلى شــيء حاجتها إلى هذا المعنى الذي يجب أن يملأ قلوبهم في كل حين.

❖ يجب أن يعرف العالم كله أننا على الحق وهم على الباطل، ونحن في الطريق وقد ضلوا عنه، ونحن على الجــادة الصواب وهم في مفترق الطــرق وفي عمــق الظلام، ولا ســبيل لفلاح فــرد في الدنيــا كلها إلا بالاعتراف بهذا المنهج إيماناً وعملاً وســلوكاً، ومــا بقي يكفي فيه ذلك

الوصف الإلهـــي: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ومهما بلغت تلك الحضارة فهي لا تعدو ذلك الوصف المبين: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

❖ كم هي حاجة الشـــباب على وجه الخصوص لقراءة هذا الموقف الذي يدونه عمر فروخ في مذكراته في زمـــانٍ يتردد أحدهم أن يقبِلَ على دينه ومنهجه، أو يتمسك بهدي رسوله ﷺ ويبلغ بذلك أعظم الحقائق على الإطلاق!

❖ إلى أولئك الذين تركوا الاستقامة بعد أن قطعوا فيها زماناً طويلاً، وتخلوا عن مباهجها وقد عاشـــوا فـــي أفراحها مدًى بعيـــداً: أما لكم في موقف عمر فروخ من حياة؟! أما لكم في هذا المشـــهد من مواقف؟! فرد في الغرب يضحي بكل شـــيء من أجل دينه ومنهجه ورسالته، وجماعات في مواطن العز يتخلون تباعاً عن دينهم ويضلون عن الطرق من جديد!

"

في الامتحان أتى دوري للدخول إلى غرفة الأستاذ هرّيكل عميد دائرة الفلسفة، وسألني سؤالاً واحداً: رأي أرسطو في الله؟ فأجبت بما أعرفه، فأثار نقطة تخالفني، فرددت عليها وطالت المناقشة ساعة كاملة وأنا مصرٌّ على رأيي، ثم خرجت فتلقاني الطلاب المنتظرون لأدوارهم، فقصصت عليهم القصة فأخبروني أن له كتاباً يرى فيه ما يخالف الرأي الذي دافعت عنه، ورأيت في أعينهم أن نجاحي في مادة الفلسفة مستحيل، وفي المساء أخبرني أستاذي يوسف: أن هرّيكل طلب أن تكون شهادتك من الدرجة الأولى.

"

❖ تقرأ في هذا الموقف التكوينَ العلمي لصاحب هذه السيرة، ولا سبيل إلى مقارعة الكبار والمتخصصين إلا بالعلم والمعرفة، وما عدا ذلك ففوضى لا علاقة لها بمتين العلم في شيء.

❖ القراءة، القراءة يا شباب! ويا كبار ويا صغار، ويا رجال ويا نساء! هي فقط تجعلكم مدهشين مبدعين ملهمين، وتمكنكم من العز والإباء، وتصنع منكم كباراً في مواجهة الأحداث. ولن تشرق شمس الربيع في حياتكم وتبقوا صامدين أمام عواصف الفوضى من الشبهات والشهوات إلا بهذا المعنى الكبير، وأول كلمة في كتاب الله تعالى ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق: ١]، ويكفي ذلك عن قيل كثير!

❖ شاب وفي مقتبل عمره ويقف مصراً على رأيه الذي بناه من خلال زمن طويل في تكوينه العلمي، ولا يستطيع أستاذ في جامعة غربية أن يثنيه عنه البتة، ويخرج من القاعة وهو على ذات رأيه وفكرته، ويقول للأجيال: ليس من حق إنسان مهما كان مقامه العلمي أن يستلب منك إيمانك بما وصلت إليه من العلم والمعرفة، ولو كان ذلك الموقف يكلفك كل شيء. فأين هذا من زمان القراءات العشوائية والفوضوية التي لا تملكُك شيئاً، فضلاً عن أن تناطح كبار العلماء والمتخصصين؟!

❖ وهذا الموقف في المقابل يعلمك صفاء بعض النفوس ولو كانت على الكفر، ووفاء تلك الشخصيات عندما تقف في وجهها بالعلم، ويجعلك تتحرى العدل في الحكم على أي إنسان بغض النظر عن توجهاته وانتمائه، لقد عارضه في عقر داره، وفي رأيه الذي يؤمن به وألف فيه كتاباً، ومع ذلك يمنحه نجاحاً وبالدرجة الأولى! وقد قال الله

تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨].

حينما كنت في ألمانيا أتابع دراستي سئلت مرات: أأنت أمير عربي؟ فقلت: لم تسألون عن ذلك؟ فقال: نراك تنفق عن سعة، فأخرجت جواز سفري وأريتهم أن مصرف الدولة يسمح لي كل شهر بمئتي مارك.. كنت أنفق على كل ما أحتاج إليه، وفي المناسبات كنت أنفق كل ما يجب عليّ بلا تأفف، ولعل الذي جعل نفراً من الناس يظنون بي ذلك الظن أن بعضاً كان يرد إليه من بلده ألف مارك في الشهر، بالإضافة إلى حقه مئتي مارك بالسعر المخفض، ثم تجده يشكو العسر ويبخل في عدد من المناسبات. فقال لي سائل: كيف تنفق أنت من مئتي مارك هذا الإنفاق الكريم، وفلان لا يستطيع من ألف إلا إنفاقاً عسيراً؟ فقلت له: يا صاحبي ليس الأمر سراً، أنا أعيش هنا وحدي وهو هنا يعيش مثنى وثلاث ورباع.

❖ الجود من علامات الكبار! وإذا رأيت من يملك مالاً ولا يتهيأ لهذه المعاني الكبار فاغسل يدك منه مرتين. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن الشجاعة والجود من أعظم صفات الكبار والمؤثرين، وما عدا ذلك فكمال على أصل، وقد كان النبي ﷺ يعطي غنماً بين جبلين، وأعطى في مرة مقبلاً على الإسلام مئةً من الإبل، حتى قال أحدهم: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر!

❖ ألمح عمر فروخ إلى ضياع الأموال من أيدي أهلها في غير الطريق الذي أراد الله تعالى: (أنا أعيش هنا وحـــدي وهو هنا يعيش مثنى وثلاث ورباع)!.

في صبيحة اليوم الذي ودعت فيه باريس طال وقوفي مع (وليم مرسيه) فطال وقوفي معه يوم ودعته، وفجأة التفت إليّ وقال: يا عمر لماذا ترجع إلى ألمانية؟ ابقَ عندنا فتتعلم مجاناً، نعطيك منحة، ثم إذا أنت رجعت إلى بيروت وجدت منصباً ينتظرك، لقد لسعتني كلماته كأنها عقارب سوداء، ونسيت وقار العلم والأدب وأدب الحديث، وقلت له: أنا في باريس منذ أربعين يوماً، ولو كنت أعلم أن في فرنسه علماً يحجزني أكثر من أربعين يوماً لبقيت من تلقاء نفسي.

❖ صورة ناصعة للجمال لدى هؤلاء! على رغم كل المشاكسات التي صنعها عمر فروخ في الغرب، إلا أنه يقف أمام مشهد من مشاهد العلم فحسب، فيطول الوقوف معه عند الوداع ويقترح عليه البقاء ويتكفل له بالتعليم مجاناً، ويعرض له واقع الغد الغريب بين يديه، وصدق الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

❖ ما زالت نفس هذا الأبيّ ترفــض كل الصور التي تُعرض عليه في ديار الغرب ولا يعرف الاستثناء في شـــيء، ويكرر حتى في عروض الود مواقف الإباء، ويأبى إلا ما يجري في فكره تلك اللحظة فحســب (أنا في باريس منذ أربعين يوماً، ولو كنت أعلم أن في فرنسه علماً يحجزني أكثر

من أربعين يوماً لبقيت من تلقاء نفسي). وأصحاب الهمم يبعثون الحريات في نفوس العطشى.

هناك تعريف واحد للعظمة يجب أن يقر به جميع الناس: الرجل العظيم هو الذي يترك بعده أثراً نافعاً.

❖ واحد من تعريفات العظمة عند عمر فروخ! وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قد يكون هذه الأثر ابناً من خلال تربية أسرية واعية، أو طالباً في رحاب مدرسة، أو نجيباً في جنبات محضن من محاضن العلم والتربية، وقد يكون تراثاً علمياً من خلال كتاب، أو مدرسةً ومعهداً، أو مشروعاً أسقى به العالمين زمناً في حياته وبقي إرثاً تجري عليه بركاته بعد موته، أو فكرةً صنع بها مشاريع في جنبات الأرض وأحيا بها أمماً، وما تصنع بحياة لا تنفع فيها الآخرين، ولا تمد بها في دين الله تعالى، ولا تكتب بها حكايات تمد في عمرك وتصنع بها تحديات واقعك الكبير؟!

أفضل الفواكه عندي البرتقال لأنه لا يختمر في المعدة، وهو عندي فاكهة مفضلة في الحضر والسفر، وربما أكلته ثلاث مرات في النهار بعد وجبات الطعام الثلاث، خرجت في ١٩٣٦/٤/٢٠ أريد أن أشتري شيئاً من البرتقال فلم أجد في السوق حبة فسألت البائع عن ذلك، فقال: اليوم مولد هتلر، تقام الاحتفالات به في جميع أنحاء



ألمانية، والبرتقال تشربه الدولة لأن هتلر لا يشرب الخمر، ولا يقدم الخمر في مثل هذه المناسبة.

❖ ليس بالضرورة أن يكــون كل العالم من حولك ليس فيه بذرة من خير! وحتى لو اســتجمع فلان من الناس كل أحداث السوء مجتمعة فقد تلقى من بين ذلك الركام بعضاً من مشاهد الجمال.

❖ هتلــر على رغم كل مــا صنع من مشــاهد يأبــى أن يدنّس عقله بالخمر، ويرفض أن يكون أسيراً لمشروب يباع في الشارع العام في تلك المســاحات! ويصنع عادة جديدة في واقع ملــيء بالفوضى في مثل هذه المناســبات، وولدك وطالبك وصديقك وكل من حولك على رغم كل ما فيهم ستجد نوافذ تبعث فيك الأمل من جديد.

يستخدم هتلر سيارة مرسيدس ذات رقم عادي كبقية السيارات الأخرى، وكان يطيل خطبته ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً، وكانت هذه الخطب تذاع بالراديو، ولكن كثيرين يفضلون أن يسمعوه مباشرة، كنا نذهب قبل موعد الخطبة بساعة أو أكثر حتى نستطيع أن نجد مكاناً قريباً من الشريط الذي يفصل باحة الخطابة عن موقع النظّارة، وكان يهدر هدراً في خطبته فلا تسمع شيئاً غير صوته، وكنت مرة قريباً جداً من ذلك الشريط وكان بقربي نفر من الأمهات يحملن أطفالهن فلم أسمع طفلاً بكى، ولم أر شخصاً تحرك من مكانه.

❖ القدرة على الخطابـة واحدة من مهارات المؤثريـن، وتمثل هذه المهارة اليوم مرتكزاً كبيراً في الانتخابات الغربية، ونقل عن بعض الرؤساء في تلك الدول أنه قضى زمنـاً قبيل الانتخاب في التنقـل بين المدارس للتدرب على مخاطبة تلك الشـرائح وإقناعهم بما يحمل لهم من أفكار، حتى لا يأتي موعد تلك الانتخابات إلا وهو جاهز لها، ومثلك أوعى بما يُضفي لك من أثر في مستقبل الأيام.

(الصورة والعلم والنشيد) هذه ثلاث شارات رسمية للدولة، لا يجوز لأحد أن يرفع في متجره صورة هتلر ولا أن يعلق علماً على شرفة داره أو سيارته، ولا يجوز أن يُنشد النشيد الوطني إلا في المناسبات الرسمية التي تتولاها الدولة بنفسها.

❖ كل نظام تراه باسـطاً في مسـاحة ما فهـو أثر لأفـكار ومفاهيم وتصورات صاحب القرار في تلك المسـاحة، وما يتعلق بهذه الشـارات الرسمية من ذلك القبيل فحسب.

ما كان هتلر بحاجة إلى استفتاء، ومع ذلك أحب يوماً أن يكون في ألمانيا استفتاء في رغبة الناس في استمراره في الحكم، أو في طريقة الحكم على الأصح، أذكر أن ذلك الاستفتاء كان وقته من الثامنة صباحاً إلى السادسة بعد الظهر وأعلنت النتائج فكانت (٩٩,٩٩٧).

❖ استفتاءات الجماهير منوطة بقضايا كثيرة ومرتبطة بمفاهيم مختلفة ومتباينة، فهي ليست معياراً منضبطاً في كثير من المرات، وهذه النسبة الكبرى التي خرجت في النتائج العامة من ذلك القبيل، وأذكر أنني كنت في الإشراف التربوي فأردت أن أصنع استفتاءً عن أثر تلك التجربة في الميدان، وماذا نحتاج للتصحيح، وعادت لي تلك الأوراق، وبعد زمن اكتشفت أنني حين طلبت تصوير عدد من النسخ لإرسالها للمعلمين وضعت رقماً خلف تلك الأوراق لبيان عدد النسخ التي يراد تصويرها، وأن بعض المعلمين وجد هذا الرقم خلف ذلك الاستبيان فظن أنه يمكن اكتشاف اسمه ومدرسته من خلال ذلك الرقم، فكتب خلاف ما يقتنع به وخسرنا من خلال ذلك المفهوم صوتاً صادقاً، وما يدريك كم هي الأعداد التي كانت تفكر بذات التفكير!

حين كنت أُدرّس في ألمانية سكنت غرفاً في عدد من البيوت كان فيها وفي جوارها ـ بطبيعة الحال ـ فتيات في مثل سني، ومع ذلك فإنني في كثير من الأحيان لم أتحدث مرة إلى فتاة من هؤلاء الفتيات، ولا أذكر أني ألقيت على واحدة من اللواتي أعنيهن سلاماً، وقد قال شوقي: نظرة فابتسامة فسلام فموعد فلقاء. وما دمت لا أحاول أن أصل إلى اللقاء فما الفائدة من البدء بالسلام والكلام؟!

❖ وقد قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤] فبدأ بالنساء لأنها أعظم تلك الزينة وأشدها

خطراً، وقال ﷺ: «ما تركْتُ بَعدي فتنةً هيَ أضرُّ على الرِّجالِ منَ النِّساء»، وقال ﷺ: «ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلَّا كانَ الشَّــيطانُ ثالثَهما»، ورغم كل هذه المعاني، وفي غمرة شبابه، وفي أرض غربة وبلاد مفتوحة، والتعارف جزء من طبيعــة الحياة الاجتماعيــة، فقد ظل هــذا الفتى عصاميــاً أمام تلك الشهوات ورفض أن يدنِّس نفسه بشيء من وحلها، فلله ما أعظم الرجال!

في ألمانية لا يناقشون الرسالة الجامعية، وذلك لأن الرسالة الجامعية تكتب بإشراف أستاذ، فمناقشتها في الحقيقة مناقشة للأستاذ، غير أنهم يوجبون وضع اثنتي عشرة نسخة في مكتبة الجامعة مدة ستة أشهر، وفي أثنائها لا يجوز لصاحب الرسالة أن يضيف اللقب العلمي إلى اسمه، فكان إذا أتى على هذه الرسالة انتقاداتٌ وجيهةٌ حُجبت الرتبة عن الطالب، وكانوا يطلبون امتحاناً شفوياً غايته معرفة مدى النضج الذي بلغه الطالب في أثناء تلك الدراسة.

❖ يمر الطالب في هذه الرسائل العلمية في الغرب بمراحل تجعل هذا الإجراء جزءاً من منظومة فكرية متســقة في تكوين الطالب الذي يستحق هذا اللقب العلمــي، فهو لا يدرس هناك مواد نظريــة بقدر ما يركز على الجوانب العلمية التطبيقية والبحوث التي تجعل منه قادراً على ممارســة تخصصه، والبحث فيه، والاطــلاع على كل جديد من خلال مجموعة من الأدوات المهارية التي مر بها في تلك المراحل من الطلب، فلا غرابة أن يُركِّز في تقييمها على ما قدمه الطالب من خلال هذه الرسالة، وليس لكمِّ

العلوم والمعارف التي قصها ولصقها وأعادها في صورة رسالة علمية جديدة.

❖ وثمة وعي كبير بدور القراءة في تكوين النهضة العلمية، وتحولت الأسرة إلى دور تربي وتعلم على تكوين هذه العادة في نفوس أبنائها، فنشأت أجيال مرتبطة بالكتاب وتحب العلم، ومفتونة بالقراءة وتتوارد على مكتبات الجامعات وغيرها بصورة كبيرة، وشغوفة بالبحث للدرجة التي تفرح بكل جديد يدخل مكتبة الجامعة وتبعثره من خلال قراءة فاحصة واعية، فتقدم تغذية راجعة للجامعة ولصاحب الرسالة وللمشرف، ولكل من له علاقة بتقويم هذه الرسائل العلمية، ولعل زماناً يحين بهذه المعاني الكبار في مجتمعات الإسلام والمسلمين!

أعرف في زمني أفراداً تزوجوا أجنبيات ثم بنوا بيوتاً سليمة واستطاعوا أن يعيشوا سعداء، وحينما ينتقل الشاب الشرقي من بيئته المغلقة أو شبه المغلقة إلى بيئة مشرعة الأبواب والنوافذ فإنه يتعثر في مشيه كثيراً، وربما زلت قدمه في الحياة الاجتماعية، ومنذ غادرت بيروت إلى أوربة كنت عازماً ألا أتزوج أجنبية، واصطدمت كما اصطدم غيري بأحوال مختلفة لا عداد لها، وسأكتفي بحالتين، الأولى: تعلقت بي فتاةٌ رافقتني في ألمانية خمسة وعشرين شهراً، والرفقة الطويلة تولد شيئاً من المودة والألفة، قالت لي مرة واحدة في أواخر أيامي في ألمانية: لماذا لا تتزوّج؟ فقلت لها: هذا غير ممكن، أنا مسلم وأنت بروتستانتية، فقالت لي: أعتنق الإسلام، فقلت لها: إن الحياة في



الشرق حياة قاسية على فتاة نشأت في أوربا، وما كدت أتم جملتي حتى قالت: سأتحجّب وسألزم البيت فلا أخرج منه إلا برفقتك أو بإذن منك، فقلت لها: أنت تقولين هذا لأنك تودينني، ولأني الآن بقربك، فمن الخير لي ولك أن تفكري في هذا الأمر حينما أرجع إلى بيروت ثم تقلِّبي الأمر على وجوهه وأنت هنا وحدك. والحالة الثانية: حال بنت أستاذي، كان الأمر مغرياً جداً، لقد كانت فائقة الجمال، ثم كانت وحيدةَ أبويها ورثت بيتين ومعملاً للبلاط وثروتين، ثم لم يكن بإمكانها أن تتزوج ألمانياً لأن قانون هتلر كان يمنعها ذلك، فإن أمها مدمنة وكانت في ذلك الحين في المصح، والمخرج الوحيد لها ولأبيها أن تتزوج أجنبياً وتغادر ألمانية، ثم إنها كانت قريبة فإنها كانت مستشرقة مثل أبيها وكان اسمها عائشة؛ إعجاباً من أبيها بعائشة بنت أبي بكر وزوج رسول الله ﷺ، ومع أننا كنا نلتقي كثيراً حين أخرج مع أبيها للنزهة وحينما أذهب معه لقضاء العطل في أماكن مختلفة، فإنني لا أذكر أنني تحدثت معها مرة، ولا أذكر أنني خاطبتها بأمر، مع العلم بأننا نسكن بيتين متجاورين بينهما ممر داخلي بين حديقتي البيتين، وإذا كنت لا تريد أن تصل إلى اللقاء فيجب ألا تبدأ بالنظرة.

❖ تكفي هذه الأسطر عن قيل كثير في هذا المعنى! وليس لهذه الشهوات الفاتنة في زمانك إلا قيم كهذه التي تتفتت عليها تلك الزينة بكل ما فيها من مباهج وكأنها لا شيء. الأولى تدفع كل ما تملك للزواج من عمر، وتتعهد بالإسلام ولبس الحجاب، والالتزام بالقيم الكبرى، ولكن هيهات! والثانية فاتنة في الجمال ومحتاجة للزواج وللخروج من ألمانية، وهيهات كذلك! كان عمر فرّوخ رحمه الله يعرف تماماً الفارق الضخم بين

الأماني والحقائق، وهذا الذي جعله يتخذ هذه القرارات الكبرى على رغم إلحاح الشهوات في حينها، ثمة فوارق كبرى تفوت كثيرين، وهو حساب المسافة بين الحب والأماني التي تأتي أول الطريق وواقع الحياة الزوجية فيما بعد، ولذلك حدد الإسلام الطريق واضحاً في هذا المشروع فقال ﷺ: «**تنكَحُ المرأةُ لأربع، لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها**»، ثم أكَّد على القيمة الكبرى «**فاظفرْ بذاتِ الدِّينِ تربَتْ يَداك**».

❖ كثير من الشباب وفي قابل العمر يغريهم الجمال العارض ويستهويهم الظاهر إلى أقصى مدى، ثم إذا بدأت الحياة العملية بدأت تظهر تلك الفوارق وبدأت المشكلات وحدث الطلاق وانتهى الزواج بالفراق، وفي مرات على خسائر كبيرة كان يمكن ألا تكون.

❖ الزواج مشروع كبير جداً ويحتاج إلى استخارة واستشارة وكثرة دعاء وإلحاح على الله تعالى، وحسن اختيار على العناية بالدين وجعله الرقم الأول في معايير الاختيار، ولا يمنع أن تأخذ تلك المعاني حظها في القرار، ولكن بقدرها الذي لا ينبغي أن تتجاوزه. ولن تعرف هذه الحقائق التي أذكرك بها في هذه الأسطر حتى تطول بك الأيام في هذا المشروع بالذات. وكم من زوج يسجد لله تعالى شكراً على توفيقه في ذلك الاختيار! وكم من زوج يندب حظه ويبكي زمانه على ما جرى له في ذلك المشروع!

❞

حين ذهبت إلى أوربة كنت رجلاً ناضجاً في الثامنة والعشرين من عمري، لا طفلاً شاباً أو شاباً مراهقاً في السابعة عشرة من عمره، من أجل ذلك كانت أوربة إذا اتخذت زينتها أمام عيني لم تكن تصطادني



بأشراكها، كنت مرة أرافق أستاذي في رحلاته فاتفق مرة أن كنا في منطقة جبلية فدخلنا مطعماً لتناول الغداء، فدخلت فتاة جميلة وجميلة جداً، لا أدري ما الذي نبه الناس إلى دخول هذه الفتاة إلا إذا كان للجمال رائحة، فالتوَتِ الأعناقُ نحو مدخل المطعم ثم تعلقت الأبصار بتلك الفتاة حتى اتخذت الفتاة مكاناً يغيب عن أعيننا، بعد قليل جاءت المضيفة التي تتولى الخدمة على مائدتنا فقالت لنا: إن الفتاة التي دخلت إنجليزية ومعها سيارة بمقعدين، وقد قالت لي: سلي هذا الشاب الأسمر إذا كان يريد أن يقضي هذا اليوم بعد الظهر معي؟ فقلت لها بمثل الهدوء الذي أكتب به الآن هذه الأسطر على الآلة الكاتبة: لا أستطيع، ما كادت المضيفة تبتعد قليلاً عن مائدتنا حتى التفت إليّ أستاذي وعلى وجهه علامات الاستغراب والشك والتحدي والغضب وقال لي: أتمنى أن أراك سكران. فقلت له: أستاذي! قل لي أتمنى أن أراك وزيراً للمعارف (وكنت في ذلك الوقت أعتقد أن الوزارة منصب يستحق أن يتمناه الإنسان)، قل لي: أراك عالماً كبيراً، قل لي: أود أن أراك ذا مكانة في قومك. فقال لي: لا، لا، لا بل أريد أن أراك سكران حتى يسقط هذا القناع الذي ما زال على وجهك من عامين، لقد كان التحدي واضحاً وعنيفاً، وكان لابد من الدفاع عن نفسي: إنني لم أكن منافقاً في سلوكي وإلا كان في كلماتي للمضيفة خداع، دار في رأسي ساعتئذ قول عمر بن الفارض: وقالوا شربت الإثم. كلا وإنما.. شربت التي في تركها عنديَ الإثم. ويحسن أن أقول لك: إن نفراً من رفاقي هنا وهناك حاولوا جاهدين أن يعلموني التدخين والشرب واللعب وأشياء أخرى فلم أتعلم مما أرادوا

شيئاً. وبعد نحو عشرة أيام كنت أغادر ألمانية فذهب معي أستاذي إلى محطة السكة الحديدية وتحدثنا، ثم اقترب موعد القطار وصعدنا القطار، ولما صفّر القطار وارتج يريد أن يسير دمعت عينا أستاذي فقلت له: لماذا تبكي؟ أنا ذاهب إلى الشرق أحمل علمك واسمك، فقال لي: إن ما خبرته منك في عامين كنت أقرأ مثله في الكتب فقط.. لم تنتهِ قصتي. كان لي رفاق هنا وهناك خبروا مني ما خبره مني أستاذي، وكانوا يقولون عني أنني غبي، والآن وأنا أنظر عبر الزمن في مدى خمسة وأربعين عاماً أو خمسين عاماً أو تزيد، أرى أنني لم أكن غبياً، وأنهم هم ـ ممن أستطيع الآن أن أراهم وممن لا أستطيع الآن أن أراهم ـ كانوا أغبياء.

❖ يعيد عمر فروخ نضجه العمري سبباً في نجاته من زينة أوربة، وكم هم الغارقون في زينة أوربة وشـهواتها وقد جاوزوا الأربعين! المسألة في أصلها توفيق، وتربية صالحة وقيم كبرى، وإلا تلك الشـهوات في زينتها التي تخرج بها كافية لاغتيال كل القيم التي تعرض لها في الطريق.

❖ إن هذه المواقف التي دوّنها عمر فروخ في سيرته الذاتية عن مواقفه الكبرى مع الشهوات تستحق أن يقام لها حفل زفاف في مثل زمانك! ولو لم يكن في سيرته إلا هذه السبيكة الذهبية لكان حق لها أن تقرأ ألف مرة، وما حاجة الشـباب اليوم وهم يعيشـون معارك الشـهوات والشـبهات كحاجتهم لقراءة هذه المعاني الكبار في سيرة عمر فروخ رحمه الله.

سألني نفر من أصدقائي: لماذا لا تكتب في السياسة؟ فقلت لهم: اثنان لا يتكلمان في السياسة: الذي لا يعرف شيئاً من السياسة، والذي يعرف كل شيء من السياسة، والسياسي الحق يعمل ولا يتكلم، فإذا هو أراد أن يتكلم عمد إلى تدوين عدد من الحقائق في أوراق ثم ترك تلك الأوراق لتنشر بعد وفاته.

❖ وهذا هو الوعي، وكم هي الأوقات التي ذهبت في السياسة ثم هي لا شـــيء في النهايات! ولو أن بعضـــاً من هذه الأوقـــات التي ذهبت في القراءة ورؤية تلك الأحداث وسماعها استثمرت في صالح مشروع لكونت لصاحبها مجداً في الدارين، فكيف بها مجتمعة؟!

❖ تبدأ فصول معركة في مســـاحة ثم تُصرف فيها متين الأوقات، ثم تكتمل فصولها وتنتقل إلى مساحة أخرى ولا تكاد تخرج منها بشيء البتة غير خسائر الأوقات التي لا سبيل لك إلى استرداد شيء منها.

❖ السياســـة لها رجال، كما أن العلم، والفكر، والاجتماع، والتربية، والإعلام لها رجال، ووقتك أعز ما تملك، ومشروعك أحوج ما يكون إلى فتات تلك الأوقات فضلاً عن متينها، ومن فقهك ألا تنشـــغل بشـــيء من تلك العوارض وأن تهب مشروعك وفكرتك وقتك وجهدك وفكرك ومالك وكل شـــيء، وما تراه في واقعك حُمّاله والمتحدثـــون به كثر في زمانك، فخذ منهم ما يكفي لقراءة واقعك ويكفيك.

❖ مؤســـف جداً أن كل فرد اليوم يتكلم في السياسة، ويتخذ مواقف كبرى تجاه الأفراد والمؤسسات والدول والأمم، من خلال مواقف عارضة

وأحداث جارية وفوضى هنا وهناك وقضايا لا يعرف لم قامت فضلاً عن أن يعرف ماذا يصنع فيها، ومن عرف قدر زمانه وشرف وقته وأثره في تكوين مشروعه الكبير، عرف ما يقال له في مثل هذه المساحة.

”

جئت يوماً إلى الصف الساعة العاشرة فلم أجد الطلبة، وضعت حقيبتي على الطاولة ثم جلست، بعد عشر دقائق دخل الطلبة جملةً إلى الصف، حملت حقيبتي وخرجت ودخلت على المدير وأخبرته الخبر، فاستدعى المدير طالباً وسأله عن ذلك، فقال الطالب: جاء طه باشا الهاشمي رئيس الوزارة وكان يُدرّس الجغرافيا العسكرية في ذلك اليوم متأخراً، فأخذ الدقائق العشر التي تكون عادة بين كل درس والذي يليه، ثم سمح للطلبة أن يأخذوا عشر دقائق فرصة من الدرس التالي، فقلت للمدير: إن رئيس الوزراء يستطيع أن ينهي عقدي إذا شاء، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ عشر دقائق من درسي. كان رأي طه باشا أنه ربما تأخر مرة بعد مرة في الوزارة فاحتاج إلى عشر دقائق، لم يكن عندي مانع من ذلك، فاقترحت أن يعطى رئيس الوزارة هذه العشر الدقائق في كل مرة، أما درسي فيبدأ حينئذ في كل مرة في الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة: كل شيء ممكن إذا جرى على قاعدة، أما السلوك العرفي أو السلوك الكيفي الذي يستطيع به رجل أن يبدل القوانين كما يشاء حينما يشاء فلا يجوز.

“

❖ بمثل هذا الشــغف يمكن أن نصنع القدوات، وما لا شغف به فلا ألف مرة! الله يا عمر فرّوخ ما زلت تقيمني واقفاً في كل مرة! تجبرني في مرات على الوقــوف، وفي أخرى على التكبير، وفــي ثالثة على أن أبقى واجماً صامتاً زمناً وأنا أقرأ لك هذه المواقف والأحداث!

❖ عمر فروخ يملك ثقة عالية في نفسه للدرجة التي يسجل موقفاً أمام رئيس الوزراء الذي يملك أن يمد في عقــد وظيفته أو ينهيه، ويقول: (إن رئيس الوزراء يستطيع أن ينهي عقدي إذا شاء، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ عشر دقائق من درسي)! والذين يؤمنون بطاقاتهم وقدراتهم يستطيعون أن يســجلوا مواقف تبقى ما بقي الزمان! وإذا كنت لا تملك شــيئاً يستحق الالتفات فأمثال طه باشــا الهاشــمي رئيس الوزراء والذين يعتدون على حقوقك كثر في زمانك، وليس بالضرورة أن تكون في وظيفة عمر فروخ أو أمام مسؤول كرئيس الوزراء، يكفي غيرهم في سلب حقك وأخذ ما لك من حقوق، ولا بواكي عليك!

❖ والأدهش في سيرة عمر فروخ هذا الشغف برسالته وقضيته ومهنته التي يدفعه الشــوق إليها للشُّــحِّ بعشــر دقائق تؤخذ من وقتها، ويخاصم وينازل من أجلها، ومن لاشوق له إلى شيء فلا حياة له في شيء.

❖ إلى كل معلم: خذ من رســالة عمر فروخ ما يدهشــك (إن رئيس الوزراء يستطيع أن ينهي عقدي إذا شــاء، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ عشر دقائق من درسي)! وإلا دعك من مكان لا علاقة لك به في شيء.



من حسن حظ الفرد أن تكون له صلة بكبار القوم، فإنه إن كان عاقلاً استفاد من اختبارهم في الحياة.

❖ من أعظم المؤثرات في بناء شخصيتك ومدك بالتجارب واختصار الزمان صلتك بالكبار سناً وتجربةً وخبرة، وإذا تهيأت لك فرصة مع صاحب تجربة إيمانية أو فكرية أو تربوية أو إعلامية أو علمية وعملية فلا تبرحه البتة حتى تأخذ زماناً وتجربةً إلى زمانك وتجربتك، ولقاءُ صاحب تجربة في مشروع ما أعودُ عليك ثمرةً من عشرات الكتب التي تقرؤها في ذات الطريق.

❖ في مرات تجلس إلى كبير سن فيختصر عليك زماناً طويلاً في سياسة الناس وبلوغ آمالك والتعامل مع الأحداث، ويستطيع أن يطلعك على سنن الحياة في صورة تجربة شخصية؛ فتتعلم منها ما لم تستطع أن تمدك به عشرات الكتب في زمانك.

في أوائل العام ١٩٤٤ كان عندي كتاب مدرسي للتاريخ (تاريخ سوريا ولبنان المصوّر) فناولته من كان يراقب في تلك الفترة (أدمون وهبة) ثم جلست على عادتي أنتظر انتهاء فترة المراقبة، فقال لي: الآن نحن مشغولون، تعالَ غداً، وجئت اليوم التالي فقال لي: لم تنتهِ المراقبة بعد، وما زلت أتردد عليه حتى طال ترددي، ثم ناولني مخطوطة كتابي في النهاية مزينة بالقلم الأحمر، وكان عليها إمضاء

وزير الداخلية، كان كل شيء يتعلق بالتعاون مع الدول العربية مضروباً عليه بالقلم الأحمر، وصعدت للطابق الثاني، ثم نزلت إلى الطابق الأول فقال لي (أدمون وهبة): هذا من شأني وفلان لا شأن له، فقلت له: يا أدمون هذا الكلام المشطوب هنا تكتب مثله الجرائد في كل يوم، ثم هو مكتوب في مناشير ملصقة على أعمدة (الترامواي)، فهز رأسه وهو يضحك ثم قال لي: وقد رفع كفه إلى مقربة فمه ونفخ فيها (هذا كلام جرائد يذهب في الهواء والمناشير على أعمدة القطار الكهربائي، سيتكفل المطر بإزالتها، أما في الكتاب فإن الكلام يبقى)، لا بأس بالتصريح بهذا السر، وقد مر على مخالفتي هذه سبعة وثلاثون عاماً.. لقد طبعت الكتاب من غير أن أحذف منه شيئاً.

❖ القناعة بأفكارك من أعظم معالم شـخصيتك! إذا كنت مؤمناً بأفكارك فثمة فـرق كبير جـداً بينك وبيـن الآخرين، أنـت تقدم قضيتـك وفكرتك ومشروعك وما تؤمن به في سـياق ذلك من الأفكار والمفاهيم والتصورات، وغيرك يقدم شيئاً قرأه في مكان أو حفظه من منشور فحسب.

❖ حين تملك تلك القناعة التي كان يملكها عمر فروخ تسـتطيع أن تسجل موقفاً كموقفه الذي سـجله في النهايات (لا بأس بالتصريح بهذا السر، وقد مر على مخالفتي هذه سبعة وثلاثون عاماً.. لقد طبعت الكتاب من غير أن أحذف منه شيئاً).

❖ ما قاله (أدمون) في مقام الاعتراض على فروخ يسـتحق التدوين: (هذا كلام جرائد يذهب في الهواء والمناشير على أعمدة القطار الكهربائي، سيتكفل المطر بإزالتها، أما في الكتاب فإن الكلام يبقى)، إذا أردت لفكرة

أن تبقى وتأخذ حظها من الانتشار وتكون عمرك الآخر فضعها في كتاب، وتأكّد من أنك تضع كلمة تستحق البقاء، لأن ما كل ما وضع في الكتاب قادراً على البقاء، فليكن ذلك منك على بال!

جلس ولدي أسامة ذات مساء وهو في الرابعة من العمر على المائدة، والطعام لا يكون إلا في غرفة المائدة وعلى المائدة نفسها، ومثل ذلك شرب الماء، حتى حبة الدواء الضرورية في بعض الأحيان يتناولها أحدنا ـ إذا لم يكن طريح الفراش ـ في غرفة المائدة. ليس عندنا أحد يشرب في غرفة النوم، أو يأكل موزة على الشرفة، أو يقضم تفاحة وهو يسوق السيارة، أو يلتهم منقوشة وهو مسرع إلى عمله. وضعت السيدة ـ كعادتها في كل مرة ـ طبق الطعام أمام أسامة فنظر إليه قليلاً ثم قال: (مابدي)، (لا أريد) واتفق أني سمعت هذه الكلمة فدار في مخيلتي سلة طويلة من الجمل: أريد هذا، لا أريد ذاك، أعطني ذلك، تلك قصة طويلة لا تنتهي، فقلت للسيدة: يجب أن يذهب أسامة إلى فراش النوم بلا طعام، واتفقنا على ذلك فقالت له: اذهب للفراش ونهض ـ كعادته ـ وذهب إلى فراشه بلا كلام أو ملاحظة (إن أقوال السيدة الأم في البيت قانون طبيعي لا يفكر أحد في ترك التقيد به)، ومن ذلك اليوم لم نسمع في البيت جملة مثل (هذا أحبه، وهذا لا أحبه)، وكبر الأولاد الخمسة وتزوج أربعة منهم، ورزق نفر منهم أولاداً ـ ولا يزالون ـ كلما جاؤوا إلينا للطعام لا يعرف أحد منهم نوع الطعام إلا بعد أن يجلس على المائدة.

❖ تدريب الأسـرة على النظام جزء من بنائهم لمستقبل الأيام (جلس ولدي أسامة ذات مساء وهو في الرابعة من العمر على المائدة، والطعام لا يكون إلا في غرفة المائدة وعلى المائدة نفسـها، ومثل ذلك شرب الماء، حتى حبة الدواء الضرورية في بعض الأحيان يتناولها أحدنا ـ إذا لم يكن طريح الفراش ـ في غرفة المائدة)، والفوضى لا تخلّف سوى الضياع!

❖ إذا كنـت لا تؤمن بالقوانين التي ينبغـي أن تأخذ حظها في ربوع أسرتك، فخذ هذا السـطر لعله يعيد لك بناء التصورات (ليس عندنا أحد يشرب في غرفة النوم، أو يأكل موزة على الشـرفة، أو يقضم تفاحة وهو يسوق السيارة، أو يلتهم منقوشة وهو مسرع إلى عمله)!

❖ مسؤوليتك أمام أسرتك كبيرة وضخمة ومؤثرة في النهاية، وما لم تكن هذه الأسرة مشروعاً في حياتك فستفوتك مصالح كبيرة ما كان لها أن تكون إلا من خلال هـذا المعنى الكبير، وفي الوحـي: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلَّا مِنْ ثلاث.. أو ولدٍ صالحٍ يَدْعو له**».

كنت أتحدث يوماً مع نفر من الزملاء فقال لي أحدهم: أنت بخيل يا دكتور عمر، فقلت له: وما رأيت مني مما يدل على البخل؟ فقال: أنت تعلم أن الزي الآن لا بد أن يكون رباط الرقبة عريضاً، وأنت لا زلت تعقد في عنقك رباطاً ضيّقاً، فقلت له: أرى أن هذا الرباط الرفيع في عنقي كافٍ، وأعتقد أنني لست بحاجة إلى رباط أغلظ منه، وكنت أود أن أستغني عن (عقدة الرقبة) ولكنني أدركت أن

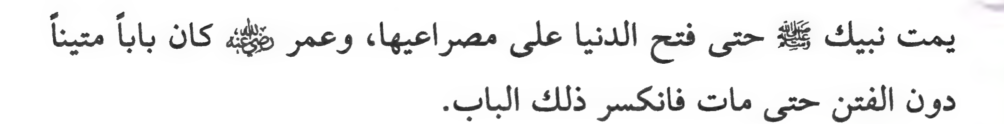
كثيرين سيسألوني عن سبب تركي لعادة شائعة في البلد؛ فيضيع وقتي في الرد على أسئلة السائلين أكثر مما يضيع من الوقت في عقد هذه العقدة في صباح كل يوم.

❖ قناعاتك هي وجهك الحضاري بين العالمين! والخروج بأفكارك ومفاهيمك عن النسق العام مطلب حضاري وفكري وثقافي كبير إذا كانت تلك المفاهيم في تلك المجتمعات لا تقوم على نور الوحي، أو هي مجرد ثقافات وعادات متوارثة عبر الزمن فحسب.

❖ كن متميزاً، وزعزع تلك الأفكار والمفاهيم والتصورات التي لا علاقة لها بالحياة، ولا تكن أسيراً لتلك الجاهليات يوماً من دهرك وزمانك، خاصة إذا كانت المسألة كما في زمان عمر فروخ مجرد رباط عنق!

❖ فقه الواقع ضرورة، ومن غير هذا المعنى فسيغرق كثيرون في الهوامش في عرض الطريق (وكنت أود أن أستغني عن (عقدة الرقبة) ولكنني أدركت أن كثيرين سيسألوني عن سبب تركي لعادة شائعة في البلد، فيضيع وقتي في الرد على أسئلة السائلين أكثر مما يضيع من الوقت في عقد هذه العقدة في صباح كل يوم).

❖ وقتك حياتك، وأثمن مورد بين يديك، وهو كفيل إن استُثْمر بوعي لصناعة تاريخك ومجدك، والأول قيل له: كلِّمني، فردَّ: أمسك الشمس، والآخر كان يقول: لو رأيت ملك الموت على الباب ما كان عندي مزيد عمل، وأبو بكر ﷺ دخل من أبواب الجنة الثمانية كلها، ولم



يمت نبيك ﷺ حتى فتح الدنيا على مصراعيها، وعمر رضي الله عنه كان باباً متيناً دون الفتن حتى مات فانكسر ذلك الباب.

كل من دخل في صناعة التعليم يقول لك: التعليم رسالة، غير أن نفراً من الذين يقولون هذا القول يريدون به أن يعاملهم الناس على مستوى (رسالة التعليم)، أما هم أنفسهم فإنهم يضربون عن التعليم إذا تأخر حصولهم على زيادة في المرتب مدة من الزمن.

❖ صورة لجزء كبير من واقع معاش! لو كان التعليم رسالة عند المعلم لبقي في رحابه ما بقيت به الدنيا، ولتحمل كل عقبات الطريق، ولصنع في ربوعه كل شيء! لا يكون التعليم رسالة حتى تقوم في قلبك لهفة وشوق للقاء تلك الأجيال التي تقعد بين يديك كل صباح، ولا يكون لهفة حتى تستلذ في كل لحظة تقضيها في تلك الربوع.

❖ لن يعرف أثر التعليم إلا من عرف لغة الاستثمار وقرأ هذا النص «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطَعَ عملُهُ إلَّا مِنْ ثلاث.. أو ولدٍ صالحٍ يَدْعو له**»، واستمتع بذلك المعنى الذي نقله السعدي رحمه الله حين قال معلقاً: وليس بالضرورة أن يكون من ولد الصلب، وإنما يجري هذا حتى في ولد العلم! كم من طالب قرر ألا يموت معلمه ما بقي الزمان، وأجرى له من الحسنات والأوقاف والأعمال والمشاريع ما يصنع به منازل الآخرة في أيام الحاجات! ومن عرف هذا المعنى تعنّى له، وما لجرح بميت إيلام!

كان يتولى النظارة (الإشراف على النظام في المدرسة) في أيام عبد الله المشنوق الأستاذ زكي النقاش، ولم يكن يضبط التلاميذ بالقسوة أو يحفظ النظام بالعنف أو يستعبد الطلاب بقوته، ولكنه كان مستقيماً فاستقام التلاميذ. إنك لا تستطيع أن تصلح الآخرين إذا لم تكن أنت في نفسك صالحاً. وكان الأستاذ محمد عبد الله شبقلو يسلك في التعليم المسلك الصحيح: كان يعلّم الأسس من العلم، وبهذه الأسس كان الطالب يمر بنفسه على الفروع، ولم يكن كأولئك الذين يحاولون أن يحفظ تلاميذهم فروعاً من العلم ينساها بعد قليل، ثم لا تراه يذكر شيئاً من مبادئ العلم.

❖ (ولكنه كان مستقيماً فاستقام التلاميذ) نص يحتاج أن يعلَّق على جدار بيتك أو على باب غرفتك وتقرأه في باكر كل يوم وخاتمته، وتستعين به فيما بقي من عمرك.

❖ يا أيها الآباء، ويا أيها المربون! ويا أصحاب المحاضن: اقرؤوا درساً صالحاً للحياة ما بقي بكم الزمان (إنك لا تستطيع أن تصلح الآخرين إذا لم تكن أنت في نفسك صالحاً).

❖ حين تُعلِّم طالبك فن التقعيد والتأصيل فأنت لا تعطيه علماً مجرداً ينساه بعد الفراغ من الحديث عنه أو بعد الاختبار، وإنما تملِّكه منهجاً وطريقاً للعلم والتعليم في مستقبل الأيام، فرق كبير جداً بين معلم يشرح لك كتباً، ومعلم يضع عينك على قواعد العلم وأصوله من تلك الكتب!



فرق بين من يضع لك القاعدة ويملكك مهارة الاستدلال، ويعينك على استجلاب الفروع بعد ذلك على تلك الأصول، ومن يعيد عليك قراءة النصوص المكتوبة في كتب ونصوص العلماء. وأخبرك أني توقفت عند هذا السطر وذهبت أقلب كتاباً يعلي من شأن هذه القواعد والأصول!

"

أَلَّفَ العقاد كتابه القيم «ابن الرومي في شعره» في عام ١٩٢٦، ونقل جملة لسلميان البستاني أن ابن الرومي ورث تلك البراعة من أسلافه اليونان، إذ كان الوصف فناً شائعاً في الشعر اليوناني، ولما نشرت أنا دراستي القصيرة في ابن الرومي قلت في الكلمة الأولى: لقد غفل البستانيان والعقاد عن طبيعة الاجتماع، وفاتهما كثير من حقائق التاريخ وأسس الأدب، لأن الوراثة العرقية تترك آثاراً في الجسد لا في الأمور الاجتماعية، ويبدو أن العقاد لم يرَ دراستي إلا متأخراً، فنشر في مجلة الرسالة المصرية مقالاً افتتاحياً عنوانه: «حقوق المناقشة»، خصني منه بستة وسبعين سطراً، منها: وصلت إلينا من هذا الفروخ.. ثم تناول هذا الفروخ قلمه الأحمر.. ثم رفع هذا الغر مقرعته.. إلخ. وكان بإمكاني أن أرد على العقاد بمثل كلامه وأكثر، ولكني لم أفعل، لعل جملتي كانت قاسية، لعل العقاد كان ساعة قرأ جملتي في حالة نافرة، لعل أحداً حمل إليه دراستي وشفعها بعدد من الكلمات، وفي عام ١٩٦٠ جرى اختيار أستاذي أنيس المقدسي واختياري عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة، وكانت المناقشات تدور في جلسات المجمع من غير أن أتوجه بملاحظة إلى العقاد أو يتوجه العقاد بملاحظة لي، وبعد بضع سنوات



تقدم طه حسين ـ وكان في ذلك الحين رئيساً للمجمع ـ باقتراح يطلب فيه إضافة أحرف على الأبجدية العربية، فنهضت أنا أسأل عن سبب ذلك، فقال لي طه بالحرف الواحد: إذا لم تكن عندنا هذه الأحرف الزائدة فكيف نكتب اسماً أجنبياً مثل (فيكتور هيجو) باللغة العربية كتابة صحيحة؟ فقلت أنا: لو فرضنا جدلاً أن زيادة الأحرف التي تقترحها تحل مشكلة الأسماء في اللغة الفرنسية ـ وهذا غير صحيح ـ فكيف نحل مشكلة الأسماء في اللغة التركية والفارسية والإنكليزية والألمانية والإسبانية والصينية؟! ثم طلبت التصويت على اقتراحي بصرف النظر عن اقتراح طه حسين وخُذِل اقتراحي في التصويت. عندئذ نهض عباس محمود العقاد بقامته الفارعة وصوته الهادئ الرصين وقال: فلان على حق، فلا يجوز أن نفتح ثغرة في اللغة العربية مثل هذه الثغرة، فقيل له: إن هذا الاقتراح ليس ابن ساعته الآن، ولكنه اقتراح لجنة رئيسها طه حسين، فقال العقاد: وما قيمة ذلك؟ نُعيّن لجنة ثانية، ونجح دفاع العقاد، فأعيد التصويت وسقط الاقتراح، وانتهت تلك الجلسة والتقينا في باحة المجمع فتصافحنا واعتنقنا وتصافينا، إن عشرين سنة من الصمت لم تذهب سدًى. والآن بقيت جملتي في مقدمة كتابي وبقيت مقالة العقاد في مجلة الرسالة على حالهما، ولكن اللغة العربية نجت من اقتراح ما كان أحد ـ إلا الله تعالى ـ يعلم إلى أين تنتهي آثاره لو أن المجمع أخذ باقتراح طه حسين.

❖ حين قرأت ما أفاض به قلم عمر فروخ في هذا المقطع وختمه بهذا الموقف (وانتهت تلك الجلسة والتقينا في باحة المجمع فتصافحنا



واعتنقنا وتصافينا، إن عشــرين ســنة من الصمت لم تذهب سدًى. والآن بقيت جملتي في مقدمة كتابي وبقيت مقالة العقاد في مجلة الرسالة على حالهما، ولكن اللغة العربية نجت من اقتراح ما كان أحد ـ إلا الله تعالى ـ يعلم إلى أين تنتهي آثاره لو أن المجمع أخذ باقتراح طه حســين) اقشعر بدني وتآلف الدمع في مقل عيني وبقيت واجماً بعضاً من الزمن، وأدركت مواقف الرجال، وفقهت الآن بالذات أثر مواقف الصبر والصمت في كثير من الأحيان.





أحمد أمين

"

هذه السيرة لأحمد أمين ولكنها فصول كثيرة ومتتابعة عن شعور والده به، وعيشه من أجله، وبذله كل ممكن في سبيل تربيته وتأهيلـه حتـى ودّع الدنيـا، وفصـول مـن التجـارب والنصائـح التـي تأخذ بك في سـلّم النجاح، فدونك الحياة.

ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مر عليّ من أحداث في عرض هذه الحياة. وكل ما يلقاه الإنسان من يوم ولادته إلى موته يستقر في نفسه ويسكن في أعماقه سواء كان ذلك بوعي أو بغير وعي، حتى نبحة الكلب التي يسمعها وشعلة النار التي يراها وزجرة الأب أو الأم التي يتلقاها، وأحداث السرور والألم التي تتعاقب عليه، كلها تتراكم وتجتمع وتختلط وتمتزج وتتفاعل، ثم تكون هي بعد ذلك حياته وأحداثه، حتى يصير عظيماً أو حقيراً، قيماً أو تافهاً.

❖ كل إنسان كذلك هو في النهاية نتيجة طبيعية لكل ما يمر به من أحداث ومواقف، وهذه الحقيقة تتشكل مع الزمن الطويل، وفي مرات كثيرة تُبقي ندوباً موثرةً في حياة صاحبها وتظل تحاصره، وتقف دون نجاحه حتى وهو كبير ما لم يتنبه لها ويدرك كيف يتجاوزها مع الأيام.

❖ تلك الأحداث في مرات قليلة تكون إيجابية وتسهم في دفع صاحبها للعمل والبناء، وتتكون من خلال أسرة فاعلة أو صداقة إيجابية أو مجتمعات فاعلة، وفي مرات كثيرة جداً تكون سلبية ومؤلمة ومؤثرة في تأخير نضج صاحبها ونجاحه، ومن فقه هؤلاء جميعاً أن يعوا أن تلك المراحل التي مرت فيها تلك التجارب السيئة انقضت، وأي بقاء لها مؤذن بالتأخر والتخلّف في النهايات.



إذا رأيت مكتئباً بالحياة ساخطاً عليها متبرماً منها، أو رأيت في المقابل مبتهجاً بها راضياً عنها متفتحاً قلبه لها، أو رأيت شجاعاً مغامراً كبير القلب واسع النفس، أو جباناً ذليلاً خليلاً وضيعاً ضيق النفس، فابحث عن سلسلة حياته ترَ ذلك كما صبغته الأحداث والسنون.

❖ أنت في النهاية أثر لقراءاتك، وأصدقائك، ولقاءاتك، وما تراه وما تسمعه في يومك وليلتك، هذه المعاني التي تمرُّ في حياتك لا تعتقد أنها تمرُّ دون شيء، بل تترك بصمتها أوضح ما تكون على شخصيتك مع الأيام. ومن فقهك أن تدرك أنك صدًى لعاداتك التي تمارسها كل يوم، وصورةٌ طبق الأصل في النهاية لتلك الممارسات التي عشت عليها زمناً من عمرك، فانظر: من تصاحب؟ وماذا تقرأ؟ وإلى ماذا تنظر في كل مرة؟ وماذا تسمع؟ وستعرف مستقبلك من خلال تلك الصور والمعاني التي تمرُّ عليك في زمانك.

بيتي أول مدرسة تعلمت فيها أهم دروس الحياة.

❖ هذه هي الحقيقة الكبرى التي بحاجة أن تعاد ألف مرة في اليوم الواحد على الأسرة، حتى لا تغيب مع الأيام. علينا أن ندرك أن غالب النجاحات إن لم يكن كلها التي تحققت لنا نتيجة لذلك الغرس المبكر

في حياتنا من خلال تلك الأسر التي عشنا بينها، وكذلك غالب الإخفاقات إن لم يكن كلها! ومع عمق هذه الحقيقة وضرورة فقهها لكل أسرة إلا أننا معاشر الأبناء يجب ألا نتكئ على هذه المعاني التي تكونت ونتخلّف عن البناء بسببها مهما كانت أحداثها وآثارها التي خلفتها في واقعنا.

❖ لنقطع علاقتنا بالماضي الأليم بكل ما فيه من صور وأحداث، ولنبدأ حياتنا الجديدة من عمق إيماننا أننا قادرون على تكوين ذواتنا على رغم كل الظروف التي عشناها والآلام التي واجهناها والأحداث التي اكتوينا بها ذلك الزمان، ولنستلهم من ذلك الماضي كل صورة وموقف ولحظة إيجابية تصلح لأن تكون معبراً في طريق الحياة الطويل.

"كان البيت بسيطاً، فأثاثه الحجارة وهي بمثابة الحصير الذي نفرش عليه السجاد، وليس في غرفة النوم سوى حشبة ولحاف ومخدة تطوى في الصباح وتُبسط في المساء، ولم تكن تستخدم الأسرة الأسرَّة، وأكثر ما في البيت وأثمنه وما يشغل أكبر حيّز فيه المكتبة، دواليب مليئة بالكتب، وحجرة أبي مملوءة كذلك بالكتب."

❖ هكذا كانت الحياة في تلك الأزمان عند أحمد أمين وعند غيره لا فرق! كانت حياة عادية وبسيطة وبأقل التكاليف وخالية من كل صور التعقيد، وتخرّج منها أحمد أمين كما تخرّج منها في ذات الوقت أصحاب المشاريع والملهمون والمدهشون.

❖ من كمال وعيك ألا تبقى مأسـوراً لما حولك من الأشـياء، وألا ترهنك الظروف التي تعيشـها مهما كانت قاسية ومؤلمة، ركّز واستثمر ما حولك بوعي، وضَعْ عينك على ما يعينك، واملأ قلبك ومشاعرك بالفأل والأمل، وقرر أن تصعد الجبل ولو لم تجد سلماً يعينك في البدايات.

❖ بـات اليوم كل شـيء ممكناً حتى ذلـك الذي كنا نـردد أنه من المستحيل، كل أدوات المعرفة بكافة أشكالها وصورها سواء كانت مقروءة أو مكتوبة أو مسموعة أو مرئية بين يديك، وبضغطة زر وأنت على سرير نومك لا تحتاج منك أن تتكلّف وتذهب إلى مـكان ما، كلها بين يديك وفي اللحظة التي تشاء.

❖ المدهش في بيت أحمد أمين واللافـت للنظر، والمتميّزة به تلك الأسـرة، والذي يسـتحق أن يُقام له حفل عرس: حيّـز المكتبة ودواليب الكتب!! يا لجلال تلك البيوت التي تعتبر الكتـاب أهم ما فيها وأبرز ما يملأ مساحاتها!

❖ هذا المشـهد لوحده يكفي في مرات لجذب الأسرة إليه وإشباعها بمشـاهده والاسـتفادة منه، فكيف إذا كانـت تجري فيه مشـاهد القدوة للأبوين، وتسـتل منه العلوم والمعارف التي تتربى عليها تلك الأسرة في قادم الأيام؟!

❖ الأسـرة الفاعلة: تلك التي يملك فيها الأبـوان أدوات التأثير من خلال عادة القراءة، وكل أسـرة لا تسـتقي من هذا المورد العذب ستظل بعيدةً عن تلك الآمال التي ترومها والأحلام التي تسعى إليها في مستقبل الأيام.

❖ ما أحوج الأســر إلى لقاءات تجمعهم على فكرة ومفهوم، وقصة تبني من خلالها عشرات التصورات وتصنع للقيم في حياتهم ألف معنى، وكم من لقاءات واجتماعات ـ مع قلتها على مثــل هذه المعاني ـ كونت أحلاماً وصنعت قدوات!

"كان أبي مولعاً بالكتب في مختلف العلوم، وإذا كان الكتاب مطبوعاً طبعتين بطبعة أميرية وطبعة أهلية لم يرتح حتى يقتني الطبعة الأميرية، وقد كان يعمل مصححاً في المطبعة الأميرية، وكانت هذه المكتبة أكبر متعة لي حين استطعت الاستفادة منها."

❖ مثير هذا المشــهد الذي يحكيه أحمد أمين عن أبيه في مثل ذلك الزمان، والإنسان على قدر أمانيه، وما أحوج الأسر إلى شيء حاجتها إلى مشاهد مغرية بالجمال في الأوساط التي تعيش فيها! في مرات تأتي هذه المشاهد من خلال مكتبة تأخذ حيّزاً من البيت، وفي أخرى من خلال عادة القراءة التي تجري مشاهدها في حياة الأبوين، وفي ثالثة من خلال مشاهد القيم التي تتزاحم في تلك المساحات.

❖ لقد حكى لك أحمــد أمين متعته الكبرى التي كانت تدهشــه في بيت أســرته، وغرامه بتلك المكتبة تلك الأيام، وحكــى لك في المقابل مشهد أبيه الآسر في اختياره لطبعات الكتب وشهوته للطبعة الأميرية، ولم تمر تلك المشاهد في ساحات الأسرة مروراً عابراً، وفي حياة أحمد أمين على وجه الخصوص، بل صنعت ألف معنى. ومن فقهك أن تترك مشاهد للجمال في المســاحات التي تعيش فيها، وستلقى من يبني منها أشياء لم تكن منك على بال.

كان بيتنا محكوماً بالسلطة الأبوية، فالأب وحده يملك زمام الأمور، فلا تخرج الأم إلا بإذنه، ولا يغيب الأولاد بعد المغرب خوفاً من عقابه، ومالية الأسرة بيده، يصرف منها كيف يشاء ويتحكم حتى فيما نأكل وما لا نأكل، يُعلّم أولاده بنفسه ويُشرف على تعليمهم في المدارس بنفسه، ويتعب من أجل ذلك تعباً نفسياً لا حد له، وقد يكون مريضاً ومع ذلك يلقي درسه لنا، أما إيناساً لنا وإدخال السرور والبهجة علينا وحديثه اللطيف معنا فلا يلتفت إليه ولا يرى بأنه واجب عليه، يرحمنا ولكنه يخفي تلك الرحمة ويظهر قسوته، وتتجلى رحمته إذا مرض أحدنا أو أثناء غيابه، يعيش في شبه عزلة في دوره العالي، يأكل وحده ويعبد ربه وحده، وقلّما يلقانا إلا ليقرأ علينا، وما بقي من اللعب والضحك فمع أمنا. وكان بيتنا في الجملة جِداً لا هزل فيه، متحفظاً ليس فيه ضحك كثير ولا مرح كثير؛ وذلك من جِد أبي وعزلته وشدته، وكان مدرساً في الأزهر، ومدرساً في مسجد الشافعي وإمام مسجد، ويتقاضى من كل ذلك نحو اثني عشر جنيهاً ذهباً.

❖ لقد حكى لك أحمد أمين حال والده معه ومع أسرته، ووصف لك ما يجري في بيته وقد اجتهد فيما يصلح بيته، وجزماً أن ما دفعه إلى ذلك إلا الحرص على هذه الأسرة من الضياع، وقد اجتهد حسب وسعه، وإن كانت هذه الأجواء التي خلقها ـ رحمه الله ـ في بيته ليست بأجواء صحية، وغالباً ما تفرز نتائج غير مرضية، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، وقد قال ﷺ: «**خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ، وأنا خيرُكم لأهلي**»، وليس أسعد للبيوت

من أجواء الحب والسعة والراحة التي يجد فيها أفراد الأسرة الحرية، على أن تكون مضبوطة بضوابط الشرع.

❖ الأجواء المفتوحة التي يسود فيها الحوار والنقاش ويتم فيها توزيع الأدوار والمسؤوليات وتسود فيها الثقة، هي الأجواء التي تنتج تربية متميّزة في مستقبل الأيام، ونتائج القسوة مُدمّرة في مرات كثيرة وتخلق أنفساً مشوهة مع الأيام، ومع أن الصورة الظاهرية تبدو فيها جميلة ولافتة ولكنها على حساب الصور الحقيقية، ولا تتكشّف إلا حين يصل الأبناء مرحلة يستطيعون فيها اتخاذ القرارات الشخصية، ويخرجون بها من ذلك الأسر الذي أحاط بهم زمناً من الدهر، والمسألة خطيرة جداً وتحتاج إلى فقه ووعي.

❖ ثمة فرق بين زمنين، الزمن الذي عاشه أحمد أمين وفرض فيه ذلك النوع من التربية وحقق فيه نجاحاً، وزمانك الذي تعيشه بكل ما فيه من وسائل الانفتاح. كان زمان أحمد أمين زماناً مهيأً لذلك النوع، ولا سبيل للخروج من مساحة البيت مهما كان نوع تلك التربية التي تجري في ظلاله، بخلاف اليوم الذي تواجه فيه هذا الانفتاح الذي يكون ولدك داخل بيته وبين أسواره وفي غرفته المغلقة ويستطيع أن يرى العالم كله من حوله من خلال جوّاله، يرى العالم بكل ما فيه من مشاهد الضلال والانحراف والفساد، ويستطيع أن يتواصل مع أصدقائه في شتى أقطار الدنيا ويمارس معهم ذات اللعبة وجهاً لوجه، ولو أنك فرضت على جواله حصاراً أو لم تمكّنه من الشراء من الأصل، سيتعرض لهجوم نفسي يُحتقر فيه ويقلّل من شأنه ويوسم بالضعف، فيجرِئه على كره بيته وأسرته ويؤجج فيه الهرب والخروج من حياض تلك الأسرة، وسيتفاعل معه في ذات الوقت أصدقاء السوء ويشترون كل ما يريد، ويصلون من خلال تلك المنّة عليه إلى ما

يشاؤون، ومن فقهك أن تقرأ واقعك وتعرف زمانك وتستعين بالله تعالى وتقبل عليه وتقرأ كثيراً في المفاهيم التربوية، وتفتح أجواء النقاش، وتهب مساحات للحرية وتشركهم في القرارات، وتوزع المسؤوليات باكراً حتى تأتي في النهايات على أمانيك.

يغمر بيتنا الشعور الديني، فأبي يؤدي الصلوات لأوقاتها ويكثر من قراءة القرآن صباحاً ومساءً، ويصحو مع الفجر ليصلي ويبتهل ويكثر من قراءة التفسير والحديث، ويكثر من ذكر الموت ويقلل من قيمة الدنيا وزخرفها، ويحكي حكايات الصالحين وأعمالهم وعباداتهم، ويؤدي الزكاة ويؤثر بها أقرباءه، ويحج وتحج أمي معه، ويعتني بأولاده فيوقظهم في الفجر ويراقبهم في بقية الصلوات، وكلنا يحتفي برمضان ويصومه، وحضر أخي حفلة عرس أديرت فيها المشروبات الروحية فبلغ أبي فما زال يضربه حتى غشي عليه، وليس في البيت أحد يشرب الدخان. وبعد فما أكثر ما فعل الزمان! لقد عشت حتى رأيت سلطة الآباء تنهار، وسفرت المرأة، وكانت أمي وأخواتي محجبات، وخف وقعها علينا لأنها تأتي تدريجياً ونألفها تدريجياً، ويفتر عجبنا منها وإعجابنا بها على مر الزمان، وتتحول مع الزمن من الغريب إلى المألوف.

❖ لو لم تكن إلا هذه المعاني الكبار التي تركت أثرها في مشاعر أحمد أمين من والده لكانت كافية، إن والداً يقيم حق الله تعالى ويرعى

شأن الصلاة ويقدسها ويقيمها في وقتها ويأتي منها على أمانيه، لهو أقرب ما يكون إلى الفلاح في حياته كلها، وكم هي البيوت والأسر في المقابل التي لا حكاية لها مع هذه المعاني الكبار في شيء.

❖ الشعور بمسؤولية الأسرة والقيام على حض أبنائه بالصلاة والتأكيد عليها ومتابعتهم فيهـا، والاحتفاء برمضان، والقيام بالـزكاة، والحج مع زوجه من أعظم واجبات الأسـرة وأجلّها على الإطلاق، وما قامت أسرة بهذه المعاني إلا نالت خيراً في الدارين، وقد قال ﷺ: **«كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته»**.

❖ يا لجلال المسؤوليات! حضر أحد الأبناء حفلة أديرت فيها الخمور ولم يشـربها، فكانت عنـد والده مـن الموبقات! وبيت مـورق بالحياة والمعاني الروحية للدرجة التي لا ترى فيه أحداً يشرب الدخان، وما عني أحد بأبنائه وأقبل على الله تعالى ملحاً في الدعاء، وأثرى مشـاهد القدوة، ومد في مساحات الحب إلا أجرى الله له عواقب التوفيق أعجل ما تكون.

❖ يحكي لك أحمد أمين تغيّر الزمان، وذبول بعض القيم، وتفشّـي بعض السلبيات، ونشوء الغربة شـيئاً فشيئاً حتى آل الأمر إلى التخلي عن المبادئ الكبرى وتمدد مساحات المشـاهد العامة في ذلك الواقع، وهي نتيجة طبيعية جداً وكثرة الإمساس تبطل الإحساس، وقد قال ﷺ: **«سَيأتي زمانٌ، القابضُ علـى دينِهِ كالقابضِ علـى الجَمْر»**، وعلى كل أسـرة أن تستشعر ما ستواجه في أيامها القادمة، وألا تستسلم لرياح هذه المعاني ولو كانت عاتية، وأن تزيد جرعة الحرص، وتقبِل على الوحي وتبسط مساحته الوعظية في وسط الأسرة، حتى لا تفقد تلك المعاني التي تربَّت عليها مع الأيام. والله المستعان!

إذا رأيت مني إفراطاً في جانب الجد وتفريطاً معيباً في جانب المرح، أو رأيت صبراً على العمل وجلداً في تحمل المشقات، واستجابة لعوامل الحزن أكثر من الاستجابة لعوامل السرور، فاعلم أن ذلك كله صدًى لتعاليم البيت ومبادئه، وإذا رأيت إيماناً يسكن أعماق قلبي، وإيماناً بالله لا تزلزله الفلسفة ولا تشكك فيه مطالعاتي في كتب الملحدين، أو رأيتني أُكثِر من ذكر الموت وأخافه ولا أتطلع إلى ما يعدُّه الناس مجداً، ولا أحاول شهرةً وأعرف أن ذلك ظل زائل وعرض عارض، أو رأيت بساطتي في العيش وعدم احتفائي بمأكل أو مشرب أو ملبس، وبساطتي في حديثي وإلقائي، وبساطتي في أسلوبي وعدم تعمدي الزينة، وكراهتي الشديدة لكل تكلف وتصنّع في أساليب الحياة، فمرجع ذلك كله إلى تعاليم أبي وما شاهدته في بيتي.

❖ ولو لم يكن من سيرة أحمد أمين إلا هذه المشاهد لكان كافياً عن كل حرف يأتي بعد ذلك في عظمة دور الأسرة ومركزية دور الأبوين في ذلك، وأحسب أنه درس صالح لكل أسرة بغض النظر عن إيجابياته أو سلبياته.

❖ يذكر لك أحمد أمين أن التفاصيل الدقيقة التي تجري منه فيما بقي من حياته إنما هي أثر لتلك التربية التي تلقاها، حتى الجوانب النفسية ألقت بظلالها في النهاية عليه في كل شيء.

لقد قرأت بعد ذلك الكثير مما يخالف هذه التعاليم وصاحبت أهل المرح وسمعت آراء الإلحاد، وأنصتُّ إلى من ينصحني بالابتهاج بالحياة، وتعاقبتْ أمام ناظري أنواع الحياة المختلفة والمظاهر المتباينة ونحو ذلك، ولكن تَسرُّب بعض هذه الأشياء إلى عقلي الواعي كان على السطح لا في الصميم، أما شعوري العميق وما له الأثر الكبير في الحياة من اللاوعي فمنشؤه البيت، كانت الصفحة بيضاء نقية تستقبل ما يقع عليها وتدخره في خزانتها، ثم تكون له السيطرة الكبرى على الحياة مهما طالت.

❖ كثيرون يزهدون في التربية الأسرية ويكررون أن الأبناء سيخرجون يوماً من الزمان إلى الحياة العامة، وسينقضون تلك العهود التي أبرمت معهم، وسيتنازلون عن تلك القيم التي ظلوا يعيشون في مباهجها، وسيتحولون إلى نسخ جديدة، وسيتفاعلون مع الزمان بكل ما فيه من تخلٍّ عن القيم والمبادئ الكبرى، وما يزال أصحاب هذه الظنون يزهّدون في هذه المعاني الكبار، والحقيقة أن الأسر التي اعتنت بالتربية وفق منهج الوحي وعلى سنن السيرة النبوية ستظل ـ بإذن الله ـ متماسكة قوية صلبة أمام العالم الجديد، وإن حصل خلاف ذلك فهو عارض خلاف الأصل، لقد كانت التربية الدينية التي بناها والد أحمد أمين في حياته على رغم شدتها وقوتها إلا أنها بقيت صلبة في مواجهة الأحداث الجديدة، وها هو يخبرك ويقول لك: (لقد قرأت بعد ذلك الكثير مما يخالف هذه التعاليم وصاحبت أهل المرح وسمعت آراء الإلحاد، وأنصتُّ إلى من ينصحني

بالابتهاج بالحياة، وتعاقبتْ أمام ناظري أنــواع الحياة المختلفة والمظاهر المتباينة ونحو ذلك، ولكن تَســرُّب بعض هذه الأشياء إلى عقلي الواعي كان على السطح لا في الصميم)، فدعك وما يقال لك فقد قال ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُولَدُ علــى الفطْرةِ، فأبواهُ يهوِّدانهِ أو ينصِّرانهِ أو يمجِّســانهِ**»، وقال الأول: التربية في الصغر كالنقش في الحجر، وقال الشاعر:

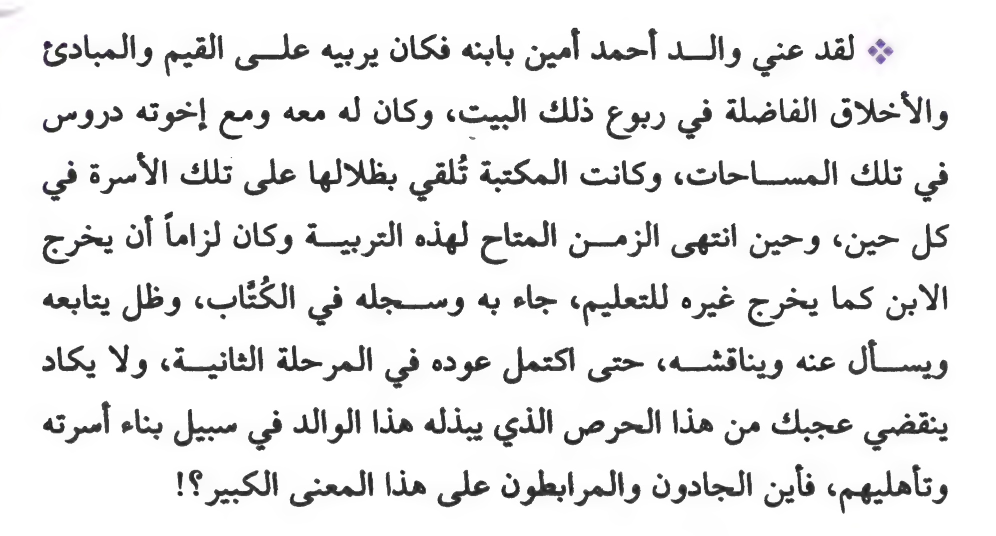
وينشــأ ناشــئ الفتيــان منــا　　علــى مــا كان قــد عــوده أبوه

لأعدّ حارتي: المدرسة الثانية التي تعلمت منها مبادئ السلوك، وتبادلت مع أبنائها عواطف الحب والكره والعطف والانتقام والألفاظ الرقيقة وألفاظ السباب، وانطبعت منها في ذهني أول صورة للحياة المصرية الصميمة في سلوكها وأخلاقها وعقائدها وخرافاتها وأوهامها ومآتمها وأفراحها وزواجها وطلاقها، إلى غير ذلك.

❖ صدق رحمه الله تعالى، تلك المباني الكبرى التي يتلقاها الأبناء في الأســرة أول تجربة تطبيقية لها تكون في وســط أبنائها ومع رفقــاء الدرب فيها، وهذه خُلطة لا سبيل للفكاك منها ومؤثرة في البدايات، وينبغي أن تتعامل معها الأسرة من خلال زاويتين، الأولى: وجود برامج ومشاريع قِيمية تأخذ جزءاً كبيراً من حياة الأبناء كمشــاريع حفظ كتاب الله تعالى، سواء ما كان منها في المســجد أو ما جرى فيها من أنشــطة تعين الأبناء على استثمار أوقاتهم في أجــواء تربوية، وتخلق فيهــم روح التنافــس الجاد في تلك المســاحات، والثانية: وجود برامــج مجتمعية لتلك الأحيــاء، وللصغار

والشباب منهم على وجه الخصوص، سواء كانت برامج ومشاريع تقنية أو مباشرة، حتى تنمو تلك القيم التي كانت تجري في ظلال الأسرة، وتجد لها مساحات عامة للتطبيق، حتى لا تظل تلك الجهود التربوية بمعزل عن الحياة العامة التي سينتقل إليها الأبناء وهم في باكر أعمارهم وأول سلالم الحياة.

الكُتَّاب هي المدرسة الثالثة في حياتي، في تلك الحجرة المتصلة بالمسجد في تلك الحقبة من الزمن، وكان يجلس فيها شيخ يلبس العمامة وبيده عصا غليظة، كنا نتعلم فيها القرآن، وكنا نبقى فيها للعصر، ويمر الأب فيسأل المعلم عن ابنه ويطلب منه أن ينفض له الفروة، أي: يشدوا على الطفل ويضربوه، فلا تعجب بعد ذلك إذا وجدت أرواحاً ميتةً ونفوساً كسيرةً، ومن أجل هذا كان أكره شيء علينا الكُتَّاب والمعلم، وختمت في الكُتَّاب ألف باء على طريقة عقيمة جداً، وتنقلت في أربعة كتاتيب من هذا القبيل، كلها على هذه الصورة لا تختلف إلا في أن الحجرة واسعة أو ضيّقة، وأن سيدنا لين أو شديد، وأنه أعمى العينين أو مفتوح العينين، أما أسلوب التعليم فواحد في الجميع، ولبثْتُ في هذه الكتاتيب خمس سنوات حفظت فيها القراءة والكتابة، وكان لي من حجرة أبي في البيت يوم الجمعة وفي أوقات الفراغ كتَّابٌ آخر سيدنا فيه هو أبي، أحفظ فيه جديداً وأسمع فيه قديماً.



❖ لقد عني والـــد أحمد أمين بابنه فكان يربيه علـــى القيم والمبادئ والأخلاق الفاضلة في ربوع ذلك البيت، وكان له معه ومع إخوته دروس في تلك المســاحات، وكانت المكتبة تُلقي بظلالها على تلك الأسرة في كل حين، وحين انتهى الزمــن المتاح لهذه التربيــة وكان لزاماً أن يخرج الابن كما يخرج غيره للتعليم، جاء به وســجله في الكُتّاب، وظل يتابعه ويســأل عنه ويناقشــه، حتى اكتمل عوده في المرحلة الثانيــة، ولا يكاد ينقضي عجبك من هذا الحرص الذي يبذله هذا الوالد في سبيل بناء أسرته وتأهليهم، فأين الجادون والمرابطون على هذا المعنى الكبير؟!

❖ لقد كانت الكُتّاب في نظر أحمد أمين تلك الحقبة فيها شــيء من الرتابة المملة، وإن كانت في المقابــل صنعت أحلاماً لأصحابها وتعلموا فيها شيئاً كثيراً، وكونت منهم رجالاً لمستقبل الغد، ومهدت الطريق على كثيرين، وتبقى ظروف ذلك الزمن موجبة لتلك الصور التي يحكيها أحمد أمين في ذلك الوقت.

❖ يقابل الكتاتيب في واقعك اليوم حِلق تحفيظ القرآن، ولئن كانت شــكوى أحمد أمين في تلك الحقبة من الكتاتيب مرة على رغم ما تركته في نفسه من بناء علمي، فكذلك حلقات التحفيظ اليوم ينالها نصيب من تلك الشكوى وبذات المرارة.

❖ ما زالت الفروة التي يحكي لك أحمد أمين عن قســوتها موجودة ولو في زوايا ضيقــة، وإن اختفت تلك الفروة فما تــزال صور الواجبات الكبيرة والضبط والحفظ والمراجعة مــن دون أن يكون هناك حافز لتلك المعاني الكبــار، وما زال معلم هــذه الحِلَق يفكّر بــذات تفكير صاحب الكُتّاب في زمان أحمد أمين تماماً، ويــرى الفروة لا بد من وجودها وإلا

ضاع منه كل شيء وفاته أن الإنســان الكاره لا يمكن أن يصل إلى شيء، ولو حفظ كل ما بين دفتي كتاب الله تعالى خوفاً ووجلاً فإن نهايته للضياع ولن يبقى له منه شيء، وفرق بين معلم يعتبر هذه الحلق مشروعاً، وهؤلاء الأبناء مــن أعظم مــوارده، ويبذل في ســبيل ذلك كل ممكــن، ويعتني بالترغيب في مقابل الترهيب، ويجتهد في حفز هؤلاء الأبناء بكل السبل الممكنة ويظل يراوح بيــن هذه المعاني حتى يأتي علــى أمانيه من تلك الأجيال، ومعلم ما زال يفكّر بذلك التفكير فهو يجمع صوراً وأشكالاً ولا يكاد يصنع جديداً.

❖ لن تختلف حلق التحفيظ عن تلك الكتاتيب التي يشكو منها أحمد أمين إلا إذا اعتقدنا أن هذه الحلق مشــروع وقضية تستحق العناء، لأنه لا سبيل لإقناع تلك الأجيال بشيء من أحلامهم في الغد إلا من خلال العلم، ولا سبيل إلى العلم إلا من خلال العلاقة المتينة بالكتاب، على أن يدرك المعنيون والقائمون على إدارة هذه الحلق قضية الأنشطة ودورها التحفيزي الكبير في بناء تلك الأجيال وحفزهم على الاســتمرار، وإلا تحولت تلك المساحات وهذه الهموم إلى عقبات شاقة وصور مكروهة في نفوس تلك الأجيال مع الزمن، ثم في النهاية لا شيء.

❖ مشــكلة هذه الحِلق اليــوم أنها تتعامــل مع الأطفال والشــباب المعرضين عن هــذه المعانــي معاملة الكبــار الراغبين فيهــا، فتجدهم يدرّسونهم في مســاحات خالية من الإبداع، ولا يتكلف المعلم أن يأخذ معه شيئاً من الحوافز التي تخلق في نفوســهم الفرح، وتسهم في إقبالهم على هذه المســاحات، وهذا الطالب يبدأ في مشــروع ضخم كبير طويل

المسافة ولا يدري متى ينتهي منه، ولا كيف يصل إليه، ولو أن هذه الحلق اعتنت بالتحفيز فَسنَّت نظاماً للرحلات الطويلة والقصيرة، ووضعت برنامجاً للحوافز على مستويات قصيرة المدى وعاجلة وآنيّة، وقليلة وطويلة الأمد وكبيرة مؤثرة، وأعدت لكل منتسب إليها قدراً للحفظ، وأوضحت له متى سيبلغ تلك النهايات، وعلّقت ذلك على جدار الحلقة ليكون حافزاً للتقدم ورادعاً عن التأخر، ودفع من تلك الجداول صورة لأسرة كل طالب لتعرف متى النهاية، وتشارك في صناعة واقع أبنائها في مستقبل الأيام، وعملت على إعداد وسائل وطرق تجيب على الأسئلة الكبار في هذا المشروع: كيف أحفظ؟ كيف أراجع؟ متى الوقت المناسب؟ ما الثمار والفوائد والعوائد التي ستنالها من خلال هذا المشروع أنت وأهلك؟ لكونت آفاقاً جديدة لهذا المشروع. باختصار: مات أحمد أمين وهو يئنُّ من شكوى تلك الكتاتيب، فعلينا أن نستفيد من تجارب الآخرين ونبني من خلالها تجاربنا التي نريد لها النجاح في مستقبل الأيام، وإلا ستموت هذه الأجيال بذات الشكوى.

❖ يأسرني هذا الشعور الذي يحكيه أحمد أمين عن والده (وكان لي من حجرة أبي في البيت يوم الجمعة وفي أوقات الفراغ كتَّاب آخر سيدنا فيه هو أبي، أحفظ فيه جديداً وأسمع فيه قديماً) إلى أقصى مدى! وتعجب لرؤيته في بناء أسرته واعتبارها مشروعاً، وما حاجة الأسر اليوم إلى شيء حاجتها لهذا المعنى الكبير.



❞

كل شيء من حولي كان كفيلاً أن يُميت الذوق ويُبلِّد الحس ويقضي على الشعور بالجمال، فحارتنا متربة لا يمسها الماء إلا إذا نزل المطر أحالها بِرَكاً، وشوارعنا قَذرة لا يُعنى فيها بكنس ولا رش، وإذا كُنست أو رُشت فالمارة خليقون بأن يفسدوا كل شيء في لحظة، وبيتنا لم يكن يعتني بتربية الذوق أية عناية غير ما كان أبي يشتري في موسم النرجس بعضاً من أزهاره ويضعه في كوب الماء على الشباك ويشمه من حين لآخر، ولكن ماذا تعمل هذه اللفتة القصيرة بجانب ما يغمرنا من قبح في الحارة والشارع والكتاتيب، وما فيها من منظر الحصير ومنظر سيدنا ومنظر الزير والمواجير؟! لقد كانت كل هذه تكفي لإماتة الشعور بكل جمال، والشعور بالجمال أكبر نعمة، وتربية الذوق خير ما يقدَّم إلى الناشئ حتى من ناحية تقويم أخلاقه.

❝

❖ الجمال نعمة، وهو كما أنه هبـــةٌ من الله تعالى في بعض صوره إلا أنه كذلك صناعة يمكن أن تعاد تراتيلها في كثير من المشاهد التي نعيشها وتأتي في النهاية كاملة الفصول والأحداث، في مرات يكون هذا الجمال في صور إنسان، وفي أخرى في خُلُقِه وسِعة نفسه وبسطة مشاعره، وثالثة تراه في قدرته على ترتيب أولياته والإصرار على مشروعه وفكرته، ورابعة تراه فيما حولك من الأشياء، وصور هذا المعنى كثيرة في مساحات أخرى، فخذ منها ما يمدك بالجمال.

❖ إن عنايتك بنفسـك دليل وعي، وقد قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجَمال»، وكان ﷺ أجمل الناس، ومن فقهك أن تصنع الجمال من خلال ذوقك وفكرك ومشـاعرك، وأن تمد في تلك الفصـول من خلال ترتيب وقتـك وتنظيم أهدافـك، وتأتي على مشـاهد الجمال من خـلال نظافة وترتيب غرفتك وسيارتك وكل شيء من حولك، ولا تسمح بالفوضى في أي جزء من حياتك.

❖ ثمة إنسان إذا استيقظ من غرفته رتّبها وأعاد كل شيء إلى موضعه، ويأتي مكاناً ما ويقضي منه أغراضه ثم لا يودّعه حتى يعيد ترتيبه وتنظيمه، ولا يمكن أن يسمح لنفسه أن يرمي شـيئاً من المخلفات التي في يده في عرض الطريق، بل يبقى باحثاً عن حاوية يضع فيها تلك المخلفات، ويعتبر نفسـه جزءاً من النظافة والنظام، وأسـوأ ما يرى هذا أولئك الذين يأكلون فيرمون تلك البقايا في عرض الطريق، ويجلسون في حديقة ما ثم يتركون فيها كل معاني الفوضـى، ولا يأتون مكاناً إلا تركـوا فيه مخلفات تدمي مشاعرك إلى أقصى مدى.

❖ عدم النظافة أو الترخص في رمـي المخلفات في الطريق جزء من مشـكلة الأفكار والمفاهيم والتصورات، حتى أنك ترى هذا يمارس دور المسؤول في مسجد الحي فيلقط أي شيء يؤثر في نظافته، ثم يخرج بعد دقائق للشارع العام فتراه يمده بالأوساخ والمخلفات، لفهمه أن ذلك مكان للعبادة وهذا مكان لا علاقة له بمفاهيم العبادة في شيء.

❖ لقد رأى النبي ﷺ رجلاً يتقلب في الجنة لأنه أزاح غصن شوك من الطريق، وواجب المثقفين كبير تجاه بناء هذه المعاني وغيرها في أوساط المجتمعات ومد المساحات الخضراء في ربوعها.

"وأَحمدُ لأبي أنه أخرجني بعد ذلك من الكتاتيب الكريهة وأدخلني مدرسة ابتدائية، مدرسة نموذجية على أفخم طراز وأجمله، ولبست بدلة بدل الجلباب وأحسست علواً في قدري ورفعة في منزلتي، وشهدت في هذه المدرسة ثلاثة تطورات للتعليم، ولعلها هي تطورات التعليم في مصر، فقد كانت المدرسة لتعليم القرآن وشيء من الحساب واللغة العربية والتركية، ثم انكمش هذا النوع من التعليم فأصبح فصلاً واحداً بعد أن كان يعم المدرسة كلها، وأنشئت بجانبه فصول على النمط الحديث تُعلِّم الجغرافيا والتاريخ والحساب مع اللغة الفرنسية، ثم نمَتْ هذه الفصول حتى اكتسحت قسم الحفاظ، وشهدت بالمدرسة قبل خروجي منظراً جديداً فقد رأيتهم يجمعون الطلبة الضعاف في اللغة الفرنسية لينشؤوا لهم فصولاً لتعلم اللغة الإنجليزية، ثم اكتسحت اللغةُ الإنجليزية اللغةَ الفرنسية."

❖ كان والد أحمد أمين يحاول في كل مرة أن يسلك طريقاً صالحاً للبناء، فبدأ بالكتاتيب ثم انتقل منها بعد ذلك للمدارس، وليس بالضرورة أن يأتي الأب في كل مرة على موافقة رأي ولده خاصةً أنه في باكر عمره لا يعرف مصالحه، وإن كانت مثلت له مرحلة المدرسة روحاً ومعنى، سواء في شكل المدرسة وبنائها الزاخر أو بدلته التي تعوّض بها عن الجلباب كما يقول، وحسب الوالد في هذه المراحل أن يجتهد وسعه ويكثر من دعاء الله تعالى حتى يأتي من خلال ذلك على أمانيه.



❖ تحدث بعد ذلك عن التغيرات التي مر بها التعليم في مصر، وكل تجربة يغيب عنها الوحي ستضل الطريق ولو كانت تملك كل شيء، ولو لم يكن من ذلك إلا ما قاله ﷺ: «**تركْتُكم على المحجَّةِ البيضاء، ليلُها كنهارِها لا يزيغُ عنها إلَّا هالك**»، وقال ﷺ: «**عليكُم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشدينَ المَهْديِّينَ من بَعْدي، عضُّوا عليها بالنَّواجذ**»، وقال الإمام مالك كلمته الشهيرة: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها.

❞

وضع لي أبي برنامجاً مرهقاً لا أدري كيف احتملته؟! كان يوقظني للفجر فأصلي معه، ثم أقرأ جزءاً من القرآن وأحفظ متناً من متون الأزهرية كألفية ابن مالك في النحو، حتى إذا طلعت الشمس أفطرت ولبست ملابسي وذهبت إلى المدرسة إلى الظهر، وفي فسحة الظهر أتغدى على عجل وأذهب إلى كُتَّاب بمسجد قريب من المدرسة، وقد اتفق أبي مع فقيه الكُتَّاب أن أسمِّع جزءاً من القرآن، حتى أسمع جرس المدرسة فأذهب للفصل، فإذا انتهى دوام المدرسة عدت للبيت ولبست جلباباً وذهبت إلى المسجد الذي أبي إمامه، فمكثت معه من قبيل المغرب حتى يصلي العشاء أستمع لدرسه الذي يلقيه في المسجد بين المغرب والعشاء، ثم أعود معه للبيت، وفي أثناء الطريق يُحفظني بيتاً من الشعر أو بيتين، ثم يسألني عن إعرابه فأعربه ويصحح لي خطئي، ثم أتعشى وأنام. وليس لي من الراحة إلا عصر يوم الخميس ويوم الجمعة، وسبب هذا البرنامج أن أبي كان حائراً في مستقبلي: أيوجهني إلى الجهة الدينية فيعدِّني للأزهر، أو يوجهني الوجهة المدنية فيعلمني في المدرسة الابتدائية والثانوية؟

وكنت أدرك حيرته من كثرة استشارته لمن يتوسم فيه حسن الرأي، وهم لا ينقذونه من حيرته، فأمسك العصا من وسطها فكان يعدني للأزهر بحفظ القرآن والمتون، ويعدني للمدرسة المدنية بدراستي في المدرسة، وهذا أسوأ حل، ولكن جزاه الله خيراً على تعبه المضني في التفكير في مستقبلي، وغفر الله له ما أرهقني به في دراستي، وكان هذا الضغط الشديد مثاراً لثورتي أحياناً، فربما كنت أهرب من فقيه المكتب ظهراً أو من الذهاب إلى أبي في العصر، أو أدعي المرض وليس بي مرض.

❖ يا لجلال هذا الوالد المبارك! ويا لروح فكرة المشروع في فكره ومشاعره! وكأنما خلقه الله تعالى لأحمد أمين فحسب! تركيز مدهش على كل لحظة من حياته، ومحاولات جادة في صناعة نموذج يأتي من خلاله على آماله الكبار، فلا تكاد تقرأ سطراً في هذه السيرة الذاتية إلا وقعت منها على حرف أحمد أمين وهو يعيد فصول تلك التربية الجادة التي كان يتلقاها من والده، فأين هذا الواقع من أوقاتكم يا معاشر الآباء والمربين؟! أين هذا الجَلَد الذي يبذله هذا الوالد وهو يرعى قول رسوله ﷺ: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مَسْؤولٌ عن رعيَّته**»؟!

❖ قد لا تظفر اليوم في كثير من بيوت المسلمين بمَن يُعلّم القيم الكبرى وأصول القيم الفاضلة وكليات الوحي، فضلاً عن التدريب والتأهيل عليها، ووالد أحمد أمين يصنع مدارس بمراحلها ومناهجها ومقرراتها لولد واحد، ولك أن تقرأ الجدول اليومي لأحمد أمين وكيف كان يتنقل بين المدرسة والمسجد والبيت في ذات اليوم.

❖ مع جلال وجمال هذا الحرص الذي كان يصنعه والد أحمد أمين مع ولده إلا أن هذا الضغط مكلف على القلوب والمشاعر على الصغار خاصة، ومثل هذه البرامج تصعب حتى على الراغبين، فكيف بشاب في مقتبل عمره وهو غير راغب، وإنما يجري في فلك رغبة أبيه فحسب؟! ولا ينبغي بحال أن تدخل الأسر مع أبنائها في مشاريع وبرامج وخطط بمثل هذا الضغط البتة، ونتائجها في زمانك مكلفة، وأحداثها في النهايات مؤلمة وسيئة في الغالب الأعم، وثمة تجارب واقعية مؤلمة وخطيرة، وعلينا أن نترفق ونفتح مساحات الحوار ونُدير النقاشات ونبين آثار العلم على أصحابه ونفتح برامج أسبوعية، ونثير مشاهد القدوة من خلال مَنْ حولنا من الأسر، ونبذل تحفيزاً مغرياً، ونصنع أجواء غير عادية للإغراء بمثل هذه المعاني الكبار، مع صلاح أنفسنا وتحملنا بعض أو كل مشاهد القدوة في تلك المعاني، وكثرة الدعاء وحسن المقصد والانطراح بين يدي الله تعالى وسؤاله آناء الليل والنهار، ولعل الله تعالى يكرمنا بتحقيق تلك الآمال الكبار في مستقبل الأيام.

❝

تعلمت من المدرسة دروسها وتعلمت من التجارب أكثر من دروسها، فلعبي مع التلاميذ ومبادلتي إياهم العواطف ورؤيتي إياهم يتصرفون في الأمور تصرفاً مختلفاً حسب مزاجهم وعقليتهم، كل هذه كانت دروساً في الحياة أكثر من دروس العلم، بل المدرسون أنفسهم كانوا معرضاً لطيفاً فيه الجمال والقبح، والرعونة والسكينة وما شئت من ألوان الحياة.

❞



❖ لا تظن يوماً أن المعــارف كافية في إقناع هــذه الأجيال بدروس الحياة، تظل هذه المعارف مجرد حقائق عادية يؤمن بها من يتلقاها، ولكنه ربما عاش زماناً لا يجد لها تطبيقاً في واقعــه، وتظل التطبيقات الكبرى، والتجارب الحية هي مــا يراه من أفعال تلك الأســرة، ومشــاهد أولئك المعلمين، وما يلقاه من رفاقه في ربوع الحي كل يوم.

❖ إن عنايــة المعلم ـ كمثــال ـ بوقته وحرصه علــى دخول حصته في الوقت المحدد وعــدم تخلفه، وملاطفتــه لتلاميذه، وصدقــه معهم، ولينه وسماحته ســتفتح ألف طريق معبَّد لكل ما يقول في نفوس أولئك الصغار، وكرم الوالد وعطاؤه وســماحته وســعته وجمال أخلاقه ســتصنع مشــاهد للجمال، وتلــك التصرفــات التي يمارســها أصدقاء الحي هــي التجارب التطبيقية التي سيتعلم من خلالها دروسه فيما بقي من الزمان، وما عدا ذلك من الأفكار والمفاهيم والتصورات التي نحرص عليها مع أهميتها يجب أن تأتي في ثوب قصة وعمل ومســرح تمثيلي ومشــهد للتربيــة، حتى تكوّن معالمها الكبرى في نفوس أولئك الصغار، وإلا صارت لا قيمة لها في شيء.

❞

كنت في هذه السن متديناً أشد التدين، وكان بالمدرسة مسجد صغير أُعد إعداداً حسناً، فكنت أصلي فيه الصلوات لأوقاتها وأقوم الليل وأتهجد، وأحب الله وأخشاه، وتنحدر الدموع من عيني أحياناً في ابتهالاتي، وأسجد فأطيل السجود والدعاء، واستمررت في دراستي في المدرسة وأبي لا يهدأ من التفكير، أيتركني أكمل دراستي أو يخرجني ويدخلني الأزهر؟ ويسألني وأجيبه: أحب أن أبقى في المدرسة، ويسأل من يعرفه من موظفي الحكومة فيوصيه

ببقائي في المسجد، ويسأل من يعرفه من مشايخ الأزهر فيوصيه بإدخالي الأزهر، ويتردد ويتردد ثم يستخير الله ويخرجني من المدرسة إلى الأزهر.

❖ لقد ألقت تلك التربية على رغم شدتها وقوتها بعض مباهجها على أحمد أمين؛ وتخرج من خلالها عابداً يقيم الصلاة في وقتها ولا يتخلف عنها، ويقوم الليل ويتهجد ويبكي من أثرها، ولو أن أسرة صنعت لَبِناتٍ لهذه المعاني ولو يسيرة مع صلاح نية وكثرة دعاء لكانت مثاراً للجمال، فكيف لو بذلت ما تملك في هذا الطريق؟!

❖ واحدة من القناعات المهمة التي لا ينبغي أن تنفك من فكرك: أن كل غرس سينبت يوماً ما، وما تفعل من جهد سيترك آثاره ولو بعد حين، وما تدفعه من جهود سيكون ربيعاً ولو طال الزمان، كن على الطريق سواء كنت أباً أو معلماً أو مربياً، وابذل ما في وسعك، ولا تتخلف عن الجادة المطروقة، وستلقى ما يبهج قلبك ومشاعرك في قادم الأيام.

❖ ادخال ولدك حلقة التحفيظ وحرصك على حفظه لكتاب الله تعالى، وعنايتك بتعليمه، واصطحابه معك للتدريب، وتأهيله وحفزك وإغراؤك له سيفتح لك أبواباً إلى قلبه وعقله ومشاعره، وتلك القيم التي تحاول أن تبنيها في أسرتك من خلال قدوتك، ودرسك الأسبوعي، والمسابقات ستكوّن جُدُرَاً صلبة صالحة للبناء في مستقبل الأيام.

❖ هذا المعنى الذي يحكيه أحمد أمين عن والده (وأبي لا يهدأ من التفكير، أيتركني أكمل دراستي أو يخرجني ويدخلني الأزهر) يحتاج أن تقرأه كل أسرة وتأخذ منه دروساً للزمان: قَلَق بناء الغد وكيف يكون؟ وما الطريق

الأمثل له؟ وأين؟ هموم تعتلج في قلبه ولا يدري ما المكان الذي سيحقق له تلك الأماني في قادم الأيام، لقد بلغ من حرصه وهمّه أنه يسأل ولده، ويشاور من حوله، ويستخير ربه (ويسأل من يعرفه من موظفي الحكومة فيوصيه ببقائي في المسجد، ويسأل من يعرفه من مشايخ الأزهر فيوصيه بإدخالي الأزهر، ويتردد ويتردد ثم يستخير الله ويخرجني من المدرسة إلى الأزهر) ثم يذهب في النهاية إلى ما يراه الأقرب والأنسب والأصلح من وجهة نظره، وحسب الإنسان بذل وسعه وما بقي على الله تعالى.

❖ لسنا مكلفين بالسؤال عن ثمار هذه أو تلك التربية، لأن مسألة الهداية بيد الله تعالى، مسؤوليتنا الكبرى أن نبذل ما في وسعنا عملاً بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦] وما بقي فلله بكل ما فيه من التفاصيل والأحداث والنتائج، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

ها أنا في سن الرابعة عشرة تقريباً يلبسني أبي القباء والجبة والعمة والمركوب بدل البدلة والطربوش والجزمة، ويكون منظري غريباً على من رآني في الحارة أو الشارع، وكثيراً ما كانوا يضحكون مني فأحس ضيقاً أو خجلاً، وأتلمس في مرات الحارات الخالية من الناس لأمر بها، ونفرَ مني زملائي مع حنيني إليهم، وسرعان ما انقطعت الصلة بيني وبينهم فانقبض صدري لأني فقدت أصدقائي القدامى ولم أستعض عنهم بأصدقاء جدد، فكنت كالفرع قطع من شجرته أو الشاة عزلت عن قطيعها أو الغريب في بلد غير بلده، وتضرعت إلى أبي أن يعيدني إلى مدرستي فلم يسمع، وأن يعفيني

من العمة فلم يقبل، وما آلمني أني أحسست العمامة تقيدني فلا أستطيع أن أجري كما يجري الأطفال ولا أمرح كما يمرح الفتيان فشخْتُ قبل الأوان، والطفل إذا تشايخ كالشيخ إذا تصابى، كِلا المنظرين ثقيل بغيض، كمن يضحك في مأتم، أو يبكي في عرس. ولم يكن أمامي إلا أن أحتمل على مضض.

❖ مع جلال وجمال روح المشروع في مشاعر هذا الوالد إلا أنه رحمه الله كان يريد من أحمد أن يكون صورة طبق الأصل لأمين، فقد ألبسه همومه ومشـــاعره وكوّن منه صورة لذاته حتى في لباسه ومساره، وما هكذا تورد الإبل يا أمين رحمـــك الله تعالى وغفر لـــك! وإن كان هذا الحرص الذي يفيض منك جمالاً وجلالاً وروحاً ويصلح أن يكون سراجاً للحياة، إلا أنه كان بحاجة إلى سعة تمنح أحمد على الأقل جزءاً من القرار، ولا تحيط به إحاطة المعصم بالسوار، وإن كنا ندرك أنه فلذة قلبك وبعض من مشاعرك وروحك، وحسبك أنك بشر من الخلق وتريد له كل شيء.

❖ كثيـــرون أولئك الذين اتخذوا قـــراراً باختيار تخصصـــات أبنائهم ففشلوا في النهايات وتعثروا، وبقوا ما بين مخفق من البداية وما بين ناجح ولكن في غير فنه وتخصصه، فعاش في ذات المجال دهراً طويلاً يخاصم نفسه وقراره في كل صباح، ويتحسر على زمانه الفائت في كل حين، وما أحســـن أن يكون هذا القرار الكبير شـــراكة في الرأي بين الأسرة وابنها، بشـــرط أن تكون قضية القدرات والطاقات والمهارات والإمكانات قضية أساســـية في النقاش! وليس سوق العمل أو مطالب الأســـرة الخاصة، أو البحث عن شهرة ومكانة من خلال تلك القرارات، وأن يكون سهم الابن

من القرار ما يزيد على الثلثين، لأنه هو الذي سيخوض التجربة ويلظى أو يسعد بالقرار.

❖ لك أن تتخيّل شاباً أراد منه والده شيئاً وصنع له كل شيء ولم يدع له فرصة في القرار حتى في لباسه، حتى ضحك منه أهل الحارات وبلغ به الضيق إلى أنه يبحث عن الطرق والأزقة التي لا يمشي فيها أحد من الخلق حتى لا يُتندّر به، وفر منه الأصدقاء وجفاه الزملاء وبقي وحيداً، وكل هذا صناعة والد يحبه ويبحث له عن النجاح، وهل كان يعرف أمين هذا الأسى الذي تركه في مشاعر ولده، وهو يريد أن يصنع له موقعاً بين العالمين؟!

❖ كل أب يريد لابنه النجاح فعليه أن يقرأ هذا الأثر الذي تركه الحرص الزائد من والد على ولده يوماً من الدهر (وما آلمني أني أحسست العمامة تقيدني، فلا أستطيع أن أجري كما يجري الأطفال ولا أمرح كما يمرح الفتيان فشخت قبل الأوان، والطفل إذا تشايخ كالشيخ إذا تصابى، كلا المنظرين ثقيل بغيض، كمن يضحك في مأتم، أو يبكي في عرس. ولم يكن أمامي إلا أن أحتمل على مضض) حتى لا يمشي في ذات الطريق أو يقع في ذات التجربة فيخلق مثل هذا الأسى في واقع أبنائه بعد زمن من الدهر.

”

هذا أبي يأخذني معه كل صباح يوم فأسير في شوارع لا عهد لي بها وأمشي فأطيل المشي، لا كما كان العهد يوم كنت في المدرسة، وأخيراً أصل إلى بناء كبير فيقول أبي هذا هو الأزهر، ولا أدري كيف كان وقع هذه الكلمة على نفسي، أقدم عليه في هيبة وغموض، وأسمع

عند الباب صوتاً غريباً دوياً كدوي النحل فتأخذني الرهبة، وأرى أبي يخلع نعليه عند الباب ويطويهما ويمسكهما بيده، فأعمل مثل عمله وأسير بجانبه، وأرى على كل كرسي شيخاً معمماً ويمسك بيده ملزمة من كتاب، والشيخ يقرأ والطلبة ينصتون، تخطيت هذه الجموع في غرابة ونظرت إليها في دهشة، وفهمت من هذا أني سأجلس على الحصير كما يجلسون وأسمع كما يسمعون، وقارنت بين الأزهر وفناء المدرسة فكانت مقارنة حزينة، وامتحنت عند أحدهم فأحسنت الإجابة فقيدني طالباً، وعدت إلى بيتي والهمُّ يملأ قلبي، ولكن الزمن بلسم الهموم، فقد أخذ يقطع صلتي بالمدرسة وبأصدقائي فيها، وينسيني ذكرياتي الماضية، ويشغل قلبي بالحياة الحاضرة، ويؤلّف بيني وبين البيئة الجديدة.

❖ تخيل الفارق الكبير بين أحلام والد بنى أمانيه على مراده هو وشكّل صورة للنهايات التي يريدها بعد سنوات بنفسه ولم يشرك ولده في قرار مستقبله ولا أخذ رأيه في قضية مفصلية كهذه، بل جعله دمية يقوده حيث أراد ويسلك به إلى أي مكان شاء، وظن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه بمجرد أن يجلس في رحاب الأزهر أو يقعد بين سواري ذلك البناء فسيتحوّل إلى عالم يملأ الدنيا بفقهه وعلمه، وفاته أنه أوصل جسداً ولكنه في ذات الوقت لم يقنع الروح، وكل ما جرى من ابنه في تلك المساحات ما كانت إلا نتيجة طبيعية متوقعة جداً لمن وصل إلى مكان لا يعرف ماذا يراد منه في النهايات، أو عرف ولكن لم يكن ذلك التناغم بين روحه ومشاعره وبين تخصصه ومجاله الذي أراده له والده.

❖ يا أيها الآباء! اصنعوا مساحات للحب، وافتحوا قلوبكم وعقلوكم للحوار، ومدوا في صور الجمال بينكم وبين أبنائكم، وإياكم ألف مرة أن تحاولوا أن تجبروهم على تخصصات أو مجالات لا علاقة لهم بها في شيء، أعينوهم بتجاربكم على فقه الواقع وافتحوا أمامهم كل الفرص الممكنة وبيّنوا لهم مشكلات الزمان، ثم دعوهم يخوضوا القرارات الكبرى في النهاية بأنفسهم؛ لأنهم هم الذين سيواجهون الحياة بكل تفاصيلها.

❖ يذكرك أحمد أمين قائلاً: أياً كانت أحزانك، وظروفك البائسة، وأياً كان فقدك سيعوضك الزمان بالنسيان، حتى لو فارقت صديقك وحبيبك وسلوى خاطرك، وبكيت ألف مرة، وجرت عليك غصص الحرمان، سيعينك الزمان على ردم تلك الآلام وسينسيك كلها أو جلها في مستقبل الأيام، وستأتي أوقات وكأنك لم تلقَ هؤلاء في طريق أو تسمع لهم في مجلس، فضلاً عن أن تذكر أنه جرى بينك وبينهم مشوار طويل في الحب والجمال كما قال لك: (ولكن الزمن بلسم الهموم، فقد أخذ يقطع صلتي بالمدرسة وبأصدقائي فيها، وينسيني ذكرياتي الماضية، ويشغل قلبي بالحياة الحاضرة، ويؤلّف بيني وبين البيئة الجديدة).

بعد أن يُقيد الطالب في دفتر الأزهر يُترك وشأنه، فهو يختار العلوم التي يدرسها والكتب التي يقرؤها والمدرسين الذين يدرسونها، فإذا لم يرزق بمرشد يرشده غرق في هذا البحر الذي لا ساحل له، وليس يُعرف أحد غاب أو حضر تقدم في العلم أو تأخر ولا يمتحن آخر العام فيما درس ولا يسأله أحد ما صنع، فإن احتاج طالب في شأن من شؤونه أن يأخذ شهادة بأنه حضر الكتب الفلانية على المشايخ الفلانيين فما

عليه إلا أن يكتب ورقة كما يشاء وبالكتب التي يشاء وبالمدرسين الذين يشاء، ثم يمر عليهم فيوقعونها في سهولة ويسر ولو كانت هذه أول نظرة من المدرسين للطالب، ولو كانت سِنّه لا تتفق وهذه الكتب العويصة، فأي ضرر في ذلك؟! وبارك الله فيمن نفع.

❖ مُبهجٌ هذا الأزهر في هذا المعنى (بعد أن يُقيد الطالب في دفتر الأزهر يُترك وشأنه، فهو يختار العلوم التي يدرسها والكتب التي يقرؤها والمدرسين الذين يدرسونها)، وهذه من الحريات التي يجب أن تأخذ حظها من كل مساحة يتعلم فيها الإنسان ويتدرب من خلالها على ما يريد، سواء كانت مساحات رسمية أو مساحات أسرية أو برامج ومشروعات تربوية لا فرق.

❖ كان نظام الأزهر كنظام حِلق العلم في المساجد عموماً، لا يأتيها إلا راغب ولا يتوجه إليها إلا محب، وبالتالي ليس بالضرورة أن يُسأل عن حضوره وغيابه، انتظامه وتسربه، خاصة في مجال العلم كما يحكي أحمد أمين عن تلك الحالة التي يعيشها الأزهر في تلك الحقبة من الزمن (وليس يُعرف أحد غاب أو حضر تقدم في العلم أو تأخر ولا يمتحن آخر العام فيما درس ولا يسأله أحد ما صنع)، والأصل في كل من حضر هذه المجالس أن يكون راغباً ومحباً صادقاً وأميناً؛ ولذلك تعطى تلك التزكيات من دون أي نقاش، لأنه ما قيمة علم لا يملك صاحبه الصدق كما يقول أحمد أمين: (فإن احتاج طالب في شأن من شؤونه أن يأخذ شهادة بأنه حضر الكتب الفلانية على المشايخ الفلانيين، فما عليه إلا أن يكتب ورقة كما يشاء وبالكتب التي يشاء وبالمدرسين الذين يشاء، ثم يمر عليهم فيوقعونها في سهولة ويسر).



إذا جاء الشيخ وجلس على كرسيه جلسنا أمامه فيبدأ يقرأ الدرس بعد أن يبسمل ويحمدل ودعا بقوله: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت إذا شئت جعلت الصعب سهلاً، وكان الكتاب في يده وقرأ المتن ثم سَبَح بعد ذلك في تعليقات واعتراضات على العبارة وإجابات على الاعتراضات لم أفهم منها شيئاً، وبعد أن أحضرت كل ذهني ووجهت إليه كل انتباهي لم أفهم أيضاً، فشرد ذهني وأخذت أفكر وأستعيد ذكرى المدرسة التي كنت فيها ودروسي التي كنت أفهمها وأتفوق فيها وأصدقائي الذين كنت أزاملهم، وهؤلاء ليس لي بهم صلة وأسبح في الخيال ثم يعود ذهني إلى ما يلقيه الشيخ فأجده في ذات الجملة والاعتراضات والإجابات نفسها، واستمر المنوال على ذلك الحال ساعتين أو أكثر من غير أن ينتقل عن هذه الجملة، وسررت عندما قال الشيخ: والله أعلم، إيذاناً بأن الدرس قد انتهى. لقد فكرت في عودتي للمدرسة فلم أستطع، وفي طريقة الهرب فلم أوفق.

❖ مُرّة هذه الحقيقة التي يقررها أحمد أمين، وصدق في كل ما قال، وما زالت بعض رسومها إلى زماننا، وكم من شيخ بدأ في متن من المتون وبقي فيه السنوات، ومات الشيخ وما زال في فقه العبادات من الفقه، وفي الجزء الثاني أو الثالث من التفسير، وفي المرفوعات والمنصوبات من النحو لم يبرح البدايات بعد لانشغاله بالتفسير والتوضيح والشواهد، وخلفه آخر في المتن الثاني وتوقف لعارض عند بداية كتاب المعاملات من الفقه، وهكذا يذهب زمان طويل من عمرك وأنت تراوح في مكانك،

وغالب تلك الأوقات التي تُصرف لا تُصرف على فقه منطوق النص ومفهومه ودلالة الأدلة على تلك المسألة وقواعدها وضوابطها، بل على كلام مصنف من المصنفين وفيما يدخل في كلامه وما يخرج منه، وماذا قال وماذا يريد، حتى ذهبت كلّ أو جلّ أوقات الطلاب في غير تلك الأماني التي يحتاجونها، وإن كانت تلك المتون والمذاهب الفقهية على وجه العموم في تلك الأزمان نفعت الأمة نفعاً عظيماً وحققت نجاحاً كبيراً، وصارت مدارس على مستوى العالم وتخرج منها علماء وفتحت آفاقاً ضخمة وكبيرة ومؤثرة، إلا أنها مع كل ما تحقق لها فإنها اليوم في زمن ألقى بظلاله على أجياله الحاضرة بكل صوره وأشكاله، ومن الضرورة بمكان أن تراجع تلك المناهج وتيسّر وتقرَّب للأجيال الحاضرة، لأن من المستحيل أن تبقى هذه الأجيال تقرأ وتحفظ وتستشرح متوناً من القرن الرابع الهجري وهي في القرن العشرين، ويراد منها أن تكون بتلك القدرات والإمكانات والمهارات التي كانت في ذلك الزمان.

❖ حركة التجديد المنضبطة ضرورة في كل وقت، ولا يمكن أن نصعد لتلك الآمال التي نرومها إلا من خلالها، وإذا كان أحمد أمين يروي في تلك اللحظة ماذا يقال من أولئك المعلمين وبماذا يختم نصاً على اختلافهم وتنوعهم، فهي صورة من واقعٍ كان كذلك زمناً طويلاً، ومع كل ما صنع من مباهج في تلك الحقبة إلا أنه بحاجة إلى شيء من التجديد والتطوير الذي يُقرّب المسافات ويقصّر الطريق على أجيال هذا العصر، حتى يذوقوا لذته، ويجدوا حلاوته، ويعيشوا مباهجه، ويبدؤوا رحلة البناء الكبرى في مشاهده.

وضع لي أبي برنامجاً: أن أحضر درساً في الفقه الحنفي صباحاً، وإنما اختار فقه الحنفية لأنه هو الفقه الذي يُعد للقضاء، وأن أجوّد القرآن على شيخ ضحًى، وأن أحضر درساً في النحو ظهراً، وأن أحضر درساً في العلوم العصرية عصراً.

❖ ما زالت تلك الرواية التي يسـطرها أمين في حياة ولده ممتدة ولا تكاد تفارقه في شـيء من سـيرته وذكرياته، ولعلها كانـت هي التجربة الضخمة التي عاشـها أحمد أمين في تلك الأيام وأخذت زمناً طويلاً من عمـره، وكانت آمال ذلك الرجل فـي ولده كبيرة، فهـو يُحفّظه كتاب الله تعالى، ويُدرّسـه الفقه الحنفي وينوّع له العلوم، كل ذلك من أجل مراتب القضاء التي لا يدخلها إلا من كان علـى علاقة بهذه المعاني، وهي رواية ملهمة لولا أنها كانت تقوم من طرف الوالد، والولد فيها مجرد دمية ليس له إلا أن يأتي في ذات الطريق فحسب.

لاحت مني مرة نظرة إلى اثنين أنيقين في مثل سني يلبسان ملابس أنيقة وتدل مظاهرهما وأناقتهما على النعمة، فعملت حيلة للتعرف عليهما فإذا هما فتيان قاهريان من أبناء العلماء كأبي، ولكنهما مدللان في بيوتهما وفي معاملة أبويهما لهما، وكنت أتلهف على صداقة فصادقتهما، وأشتاق إلى ملء زمني فلازمتهما، وعلمت أثناء حديثهما أن لكل منهما خزانته، وهي جزء من دولاب في رواق من أروقة الأزهر، يضع فيه كل منهما فروة نظيفة يجلس عليها في

الدرس حتى لا تتسخ ثيابه ومزا أصفر يلبسه في رجليه حتى يحافظ على نظافة جوربه، ففعلت فعلهما وتأنقت تأنقهما ولكن كان ذلك من وراء أبي لأنه لا يحب الأناقة ولا يحب البهرجة، بل ضربني مرة لأني تأنقت في الحزام الذي أشد به وسطي وتركت له ذيلاً كما يفعل المتأنقون، وكان يقول أثناء ضربه: هل أنت ابن السيوفي؟! والسيوفي هذا كان غنياً مشهوراً، فتركت الأناقة من يومي ولم أعد أريه أني ابن السيوفي. ورأيتهما يشكوان مما أشكو فلا يفهمان كما أني لا أفهم، ولا يستفيدان كما أني لا أستفيد، واقترح أحدهما أن نهرب من بعض الدروس ونلتمس مكاناً في الأزهر بعيداً بعض الشيء عن الأنظار نلعب فيه القمار، فلبينا الدعوة، إذ كان في هذا اللعب مسلاة عن ثقل الدرس وراحة من عناء الشيخ، فكنا نصرف الساعات نقامر، وأخسر أحياناً فأبيع بعض ما معي من متاع، وأبي لا يعلم شيئاً من ذلك، وأساتذتي لا يعلمون من أنا حتى يعلموا إن كنت حضرت أو غبت، وأذهب إلى بيتي مدعياً أني قضيت الوقت في الدرس والتحصيل، ولكنه تنبه ضميري بعد أشهر وفهمت أن هذه الحال تؤدي إلى سوء المآل، فتركت صحبتهما والتفتُّ إلى دروسي من جديد.

❖ غالباً ما يلتقي البؤساء ويصطف بعضهم إلى بعض في الأماكن التي لا تصلها أعين الآباء، ثلاثة، اثنان منهما يعيشان الرفاهية ولكنهما يسيران في التخصص في فلك والديهما، فجرت منهم بعض مشاهد الفوضى في الطريق حتى وصلت إلى لعب القمار في محاريب ذلك

الجامع الكبير! ولك أن تتخيّل آباء يلقون بأبنائهم في أماكن العلم ويعتقدون أنهم يتلقون دروس العلم ويتربّون من خلال تلك المعاني الكبار، وهم في المقابل في حلقات القمار والفوضى! ولا غرابة فمشاهد القسوة تصنع أسوأ من هذا بكثير!

❖ حين تعامل ولدك معزولاً عن مشاعره ورغباته وتجري رغباتك وأمانيك عليه في أجواء خالية من الحوار والنقاش فأنت تصلح منه الظاهر وتفسد عليه بعد ذلك كل شيء، وما يحكيه لك أحمد أمين بعض مشاهد تلك الصور، وما خفي أعظم من ذلك بكثير.

❖ ما أبهج أمين في حرصه! وما أشده وألده في كبت ولده! هذا المشهد الذي يحكيه لك أحمد أمين عن عقوبة والده له وضربه إياه من أجل جمال ظاهر رآه يوماً في جزء من لباسه يدلك على عمق الفردية التي يعيشها ذلك الوالد في تربيته لولده، وما ضره أن يتأنق ولده، ويلبس جميلاً ما دام أنه في المساحة المتاحة من ذلك الطريق الطويل!

❖ لقد تغيّر الزمان بكل ما فيه، ولعل عذر أمين في تلك الحقبة أن ما رآه نوعاً من التدليل الزائد في غير محله، فأراد أن يضع درساً صالحاً في بناء مفاهيم ولده، وغدا زمان اليوم كبيراً ومكلفاً في كل شيء.

لم أستسغ أبداً طريقة الأزهر في الحواشي والتقارير وكثرة الاعتراضات والإجابات عليها، وإنما كانت فائدتي الكبرى من أزهر آخر أنشأه لي أبي في غرفة من غرف بيتنا، والحق أن أبي كان يمتاز على كثير من شيوخ الأزهر بأشياء كثيرة؛ كان واضح العبارة قادراً



على الإفهام من أقصر الطرق، وكان يرى في الحواشي والتقارير مضيعة للوقت، وكان كثير المطالعة في كتب الأدب والتاريخ واللغة، ولم يكن ذلك معروفاً عند جمع من الأزهريين.

❖ الله الله يا لجمال ما قال أحمد أمين! وهــو يُفرق بين الأزهر بكل ما فيه من إمكانات ودروس وعلماء، وأزهر والده في ربوع البيت، الأزهر الأول كان مليئــاً ـ في حــد تعبيــر أحمد أميــن ـ بالحواشــي والتقاريــر وكثرة الاعتراضــات، والأزهر الأقرب كان أزهى وأجمل وأســهل، الشــيخ الذي يدرس في أزهره الخــاص كان واضح العبارة قادراً علــى الإفهام، كان يرى تلك الحواشي والتقارير مضيعة للوقت، وكان في المقابل كثير المطالعة في كتــب الأدب والتاريخ واللغة، ولم يكــن ذلك معروفاً فــي جنبات الأزهر الكبير، وإذا وجد الطالب معلماً متمكناً في تخصصه وما يعينه من علوم الآلة فقد وجد كل شيء. وما أحوج طلاب اليوم إلى معلم يعرف كيف يصنع من درسه درساً جاذباً وســهلاً قريباً، ومليئاً بالأمثلة والتطبيقات التي تعينه على تحويل تلك المعارف إلى جوانب عملية تطبيقية في حياته اليومية!

رتب لي دروساً في النحو واختار لي من كتبه طبعات ليس عليها حواش حتى لا يشتت ذهني، وقرأ لي شرح الأجرومية للشيخ خالد، ثم كتاب قطر الندى وكتاب شذور الذهب لابن هشام، ثم شرح ابن عقيل على الألفية، وكلها كتب تمتاز بوضوح العبارة وسهولة الأسلوب، فكنت أتقبل دروسه هذه بلذة وشغف، ثم حبب إليّ القراءة

في مكتبته فكنت أقرأ في تاريخ ابن الأثير ووفيات الأعيان، وشرح لي مقامات الحريري في الأدب، وفقه اللغة للثعالبي، ونجحت نجاحاً كبيراً وأحسست بالتفوق على زملائي في الأزهر، حتى طلب إليّ بعضهم أن أشرح لهم شرح ابن عقيل في المسجد في بعض أوقات الفراغ، وصادقت بعض الإخوان ممن لهم ذوق أدبي فكنا نجتمع في أحد المساجد نحفظ مختارات من مقامات بديع الزمان ورسائله، وأمالي القالي، وأمثال الميداني، ونجعة الرائد لليازجي وحفظنا منه.

❖ ما الفارق بين تلك الشكوى التي أمضت قلب أحمد أمين ومشاعره في مناهج الأزهر، وهذه الأفراح التي تخامر قلبه ومشاعره، والكتب ذات الكتب، والمناهج نفسها لا فرق سوى خلو تلك الكتب من الحواشي والتقارير، والطريقة التي كان يلقي بها والده تلك الدروس؟! وما زال يترقى ذلك الابن في مدارج العلم حتى أصبح كبيراً يشرح شرح ابن عقيل في المسجد في بعض أوقات الفراغ، وتفوّق حتى على طلاب الأزهر الكبير.

❖ إن الزمان دار دورته وتغير فيه كل شيء، وما حاجته إلى شيء حاجته إلى تعبيد الطريق السالك بهم إلى تلك الأماني الكبار فحسب، ومَنْ وفَّقه الله تعالى إلى شيء من ذلك فلعله يصنع فألاً لتلك الأجيال التي تنتظر من يبادر ويشق الطريق.

❖ أثر الأصدقاء في تكوين المَلَكة الأدبية ظاهر في حياة أحمد أمين، حتى أنه كان يقرأ مع تلك الرفقة (مختارات من مقامات بديع الزمان ورسائله، وأمالي القالي، وأمثال الميداني، ونجعة الرائد لليازجي)، وكم

من صديق فتح لك أبواباً من خلال تخصص ومهارة وملكة، وأعانك على بلوغ أمانيك.

❖ من أعظم ما يعينك على النجاح والتفوق والإبداع أن تلقى من يوافقك في همومك، ويجري في فلك أمانيك، ويدفع بك بين الحين والآخر إلى تحقيق ما تصبو إليه مع الأيام، وإذا رزقك الله تعالى أحداً من هؤلاء فتمسَّك به قدر وسعك؛ فحياة العلم المذاكرة.

> بقيت زمناً غير مرتاح في الأزهر، ورأيت بعض زملائي يقدمون طلباً للدخول في مدرسة دار العلوم، فقدمت مثلهم ورأيت الأمر سهلاً عليّ فهم يمتحنون في حفظ القرآن وأنا أحفظه، ويمتحنون في الألفية وفهمها وأنا أحفظها وأفهمها، ولكن قبل الامتحان لا بد من الكشف الطبي وأنا قصير النظر، وذهبت بعد ذلك إلى أكبر طبيب عيون فكشف على عيني وكتب لي أضخم نظارة تناسب نظري.

❖ للمرة الألف: لا تدخل في مجال غير مجالك، ولا تذهب لتخصص لا يناسبك، ولا تلقِ بنفسك في مجال لا تجد فيه روحك ومشاعرك وإلا ستبقى رهين المعاناة ما بقي بك الزمان.

❖ تخيّل أنك تختار تخصصاً لرواجه في سوق العمل أو لرغبة الوالدين، أو لتأثير الأصدقاء، ثم تبقى بعد ذلك أربعين عاماً من عمرك في مكان لا يناسبك وتخصص لا يتناغم مع مشاعرك، وكلما طلع الفجر بدأت

مأساتك، وسرَتْ مشاعر الحزن في فكرك وبقيت عمرك كله أسيراً لقرار غير محسوب في بداية عمرك، فتنبه لذلك إن بقي في زمانك فرصة للتعويض.

❖ يحكي لـك أحمد أمين أنه بقـي زماناً في الأزهـر مرتع العلماء والفكر والمفكرين، ويخبرك في ذات الوقت أنه بقي غير مرتاح ولم يستفد منه شيئاً، وظل يبحث عن كل فرصة تُبلّغه تلك الآمال حتى حانت فرصة التقديم إلى دار العلوم، فخذ من أحزانه وآلامه ومرارة واقعه ما يقيك من الحسرات والحرمان في مستقبل الأيام.

❖ اغتنم زمانك، واستثمر باكر عمرك، وصدق رسول الله ﷺ: «**خُذْ مِنْ صحَّتِـكَ لمرضِك**»، وكلما طـال زمانك كنت على موعـد مع الأمراض والأسقام فبادر زمانك قبل كل شيء، وقد جاء في سيرة أحدهم أنه كشف عليه الطبيب فأخبره بأنَّ نظره على وشـك الرحيل فحفظ ما تبقى له من أجزاء القرآن في بضعة أيام، ويخبرك أحمد أمين بأنه بدأ يفقد شـيئاً من صحته ولم تعد به قوة على العطاء.

اطلعت في إحدى الجرائد على إعلان وزارة المعارف تطلب فيه مدرسين للغة العربية فتقدمت للامتحان ونجحت، وتعينت في مدرسة تابعة لأوقاف أهلية وخاضعة لتفتيش وزارة الأوقاف بالإسكندرية، ولم يكن اسم الإسكندرية مرعباً كطنطا، فقد كبرت وصرت في الثامنة عشرة من عمري وتعودت ركوب القطار بذهابي لطنطا ومع ذلك لذعني السفر، وصرف أبي مجهوداً جباراً في تعييني في مصر بدل الإسكندرية فلم يوفَّق، فسافرت ورأيت البحر أول مرة فسحرني



وصرت آنس به وأجلس إليه وأتأمل في أمواجه فأنسى لوعة غربتي، وحببت إليّ القراءة في المكان الخالي على شاطئه، وهناك قرأت بعض كتب الغزالي فشعرت بنزعة صوفية وحفظت كثيراً من نهج البلاغة إعجاباً بقوة أسلوبه، وقرأت كتاب أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم فتحمست لأبطال الإسلام وأعجبت منه بتحليل شخصياتهم وفلسفة الحوادث في أيامهم. واتفقت مع معلم في مدرسة أخرى أن نستأجر شقة معاً في غرفتين في بيت عليه بواب، وكان صاحبي هذا كهلاً نحيف الجسم أصفر الوجه ملتحياً متديناً في تزمُّت، يتوضأ فيطيل الوضوء، ويصلي فيطيل الصلاة، ويقضي أوقاتاً طويلة في قراءة الأوراد وحضور الأذكار، ويصطحب معه كتاب (شذا العرف في فن الصرف) يقرأ فيه في حجرته ويتأبطه عند خروجه، وظل على هذه الحال السنتين اللتين قضيتهما معه، فلا هو يتم الكتاب ولا هو يتركه، مع أنه كتاب صغير يُقرأ في يومين أو ثلاثة.

❖ صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ومع ذلك لذعني السفر) ومن جرب الغربة وجد مض تلك الأيام، وكُسر خاطره عند الرحيل ألف مرة، وتوجع قبل الفراق، وأسبلت عينه بالدمع حين فراق الأطلال، فيا لوعة السفر ويا غربة المسافرين ويا أوجاع الذكريات التي تعصف بك حين ذكره، وما أنا محدثك عن الدموع التي تنهال حين تخلف ديارك، وتودع أهلك، وتفارق محبيك، وتفقد صحبك وخلانك! ولكن ما منه بد، والكَبَدُ جزء من الحياة ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]، وكلٌّ قد اكتوى به فمستقل منه ومستكثر، لا لرغبة وإنما لظروف الزمان والأحوال، والله المستعان!

"أعظم ما كسبته في الإسكندرية تعرفي بشخصية قوية كان لها أثر كبير في نفسي، صحبته فكان مكملاً لنقصي موسعاً لنفسي مفتحاً لأفقي، كنت أجهل الدنيا حولي فعرفنيها، وكنت لا أعرف إلا الكتاب فعلمني الدنيا التي ليست في كتاب، وكان أبي وشيوخي يعاملونني على أنني طفل فعاملني على أني رجل، فملأ فراغي وآنس وحدتي، وبالجملة فلئن كان أبي هو المعلم الأول فقد كان هذا الأستاذ هو المعلم الثاني، انتقلت بفضله نقلة جديدة وشعرت أني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فبصّرني، وعبداً للتقاليد فحررني، وضيّق النّفسِ فوسّعني."

❖ وكم من نجيب صناعة معلم حاذق! لقد لقي أحمد أمين في طريقه الطويل وبعد زمن من العمر وسَعَة في التجربة تلك الشخصية التي قال عنها: (فكان مكملاً لنقصي موسعاً لنفسي مفتحاً لأفقي، كنت أجهل الدنيا حولي فعرفنيها، وكنت لا أعرف إلا الكتاب فعلمني الدنيا التي ليست في كتاب، وكان أبي وشيوخي يعاملونني على أنني طفل فعاملني على أني رجل، فملأ فراغي وآنس وحدتي).

❖ فرق كبير جداً بين معلم يُقرؤك درساً ويعيد عليك معرفة ويُوصلك بدروس ذلك الكتاب، ومعلم يبني مفاهيمك ويصنع قيمك ويصقل مهاراتك ويُوصلك بتجارب الحياة ويقصّر عليك بها طريقك الطويل، فرق يحكيه لك أحمد أمين عن معلمه حين قال فيه: (انتقلت بفضله نقلة جديدة وشعرت أني كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فبصّرني، وعبداً للتقاليد فحررني، وضيّق النّفسِ فوسّعني).



❖ يا أيها المعلمـــون، هبوا أبناءكم وطلابكم مـــن تجاربكم، قصّروا عليهم الطريق الطويل بما تملكون من خبرات، انفخوا في أرواحهم الرغبة في التعليم والجد في العمل. حدثوهم: من أيـــن بدأتم؟ وكيف وصلتم؟ وما صعاب الطريـــق؟ وكيف يكونـــون نجباء فاعليـــن؟ واعلموا أن تلك الكتب التي بين أيديكم إنما هي طريق لتلك المعاني فحسب.

❖ بنا ضرورة إلى هذا الصنف مـــن المعلمين (كنت خامداً فأيقظني، وأعمى فبصّرني، وعبداً للتقاليد فحررني، وضيّق النّفسِ فوسّـــعني)، وما عدا ذلك فأعداد في قوائم تلك المدارس فحسب.

❞

أما علاقتي مع التلاميذ فكانت علاقة صداقة، وكنت أتحدث إليهم في الشؤون العامة مما لا يتصل بقواعد النحو والصرف، وأقص عليهم قصصاً أدبية وأشعر بحنين إليهم إذا غبت عنهم في إجازة أو مرض ويحنون إليّ كذلك، وكانت عاطفتي الدينية مشبوبة قوية بفضل نشأتي في بيتي فكنت أؤدي الصلوات لأوقاتها، وإذا كنت في مقهى انتقلت من بين من أجالسهم إلى أقرب مسجد، فإن كنت في حي إفرنجي بعيد عن المساجد تلمست عمارة كبيرة فيها بواب نوبي أو سوداني وطلبت منه أن يحضر لي حصيرة صلاته لأصلي عليها قرب الباب، فإذا لم أجد خلعت جبتي وفرشتها وصليت عليها ثم نفضتها ولبستها، ويوم الجمعة أنتقل لمساجد الجمعة أتنقل بين المساجد في كل جمعة، وفي حجرتي أقرأ ما تيسر من القرآن.

❝

❖ تخيّل هذا الفـــارق بين أحمد أمين في درســـه (أمـــا علاقتي مع التلاميذ فكانت علاقة صداقة، وكنت أتحدث إليهم في الشؤون العامة مما لا يتصل بقواعد النحو والصرف، وأقص عليهم قصصاً أدبية) وبين معلم لا يتصل بهم في شـــيء غيـــر تلك المعـــارف التي يســـعى لتمامها على أسماعهم فحسب، وحاجة الطلاب إلى التجربة أعظم من كل حاجة، وما تنفع أسطر كتاب ليس فيها شيء من الحياة؟!

❖ أدع هذا الحرف الذي حكاه أحمد أمين عن علاقته بطلابه وفصله ودروسه للقراءة التأملية (وأشعر بحنين إليهم إذا غبت عنهم في إجازة أو مرض ويحنون إلـــيّ)، وكل تخصص ومجال ومشـــروع وفكرة وقضية لا تلامس شـــغاف قلبك، ولا تُجري فصول الحنين في مشـــاعرك فهي من عاجل أحزانك ومآسيك.

❖ هنيئاً لك يا أمين ألف مرة بهذه الذكريات التي يتحدث بها ولدك مشروع عمرك (وكانت عاطفتي الدينية مشبوبة قوية بفضل نشأتي في بيتي فكنت أؤدي الصلوات لأوقاتهـــا، وإذا كنت في مقهى انتقلت من بين من أجالسهم إلى أقرب مسجد، فإن كنت في حي إفرنجي بعيد عن المساجد تلمست عمارة كبيرة فيها بواب نوبي أو سوداني وطلبت منه أن يحضر لي حصيرة صلاته لأصلـــي عليها قرب البـــاب، فإذا لم أجـــد خلعت جبتي وفرشتها وصليت عليها ثم نفضتها ولبستها، ويوم الجمعة أنتقل لمساجد الجمعة أتنقل بين المساجد في كل جمعة، وفي حجرتي أقرأ ما تيسر من القرآن). وإذا هيأ الله تعالـــى لك ولداً أو جيلاً أو رفقـــةً تتحدث عن هذه المعاني بعد وفاتك فقد جرت لك الحياة.



كنت وأنا مدرس في المدارس الابتدائية غير متفوق في الإنشاء فانعكس الأمر في مدرسة القضاء، ففي الشهر الأول من دخولي المدرسة طلب إلينا أستاذ الأدب أن نكتب في موضوع (أثر القرآن في تدوين العلوم)، وصادفني التوفيق في كتابة هذا الموضوع، كما صادفني أن وقعت ورقتي في يد عاطف بك بركات فاستحسنه، وكان لا يعجبه العجب، وكان كلما أتى زائر للمدرسة طلب الورقة وقرأها عليه وسمع منه استحسانه فوقر في نفس أستاذ الأدب تفوقي في الإنشاء؛ وحفزني ذلك على الإجادة فيما أكتب، فكان يعطيني أعلى درجة؛ ودفعني ذلك إلى الاتصال بالجرائد والكتابة فيها.

❖ النجباء صناعة معلم حاذق في يوم من الزمان! لقد كان المعلم (عاطف بك بركات) فألاً حسناً في وجه أحمد أمين بعد زمن طويل من المعاناة، وقد جاء على ظمأ فأسقاه حتى روي، وكان ذلك في مادة كان يعاني منها على مر الزمان، وهكذا يصنع المبدعون!

❖ التشجيع يصنع مبدعين ومدهشين! لقد عانى أحمد أمين زمناً من عمره في مادة الإنشاء حتى أكرمه الله تعالى بذلك الاستحسان الذي جرى لورقته من ذلك المعلم، فصنع منها فألاً عريضاً حتى جرت مباهجه بعد ذلك في كل مكان، ورُبَّ كلمة لولدك أو طالبك أو جارك أو صديقك أو من تلقاه في عرض الطريق تصنع منه حياً بعد الموات!

❖ من فقهك وكمال وعيك ألا تبخل بالكلمة الصالحة على أحد من العالمين، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣]،

وقال ﷺ: «**والكلمةُ الطَّيبةُ صَدَقة**»، وقال الشافعي لتلميذه يوماً: (اكْسُ ألفاظك أحسنها)، وإياك ألف مرة أن تلقي بما يسوء على مسمع إنسان فتبقى ندوباً ما بقي به الزمان.

> كانت سلوى أبي حين توفي أخي أن يكثر من قراءة القرآن، وسمع بكتاب للسيوطي اسمه (فضل الجَلَد عند فقد الولد) فنسخه بيده يتصبر بقراءته وكتابته.

❖ كثيرة هي آيات القرآن الحاثّة على الصبر، وقليلة جداً تلك الصور العملية التي يتحول بها الصبر إلى فن من فنون السلوى، لقد أقبل أمين على قراءة القرآن، ووالله الذي لا إله إلا هو إنه سلوى عن كل شيء، وأقبل على نسخ كتاب السيوطي (فضل الجَلَد عند فقد الولد)، وفرق ألف مرة بين كتاب تقرؤه وكتاب تعيد نسخه وكتابته، في الوقت وفي الفهم وفي عوائد النسخ، وإن كان مقصد النسخ في هذا الموقف مختلف عن مقاصد العلم بالكلية، والأحداث تصنع واقعها على كواهل أصحابها زمناً من الدهر.

❖ كثيرون يفقدون صوابهم عند المصائب، وقليل من تجري عليه فصول السكينة والرضا بالقضاء والقدر، وقلة جداً من تسمو إلى مراتب الكبار فيصنعون فصولاً من العمل تعين على تجرع تلك الأوجاع، وتسلي النفس عند حلول تلك الكوارث على إنسان.



اشتقت جداً إلى أن أعرف لغة أجنبية، فهؤلاء أساتذتي العصريون يدلون بمعرفتهم لغة أجنبية، هذا يدل بلغته الفرنسية، وهذا يدل بلغته الإنجليزية، وكان يعتمد عليها في تحضير دروسه ويذكر لنا أنها تساير الزمان، وكانوا يقولون من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة فإذا عرف لغة أخرى رأى الدنيا بعينين، فبحثت عن مدرس واتفقت معه على أن يدرس لي أربعة دروس في الأسبوع، واشتريت الكتب وبدأت أذاكر الدرس الأول، ولكن للأسف وقع اختياري على مدرس خائب لا يحتفظ بموعد ولا يهتم بدرس، وصبرت عليه صبراً طويلاً حتى مللت وانصرفت عن الدرس إلى حين.

❖ التطلع للعلم ضرورة، لقد أثرى أحمد أميـن عربيته وأدبه وفكره بكتاب الله تعالى، ومثل هذا لا حرج عليه أن يتشوَّف إلى لغة أخرى يطَّلع بها على ما يريد من علوم، ويتفاعل بها مع واقعه الجديد ويبلغ من خلالها أمانيه.

❖ إذا أردت شـيئاً فتعنَّ له، وخذ معلماً يعينك على بلوغ آمالك فيه من أقرب الطرق، وكم من معلم قَرَّب لك بعيداً وفصَّل لك عموماً وصنع لك صوراً من الجمال في طريقك! وكم من معلم أطال عليك الطريق وزاد في شقَّته وخيَّل لك أنه لا سبيل لك إلى شيء من تلك الأحلام! وصدق أحمد حين سـماه خائباً، ومن لا يجل مواعيده ولا يهتم بواجباته فدعك منه، وما لك وللضياع!

في ذات يوم قابلت صديقي أحمد بك أمين وجلسنا في مقهى، وذهب الحديث فنوناً إلى أن وجدته يقول: إنه عثر على كتاب إنجليزي قَيّم لمستشرق أمريكي، وأخذ يطري الكتاب ويحكي بعض آرائه فاستفزّني الموضوع وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب بلغته، فرتبت الدروس واشتريت الكتاب الأول، وتولت تعليمي سيدة إنجليزية وتحسن الإنجليزية، وبذلت في ذلك مجهوداً شاقاً أقرأ في البيت، أحفظ في الطريق وأذاكر إذا كنت مراقباً في الامتحان أو مشرفاً على حصة ألعاب رياضية، وبعد شهرين أحضرت كتيباً صغيراً بعنوان الإسلام، وقلت بأن موضوعه معروف لي، ومعرفة الموضوع تعين على الفهم، ولكني قرأت الصفحة الأولى فلم أفهم، فبقيت أصرف أكثر من ثلاث ساعات في الصفحة أكشف في المعجم الإنجليزي العربي عن كل كلمة حتى (من) (عن) وأنا جاد صابر، مكثت على ذلك سنة أتممت فيها الجزء الأول والثاني من الكتاب، وبدأت الجزء الثالث في السنة الثانية، وفيه بعض فصول الأدب الإنجليزي وتاريخه فأحسست أن هذه المدرّسة غير مُلمّة بتاريخ الأدب وأنها لا تصلح لتدريس هذا الكتاب، فبحثت عن مدرس آخر أو مدرسة أخرى، ووفقت إلى سيدة إنجليزية كان لها أثر عظيم في نفسي وعقلي، في نحو الخامسة والخمسين من عمرها مثقفة ثقافة واسعة تجيد الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وبقيت معها زمناً ثم انتقلت إلى أسرة تعلمني الإنجليزية وأُعلّمها العربية، وبقيت معها أكثر من سنة حتى بلغت ما أريد.

❖ الإصرار يصنع نجاحات كبرى! كثيــراً ما كانت التجارب المخفقة قاتلة لكل المحــاولات التي تأتي بعد ذلك، وكثيــرون الذين توقفوا عند قراءة الفصــل الأول مــن الكتــاب، والصفحــات الأولى مــن الرواية، والخطوات المبكرة من الفكرة ثم قطعوا كل صلــة بهذه المعاني الكبار، وقلة تلك التي لا تؤمن بالعثرات وتصر على بلوغ النهايات فيها ولو طال الطريق.

❖ أصحــاب الإرادة الصلبة هم الأقدر على الاســتمرار على نكبات الطريق، والأصلح للمســافات الطويلة، والقادرون على بلوغ آمالهم ولو كانت دونها ألف عقبة، لقد تجاوز أحمد أميــن التجربة الأولى بإخفاقها ورفض أن تقف فــي وجه إصراره، وأصر على التجربــة الثانية فوجد كل شيء. وهو درس نافع لكل راغب في تحقيق تلك الآمال الكبار.

❖ الرغبة في مرات لا تصنع بريق النهايات ما لم يصحبها إصرار كبير وإرادة صلبة لتلك الأماني، وعلينا أن ندفع في ســبيل ما نريد كل شيء، لقد تحمَّل أحمد أمين وعثاء الطريــق بكل ما فيه، وحكى لك تجربته في ذلك الشــأن وكيف كان يفســر كلمات ذلك الكتاب وعن طريق المعاجم وحتى بعض الحروف، لأنه قرر ألا تقف به الأماني دون تلك الغايات. ولا مستحيل في الحياة، ومن أراد شيئاً دفع في سبيله كل ممكن.

❞

حين رغبت الزواج كنت في التاسعة والعشرين من عمري وكنت أحمل شهادة عالية ومرتبي لا يستهان به في ذلك العصر، ومع ذلك وقفت العمامة حجر عثرة في الطريق فقد تقدمت إلى بيوت رضوا عن شبابي وشهادتي ومرتبي ولكن لم يرضوا عن عمامتي، فذو العمامة في



نظرهم رجل متدين، والتدين في نظرهم يوحي بالتزمُّت وقلَّة التمدُّن والرجعيَّة والحرص على المال ونحو ذلك من المعاني المنفِّرة، والفتاة يسرها الشاب المتمدن اللبق المساير للدنيا اللاهي الضاحك، فكم قيل لي ليس عندهم مكان لعمامة، ورضي بي قوم وأحبوا أن يروني فأحببت أن أريهم أني متمدن وذهبت إليهم أحمل كتاباً إنجليزياً، وجلست إليهم وجلسوا إليّ وتحدثت عصرياً وحشرت في كلامي بعض كلمات إنجليزية، فاستغربوا لذلك وفهمت منهم أنهم أعجبوا بي ورضوا عني، ولكن بلغني أن الفتاة أطلت من الشباك وأنا خارج فرأت العمامة والجبة والقفطان فرعبت ورفضت رفضاً باتاً أن تتزوجني رغم إلحاح أهلها، وشاء الله تعالى أن تتزوج من شاب أنيق كاتب في وزارة ولكنه سِكّير معربد، فأذاقها المرار في حياتها الزوجية ثم طلقها، وما زال سوء حالها حتى تزوجت بعامل في التلغراف وجاءت إليّ وأنا قاضٍ في محكمة الأزبكية تطلب زوجها النفقة، وبقيْتُ كذلك حتى دلني مدرس معي على بيت رضيني ورضيته وتمَّ الزواج.

❖ لا شــيء أضر على الإنســان من الأفكار والمفاهيم والتصورات الخاطئة، ولن تتصوَّر هذا المعنى حتى تعرف قول نبيك ﷺ: «**إذا أتاكُمْ مَنْ ترضَونَ دينَهُ وخلقَهُ فزوِّجوه**»، وترى في المقابل نفور تلك الأسر في زمن من الأزمان من المتدينين، فإن كان النفور لــذات التدين وما يحمل عليه من الانكفاف عن سفاسف الأمور وتطلُّب معاليها وتمثُّل الشرع في كل ما من شأنه نجاح صاحبه في الدارين، فوا ســوأتاه على زمن كانت فيه تلك الفهوم السقيمة! وإن كان ذلك لسوء فهم لدين الله تعالى من الحاملين هذا

المنهج والممتثلين له مــن خلال تطبيقٍ تضيق به النفــوس ولا علاقة له بالحقائق، فذاك شأن آخر يُقدَّر يقدره في ذلك الحين.

❖ إذا أراد الإنسان شيئاً ما استرخص فيه كل شيء! لقد رمى العمامة وأخذ في يديــه كتاباً باللغة الإنجليزية وتحدث بلغة عصرية، وحشــر في وســط كلامه لغات أجنبية، وكل هذه المعاناة من أجل زوجة المســتقبل، ومن أراد شــيئاً تعنى له، وما أكثر ما تجري هذه الصور في حياة العالمين في أشياء أقل بكثير من مشروع الزواج فضلاً عن هذا المعنى الذي يحكيه لك أحمد أمين في مشروع زواج!

❖ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لــم يكن ليصيبك! لقد رمى عمامته وأخذ كتابــاً إنجليزياً وتكلم بلغة عصريــة ورطن في كلامه وأقنع الحاضرين بمدنيته، ولكن شاء الله تعالى ألا يكون له نصيب في هذا المكان وساقه الله تعالى إلى قدره المكتوب. وثمة قدر كُتب عليك وأنت في بطن أمك وقبل أن يخلق الســموات والأرض بخمســين ألف ســنة، وحسبك بذل الأسباب، ثم إذا فات شــيء بعد ذلك فتعلم علم اليقين أنه ليس لك، وربك ألطف وأرحم بك من نفسك ألف مرة.

❖ كثيراً ما نقــع في أخطاء كبرى حيــن نقدِّم آراءنا وشــهواتنا على مرادات الله تعالى وشرعه ومنهجه، فتفوتنا بتلك القرارات حظوظ كبرى ما كان لها أن تفوت لولا عدم وعينا، لقد رفضته لأن فيه ما يوحي بأثر الدين عليه، وتزوجت بعد ذلك شاباً ســكّيراً فجَرَتْ عليها مشاق الحياة وذاقت مرارة تلك المخالفة وطُلّقت، ثم عادت للمحاكم تبحث عن حقوق ضائعة وواجبات لم تجد من يوفي بها مع الأيام. وما أكثر صور هذه القرارات في حياة الشباب والفتيات!

أقول والأسف يملأ قلبي: لم أنتفع بزمن الصبا والفتوة كما يجب، فلم يجد المرح والنشاط واللهو ولو كان بريئاً ولا الحب إلى قلبي منفذاً، بل تشايخت منذ الصبا وهذا لا شك من أثر التربية المنزلية، فقد كانت تربية أساسها التخويف والإرهاب، ولم يكن في بيتي أي مظهر من مظاهر البهجة والسرور، وإني في هذه السنة أحس بشيء من النشاط على أثر دروس الإنجليزية مع مدرسة إنجليزية كانت تصلح من نفسي كما تصلح من لساني، وكانت تنتقد فيَّ الهدوء والسكينة، كما كان لدرس الأخلاق مع عاطف أثر كبير في نفسي، وأحس أنني أكثر حرية في الفكر وأكثر نقداً لما يعرض لي.

❖ ما أحوج البيوت إلى الحب! وما أجملها بالحوار! وما ألذها بالحريات! كل شيء يمكنك أن تبنيه كما تشاء، وتشكّله كيفما تريد إلا هذا الإنسان، لا سبيل لك إلى تشكيله إلا أن يدله الله تعالى إلى الطريق ويهديه سواء السبيل، كل ما يمكنك أن تُحسّن تلك المدخلات التي تلقي بها في فكره وقلبه ومشاعره، وتحاول ما أمكنك أن تجعل بينه وبين عوارض التوفيق ما يحميه، وتتوجه إلى ربك تعالى بكل ما تملك بأن يصلح شأنه ويتولاه بالعون والتوفيق، وإياك ألف مرة أن تعتقد يوماً أنك ستجبره على سلوك الطريق الذي تشاء. ولذلك صدق من قال: التربية أم الحيرة!

❖ إذا فقد ولدك الحب بحث عنه بشوق عند الآخرين، وإذا اشتاق إلى الحريات ركب في سبيلها كل صعب وذلول، وإذا لم تسمح له بأن

يخرج مع البــاب فتح ألف باب من خلف الأســوار، فدعك من أوهام لا علاقة لها بالحقائق في شيء.

❖ التربية الواعية التي تقوم على الحب والثقة والإغضاء عن الأخطاء وتمد في الحريات داخل البيوت تخلق مولعين بالجمال والإبداع، والتربية المشوهة التي تقوم على القوة والعنف والزجر والمنع تخلق قنابل موقوتة لا تنتظر سوى زمن الانفجار.

❖ لو لم يكن في هذا المشــهد إلا تســوّل أحمد أميــن للجمال من الآخرين، والبحث عنه بشــوق خارج أســوار البيت لــكان كافياً عن كل درس، وها هو يخبرك أنه وجد بعضاً من ذلك عند المعلمين.

> لقد تحركت عاطفة الحب منذ الصبا، فقد أحببت وأنا في نحو الخامسة عشرة ابنة جار لنا، والتهبت عاطفتي فأرقت كثيراً وبكيت طويلاً، وكل ما كان من وصال أن أجلس أنا وهي على كرسيين أمام دارها نتحدث في غير الغرام حتى حجبها أبوها عني وشقيت زمناً ثم سلوت، ثم أحببت المدرّسة الإنجليزية الشابة حباً ضنيت به ولم تشعر به، ولكنه كان حباً يائساً، فهي متزوجة مخلصة لزوجها سعيدة بزواجها، فعاطفة الحب كانت في أعماق نفسي ولكنها مكبوتة، كانت تربيتي الدينية تعد الحب فجوراً.

❖ يخبرك أحمد أمين أنه أحب مرتين، مرة وهو في بداية عمره أحب جارته وأقرب البيوت إليه، وأخرى حين أحب معلمته، ويحدثك أنه وجد لظى الحب والتهبت عاطفته مراراً وبكى للفقد طويلاً، فلا جاره قدّر ذلك

المعنى الكبير، ولا معلمته ألقت إليه بالاً وهو في عواصف الشـــوق! وما أحمد أمين إلا كبعض النـــاس الذين وجدوا من آثـــار الحب ما جرت به أخبار الســـائرين، ولو أنك اســـتنطقت الآخرين لألقوا إليك بمثل ما ألقى أحمد أمين! فلله ما أشـــد عواصف الحب في قلوب المحبين، وكما قال الأول: ما كل ما يتمنَّى المرء يدركه.. تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

"

تزوجت ودخلت على زوجي وحمدت الله تعالى على ذلك الاختيار، وعشنا زمناً عيشة هانئة، ولكن صُدِمت زوجي حين رأتني هادئاً غير مرح قليل الكلام، وقد تربَّت في بيت مرح مملوء بالضحك والبهجة ويكثر فيه الحديث، فظنت أني لا أُقدِّرها أو نادم على الزواج بها، وأوكد لها في كل مرة أن هذا هو طبعي كسبته في بيتي، فلم تصدق ولم تطمئن إلا بعد طول العشرة ووثوقها من ذلك، وعشت مشكلة أخرى وهي: أني مدرس مضطر لتحضير دروسي في المساء لألقيها في الصباح، وفوق ذلك أحب القراءة في غير دروسي، وفرِحٌ بتعلمي الإنجليزية، ومشغول أول عهدي بالزواج بإنهاء ترجمة كتاب (مبادئ الفلسفة)، وزوجتي مثقفة ثقافة محدودة، فهي تحتمل الصباح وحدها لإعداد ما نأكل وتنظيف ما ينظف، ولكن كيف تحتمل المساء أيضاً وحدها وأنا في الغرفة الأخرى أقرأ وأكتب، والأيام هي الأيام الأولى لزواجنا؟! وحدث مرة أن أعدَّت العشاء وفتحت الباب وأخبرتني بأن العشاء مُعدٌّ، وكنت أمام جملة في مبادئ الفلسفة صعبة أحاول ترجمتها وأحاور عبارتها وأتذوق صياغتها، فلم أسمع النداء والإخبار ولم أشعر بفتح الباب، فكان خصام ونزاع وكانت شكوى

لأهلها لم تنتهِ إلا بعناء، ولم أستطع أن أتحول عن طبعي وغرامي، ثم حُلّت المشكلة بعض الشيء بالولد الأول واشتغالها به، ثم بما تتابع من أولاد، ثم اضطرتْ إلى قبول الأمر الواقع والرضا بما قَدّر الله تعالى من عيش في شبه عزلة مما أقرأ وأكتب.

❖ مشروع الزواج من أعظم المشـاريع أثراً في حياة الإنسان ولو لم يكن من ذلك إلا قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، وما أكثر عوائده على أصحابه! وكم من امرأة خلقت في حيـاة زوجها ألف فأل للجمـال! وكم من امـرأة في المقابل صنعت من زوجها أسيراً للألم والحرمان!

❖ من حقك أن تبحث عن شـريك حياتك وأم ولدك وعون طريقك الطويل، واسـتصحب في ذلك البحث قول رسـولك ﷺ: «**تنكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالِها ولحسبِها وجمالِها ولدينِها، فاظفَرْ بذاتِ الدِّين تربَتْ يَدَاك**»، وسـل الله تعالى أن يدلك ويعينك، وشـاور مـن تثق في علمـه وعقله وتجربته، ولا تعجل فتقع أسيراً للندم ما بقي العمر.

❖ لا تبـنِ أحكاماً في بداية حياتك الزوجية، واجعل للزمن مسـاحة كافية، ماذا لو أن زوجة أحمد أمين اعتبرت ذلك الصمت دليلاً على عدم رغبته فيها وقررت إنهاء ذلك المشـروع الكبير، وهـي لم تعرف ما وراء ذلك الصمت الطويل؟! علينا أن نصبر قليلاً في أي قرار نتخذه ولا نعجل حتـى تأخذ تلك القـرارات حقها من الزمـن وتكون أحكامنـاً صحيحة وواضحة، والزمن في مرات كثيرة كفيل بتحقيق ما نريد من آمال. ما أكثر



المرات التي يأتي الزوج يشتكي من زوجه، والزوجة كذلك، وما هي إلا أيام وترى بيوتاً مورقة بالسعادة.

❖ من فقه الزوجة أن تعرف مشــروع زوجها وهمومــه وقضاياه التي يشتغل بها وتعينه على ذلك، وتســتطيع بعد ذلك أن تتعرف على أوقات فُسَــحِه وفراغه وتصنع منها حكايــات كثيرة من الأنــس. والمرأة الواعية ستجد أوقاتاً كثيرة عند صاحب المشاريع المزدحمة تحتاج إلى فن استثمار واستمتاع.

"كانت نظريتي في الأولاد تخالف نظريتها، فكان رأيي الاقتصار على ولد أو ولدين شعوراً بمسؤولية التربية وتوفيراً للزمن الذي أحتاجه في التحصيل والدرس، وزوجتي لا ترى ذلك، وقد نصحتها بعض قريباتها بالمثل المشهور (قصيه لئلا يطير)، والزوج إذا خف حمله كان عُرضةً أن يطير ويتزوج ثانية وثالثة، وقد غلبت نظريتها نظريتي ولم تعبأ بالمتاعب التي كانت تلاقيها في الولادة والتربية، فرزقت بعشرة من الولد لله الحمد. وعلى كل حال بعد أن عرفتْ زوجي أخلاقي وعرفتُ أخلاقها وتكشّف لها ميولي، وتكشّف لي ميولها حدثت المصالحة والتفاهم فتنازلت عن بعض رغباتها لرغباتي، وتنازلت عن بعض رغباتي لرغباتها، فكانت عيشة هادئة سعيدة نرعى أكثر ما نرعى مصلحة الأولاد وخلق الجو الصالح لتربيتهم."

❖ مســاحة رائعة من الجمال جــرى فيها التفاهم حتــى على صورة المســتقبل الذي يراد للزوجين بشــأن الأولاد، وأديرت مساحات للنقاش

وإن اختلفت الزوايا التي يناقش من خلالها المشروع والنهايات التي يؤول إليها، ولكنه خلاف في المساحات المتاحة له.

❖ تظل الأفكار والمفاهيم أخطر ما يحرك الإنسان، وكم هي كلفة عشرة من الأبناء في حياة امرأة لولا تلك الأفكار التي كانت تحركها لاستقبال تلك الأحداث.

❖ الأبناء روح الحياة وجمالها وأناقتها كما قال تعالى ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦]، وكم من ولد كوّن لوالديه مشروعاً بهيجاً في النهايات! وقد قال ﷺ: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلَّا مِنْ ثلاث.. أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**»، ولهم كلفة وتبعات كبيرة خاصة في مثل زمانك، ولكن أرباحهم فوق ما يأتي من تصورات.

"كنت من غفلتي أعتقد أن العقل وحده هو الوسيلة الطبيعية للتفاهم مع زوجي، فإن حدثت مشكلة احتكمنا إليه وأدلى كل منا بحججه فإما اقتنع وإما أصر، وبعد تجارب طويلة رأيت أن العقل أسخف وسيلة للتفاهم مع أكثر من رأيت من السيدات، فأنت تتكلم في الشرق وهن يتكلمن في الغرب، وأنت تتكلم في السماء فيتكلمن في الأرض، وأنت تأتي بالحجج التي تعتقد أنها تقنع أي معاند وتلزم أي مخالف، فإذا هي ولا قيمة عندهن، فأدركت أن من الواجب ألا التزم المنطق وإذا أردت الراحة والهدوء فأضحي بالمنطق وأتكلم الكلمة السخيفة إذا كان فيها الرضا، وألعب بالعواطف رغم المنطق إذا أردت السلامة."

❖ في الوحي أن النبي ﷺ قال: «**إن المرأةَ خُلِقتْ مِنْ ضلعٍ أعوج، وإنَّ أعوجَ شـيءٍ في الضِّلع أعلاه، فإنْ ذهبْتَ تقيمُه كسرْتَه، وكسرُها طلاقُها، وإن استمتعْتَ اسـتمتعْتَ بها وفيها عوَج**»، فأبان لك الشرع ما في المرأة من نقص جَبْلي، وإذا كان كذلك فقد قال ﷺ: «**لايفركُ مؤمنٌ مِنْ مؤمنةٍ، إنْ كرِهَ منها خلقاً، رضي منها خلقاً آخر**»، فضع عينك على الجوانب الإيجابية ومد في أحداثها، وغضَّ الطرف عن تلك الأخطاء التي تجري منها بصفة خلقها، وستورق لك مشاهد الجمال إلى أقصى مدى.

❖ ليس هذا الحكم علـى إطلاقه من أحمد أميـن رحمه الله وإن كان هو الغالب، فكم من النسـاء تملؤك فكراً وفقهاً وعلمـاً، وإذا وضعت قوانين وسنت أنظمة يُتَحاكم إليها ستجدها أعون ما تكون لك بإذن الله تعالى في مسـتقبل الأيام، ولعله حدَّثك عـن تجربة له، فذاك شـأن خاص به، ولا ينبغي أن نعمم كل تجربة ونجعلها قاعدة عامة في كل شيء.

"لم تكن لنا مشكلة مالية مما تشقى به العائلات فقد وسَعّ الله عليّ في الرزق، ولم يأتِ عليّ يوم اقتصرت فيه على مرتبي الحكومي، فعند تخرجي من مدرسة القضاء انتدبت مدرساً للأخلاق بمدارس الأوقاف الملكية بمرتب آخر، ولما عُيِّنت قاضياً في مصر انتدبت مدرساً بمدرسة القضاء، ثم در عليَّ الرزق بما أربح من كتبي ومقالاتي ولم أشعر بحاجتي للاستدانة ولا مرة، وكنت أميل إلى التبذير وزوجي تميل إلى التدبير، ولو ترك الأمر لي لما أبقيت شيئاً، ولكن زوجي احتاطت ودبرت وادخرت فحمانا الله من مشاكل أخرى أصيبت بها بعض الأسر."

❖ المـال عصب الحياة، وإذا وجد الإنسـان منه ما يكفيه اسـتقرت جوانب كثيرة في حياته، وإذا حدث نقص أو خلل صنع له قلقاً وفتح عليه مشكلات وأخل بتوازنه، ومن فقه الإنسان أن يتقي الله تعالى في هذا الباب ويجهد في صلاح ما يدخل عليه من مال حتى يبارك الله تعالى له، وعليه في المقابل أن يتعلم ويتدرب كيف يدير ماله وميزانيته الأسـرية! ويتعلم الادخار ويحاول بالتفاهم مع زوجه أن يشـكل مسـتقبله المالي من دون تضييق أو قتر، فإن العناية بهذه المسألة باكراً مفضية إلى عواقب حِسَان مع الأيام، ومن الفقه أن تُعدِّد مصادر دخلك وتنوّعها قدر إمكانك.

❖ الاسـتثمار في طاقاتك وقدراتك وإمكاناتك، وحبك وشغفك من أعظم أنواع الاسـتثمار وهو أعود ما يكون عليك مع الأيام، ولعل أحمد أمين يشـير لك إلى أن قضية التأليف كونت له دخلاً ثابتاً أو شـبه ثابت وأعانته على إدارة شأنه الخاص والعام، وساهمت في استقراره بعد ذلك.

❖ في مرات كثيرة نبعد كثيراً فنذهب نبحث عن الاستثمار في موارد لاعلاقة لها بشغفنا وقدراتنا وطاقاتنا، فنقضي أوقاتاً وأزماناً فيها ولا تحقق لنا ما نريد، ولو أن كل إنسـان ركّز على طاقاته وقدراته ومهاراته ودربها واعتنى بها لصنعَ منها موارد ضخمة مع الأيام.

❖ من أعظـم فواتح التوفيق على إنسـان أن يرزقـه الله تعالى بامرأة تحسن التدبير في بيته وأسـرته وتعتبر المال مورداً ضخماً يستحق العناية والتركيز، ومن الرزايا أن يبتليك الله تعالى بـزوج تأكل ما بين يديك في يومه وتعيش ممدودة اليد في أول الشـهر وأوسـطه وآخـره، ولا تعترف بالظروف التـي تواجهك. وكم من امرأة أغنت زوجهـا من خلال التدبير على قلة ما في اليد!

رزقت بالولد الأول عقب زواجي فأوليته كل عنايتي وطالعت من أجله بعض الكتب العربية والإنجليزية في تربية الطفل، وكنت أشتري له اللعب الموضوعة للتسلية وتربية العقل، واخترت له مدارس خاصة، وعنيت بالولد الأول أكبر عناية لأنه سيكون نموذجاً لإخوته، وقد كنت قاسياً على أولادي الأولين شديد المراقبة لهم في دروسهم وأعاقبهم على انحرافهم ولو قليلاً، ولا أسمح لهم بالحرية إلا في حدودٍ حسب عقليتي إذ ذاك، ولكنها قسوة لا تقاس بجانب قسوة أبي، وكلما تَقدّمتُ في السن واتسع تفكيري أقللت من تدخلي وأكثرت من القدر الذي يستمتعون فيه بحريتهم، وقد رزقت الحنو عليهم حنواً شديداً حتى لينغص عليّ سفري إذا سافرت ورحلاتي إذا رحلت، فلا أزال أذكرهم في سفري حتى أعود، ولا تهنأ لي راحة إلا إذا عدت إليهم.

❖ يا لجلال وجمال الفقه والوعي! ولو لم يكن من صور هذا المعنى الكبير إلا قول أحمد أمين (رزقت بالولد الأول عقب زواجي فأوليته كل عنايتي وطالعت من أجله بعض الكتب العربية والإنجليزية في تربية الطفل، وكنت أشتري له اللعب الموضوعة للتسلية وتربية العقل، واخترت له مدارس خاصة، وعنيت بالولد الأول أكبر عناية لأنه سيكون نموذجاً لإخوته) لكان درساً يستحق الاحتفاء! كم نحن بحاجة إلى هذا الفقه والوعي والتركيز! وكم من ابن كان فألاً صالحاً على أسرته فيما بعد.

❖ كأن أحمد أمين يدرك تماماً معنى الاستثمار في الأسرة، ولذلك حكى لك: (فأوليته كل عنايتي وطالعت من أجله بعض الكتب العربية

والإنجليزية في تربية الطفل، وكنت أشتري له اللعب الموضوعة للتسلية وتربية العقل، واخترت له مدارس خاصة)، وإذا رزقت الأسرة بعضاً من هذا الفقه صارت إلى خير، فضلاً عن الفقه في جانب من أعظم الجوانب في الحياة.

❖ ما أكثر الأسر التي تنجب ولا يكادون يشترون لهذا المشروع كتاباً واحداً! إن مشروعاً بهذا الحجم يحتاج إلى عدد من القراءات والخبرات والدورات والبرامج التي تعين الإنسان كيف يبني من هذه المعاني أحلام الدارين. لقد حكى لك أحمد أمين كيف استقبل أول ولده، وذكر لك مراراً ما صنع معه والده، وما زال يُلقي لك في هذا المعنى بكل شيء، فدونك تجارب الآخرين.

❖ لقد بدأ أحمد أمين مع أولاده في صغرهم وباكر حياتهم بمنهج وطريقة، ثم غير ذلك حين بلغوا مشواراً في العمر، بدأ معهم قاسياً ويتدخل في كل شيء، ثم تنازل شيئاً فشيئاً، وهذا التحوّل مطلب، وليس بالضرورة أن نقسو معهم من البدايات، وإن كان ثمة قدر أكبر من التربية والقرب والتوجيه، ثم نتخلص من ذلك بطريقة مرتبة مع الأيام حتى نمنحهم في النهاية كل شيء.

❖ يا معاشر الأبناء، وأنتم تقرؤون هذا المعنى في حياة أحمد أمين مع أولاده تذكروا أن ذات المعنى في قلب كل أب وأم (وقد رزقت الحنو عليهم حنواً شديداً حتى لينغص عليّ سفري إذا سافرت ورحلاتي إذا رحلت، فلا أزال أذكرهم في سفري حتى أعود، ولا تهنأ لي راحة إلا إذا عدت إليهم) فلا تعتبروا تلك القسوة التي ترونها من آبائكم في مرات،



والأسئلة التي تواجهون منهم في مرات أخرى، والحرص الذي تضيقون به في ثالثة ورابعة تُلغي مشـــاعر الحنين إليكم فـــي كل حين، وما يمكن أن يقال في هذه المساحة أقل ألف مرة مما في قلوب الوالدين لكم.

توفي أبي وانتهت حياة حافلة شاقة ملئت بالكد الدائب والسعي المتواصل في طلب العلم وطلب الرزق، فقلَّ أن يفارقه كتاب يقرؤه أو يكتبه، ورزقه متصل بعلمه من درس يدرسه أو كتاب يصححه ونحو ذلك، لا يمنعه عن ذلك مرضه أو كارثة نزلت به، متدين أشد التدين، يكثر من الصلاة وقراءة القرآن والحديث، ويزكي ويصرف زكاته على الفقراء من أقاربه، ويصوم ويحج، ويتهجد بالليل ويبتهل بالنهار، ومع شدته على أولاده كان رحيماً بهم، وتظهر رحمته في قلقه على ولده إذا مرض وحرقة قلبه إذا مات وحنينه إليه إذا غاب، وكان يؤثرني على إخوتي في العناية لما يظهر له من استجابتي وطاعتي له، وله الفضل في تعلمي، ولولاه بعد الله تعالى لم أنجح في دراستي الأزهرية لصعوبتها وكثرة العوائق فيها، وتعلمت منه الصبر على الدرس واحتمال العناء في التحصيل، ومنه كسبت وضوح العبارة وبساطة الأسلوب، ومن مكتبته المتنوعة والغنية بكتب الأدب والتاريخ نبت في نفسي حبُّ الأدب والتاريخ، وعلى الجملة فقد ورثت منه إلى حد ما كثيراً مما لي من مزايا وعيوب. ولهذا كله بعد أن كبرت ودخلت مدرسة القضاء وتحررت من رعايته لي وقسوته عليّ بدأت أشعر بفضله، وينقلب خوفي منه إلى حب وإجلال له، وبعد أن أصيب بفقد وليده زاد عطفي عليه وبذلت كل جهد فيما يرضيه، ومن جانبه بادلني

عطفاً بعطف وحناناً بحنان، وترك لي التصرف في ماله وشؤونه وتفرغ لحزنه ومرضه ودينه، فلما مات أحسست لذعةً أليمةً وركناً تهدَّم ولم يعوض، وفراغاً لم يَملأ، رحمه الله. ”

❖ رسالة لكل والد ألا يتوقف عن البذل والعطاء لأولاده يوماً من الدهر، وأن ما لم يرَ من الآثار عاجلاً فسيراها في الغد، ومهما طال زمان الانتظار إلا أنه قادم بالمفاجآت السارة والأخبار الجميلة والأحداث المدهشة في حياته في مستقبل الأيام.

❖ لقد تعلم أحمد أمين من والده معاني كباراً، منها ما جاء في شخصيته ومنها ما جرى في درسه ومكتبته ومنها ما استلهمه من مواقفه، وكلها في النهاية كونت رجلاً وصنعت له مستقبلاً كبيراً، وما يجري منك من مواقف مطبوع في ذهن ولدك وسيحين عنه الحديث ولو بعد حين، ولك أن تقارن بين شكواه التي كان يشكوها من قسوته وحنينه له بعد الرحيل (فلما مات أحسست لذعةً أليمةً وركناً تهدَّم ولم يعوض، وفراغاً لم يُملأ، رحمه الله).

“ بينما كنت قاضياً اتصل بي الدكتور طه حسين يطلب مقابلتي، وذهبت لمقابلته فإذا هو يعرض عليّ أن أكون مدرساً بكلية الآداب، فترددت قليلاً ثم قبلت لنفوري من القضاء وحبي للتدريس، وذهبت للكلية فوجدت شيئاً جديداً عليّ، لا هو كالأزهر، ولا هو كمدرسة القضاء، أساتذة كأنهم عُصبة أمم: هذا إنجليزي وهذا فرنسي وهذا

بلجيكي وهذا ألماني، وقليل من الأساتذة المصريين وليس فيهم معمم إلا أنا، وعميد الكلية بلجيكي، والطلبة أحرار يحضرون الكلية أو لا يحضرون، ويحضرون الدرس أو لا يحضرون، وأقسام الكلية متشعبة، ولم آلف هذه الأوضاع إلا بعد عهد طويل حتى فهمت الأوضاع وبدأت أهيئ نفسي للبيئة الجديدة على مضض حتى فهمت الأوضاع واستقامت الأمور، وقبل بدء الدراسة في السنة التالية دارت مناقشة طويلة بيني وبين صديق أستاذ في كلية الحقوق، قال يوماً: لماذا تُصر على لبس العمامة؟ والعمامة رمز لرجل الدين ولست الآن رجل دين، إنما أنت تعلم اللغة العربية والأدب العربي كما يعلم الفرنسي اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي، وهذه أمور مدنية لا دينية، ثم إن لبسك العمامة في وسط كله برانيط وطرابيش يجعلك غريباً في بيئتك، وفكرت في الأمر طويلاً فهذا الذي قاله حق، ولكن إلف العمامة وإلف الناس لي معمماً أخجلني من التغيير، فما زال يلح عليّ وما زلت أطيل التفكير حتى ملت إلى رأيه وتركت لبس العمامة، وذهبت إلى الخياط وفَصَّلت بدلتين وشريت طربوشاً، وعُدت إلى هذا النوع من اللباس بعد سبع وعشرين سنة منذ كنت تلميذاً في المدرسة.

❝

❖ لا تحكم على انطباعك الأول في مـــكان، دع الزمن يأخذ فرصته كاملة حتى تتكشَّف لك الحقائق كاملة، ونفسك بحاجة أن تتقبل الخطوات الأولى وبدايات الطريق، ولا تنشـــغل بالأحكام العاجلة في ذلك الحين، لقد كان الشـــعث الذي يراه أحمد أمين في الكلية في بداية مشواره كافياً

لترك هذا المكان لولا أنه أعطاه زمناً فجرى الإلف بعد ذلك، وصار هذا المكان جزءاً من الجمال، وهذا المعنى يجري في أشياء كثيرة جزءاً من الجمال فتنبه، والعجلة من الشيطان.

❖ إذا أردت لسلوك أو فكرة أو توجُّه أن يحيا أو يموت فعرِّضه للنقد، وافتح له أبواب النقاش، واصنع حوله الحوارات، وستترك ألف نافذة مفتوحة بعد ذلك في فكر صاحبه مع الأيام. لقد بدأ الرجل قصة انتقاد تلك العمامة ونقض تلك القناعات لدى زميله بسؤال، قال: لماذا تُصر على لبس العمامة؟! والعمامة رمز لرجل الدين ولست الآن رجل دين، إنما أنت تعلم اللغة العربية والأدب العربي كما يعلم الفرنسي اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي، وهذه أمور مدنية لا دينية؟!)، ثم لفت نظره إلى آثار ما يفعل فقال له: (ثم إن لبسك العمامة في وسط كله برانيط وطرابيش يجعلك غريباً في بيئتك!)، وكانت هذه الأسئلة كافية ليقول أحمد أمين: (وفكرت في الأمر طويلاً فهذا الذي قاله حق ولكن إلف العمامة وإلف الناس لي معمماً أخجلني من التغيير، فما زال يلح عليّ وما زلت أطيل التفكير حتى ملت إلى رأيه وتركت لبس العمامة).

❖ إذا أردت أن تهدم قناعة ما فابدأ رحلتك في ذلك الطريق من خلال الأفكار والمفاهيم، واخلق حولها الأسئلة، وافتح فيها أكثر من نافذة، وسترى أشلاءها ولو بعد حين، لقد ترك أحمد أمين تلك العمامة، بعد سبع وعشرين سنة من الإلف لسؤالات، وأخبرك أنه صنع قراراً مقابلاً لتلك المدخلات فقال: (حتى ملت إلى رأيه وتركت لبس العمامة وذهبت إلى الخياط وفصلت بدلتين وشريت طربوشاً وعدت إلى هذا النوع من اللباس بعد سبع وعشرين سنة منذ كنت تلميذاً في المدرسة).

بدأت مسألة البحث في الكلية، وكان ذلك تمهيداً لمشروع واسع في البحث وضعناه نحن الثلاثة (طه حسين وعبد الحميد العبادي وأنا)، وخلاصته أن ندرس الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاث في العصور المتعاقبة من أول ظهور الإسلام، فيختص الدكتور طه حسن بالحياة الأدبية، والأستاذ العبادي بالحياة التاريخية، وأنا بالحياة العقلية، فأخذت أحضّر الجزء الأول الذي سُمي (فجر الإسلام)، وصرفت فيه ما يقرب سنتين، فرسمت منهجه ورتّبت موضوعاته، وكنت إذا وصلت إلى موضوع أجمع مظانه في الكتب وأقرأ فيه ما كتب عن الموضوع، وأمعن النظر ثم أكتبه مستدلاً بالنصوص التي عثرت عليها حتى أفرغ منه، وأنتقل إلى الموضوع الذي بعده وهكذا، وكانت أكثر الأوقات فائدة الإجازة الطويلة التي تبلغ أكثر من خمسة أشهر، إذ كنت أجمع الكتب التي يظن أنها تبحث في الموضوع وأحملها على دفعتين أو ثلاث إلى مائدة وضعتها في حديقتي خلف بيتي في مصر الجديدة، وأبدأ العمل في الساعة الثامنة صباحاً وأجلس على كرسي أمام الكتب أقلبها وأستخرج منها نصوصها، وأستخلص من كل ذلك ما أكتبه إلى الساعة الواحدة جلسة واحدة أنسى فيها نفسي وأنسى كل شيء من حولي، وهكذا أفعل في أيام العمل التي لا يكون عليّ فيها دروس في الجامعة، حتى انتهى الجزء الأول، وقد لقيت من حسن استقبال الناس لهذا الجزء وتقديرهم له واهتمامهم به نقداً وتقريظاً ما شجعني على المضي في هذه السلسلة، وقد عاقت زميليّ عوائق عن إخراج نصيبهما، فاستمررت أنا في إخراج (ضحى الإسلام) في ثلاثة أجزاء، وترقيت في

منهج التأليف في (ضحى الإسلام)، فقد ترتبت موضوعاته التي تستغرق ثلاثة أجزاء وأحضرت ملفات كتبت على كل ملف اسم الموضوع، ملف عليه اسم المعتزلة، وآخر الخوارج، وثالث أثر الجواري في الأدب، ورابع الثقافة الهندية.. إلخ، ثم أحضرت أمهات الكتب التي تبحث في هذه الموضوعات كالأغاني، والحيوان للجاحظ، وكتب ابن قتيبة، ورسائل الجاحظ وكتب ابن المقفع ونحو ذلك، اقرؤها كلها فإذا وصلت إلى نص يتعلق بالمعتزلة كتبت في ورقة صغيرة مغزى النص ورقم الصفحة في الكتاب، ووضعتها في ملف الموضوع، وهكذا حتى أفرغ من هذه الكتب كلها، وهذا كله دور التحضير، فإذا جاء دور الكتابة استخرجت ملف الموضوع وأعدت النظر في الجذاذات ورتبتها حسب الترتيب المنطقي وفكرت فيها وبدأت أكتب، وكلما عَنَّت فكرة جديدة رجعت إلى مظانها حتى ينتهي الموضوع فأنتقل إلى ما بعده، وهكذا حتى أخرجت الجزء الأول والثاني والثالث من (ضحى الإسلام) في نحو سنتين.

❖ المشاريع الكبرى التي تأخذ زمناً من عمرك تحتاج إلى إرادة صلبة وعزيمة قوية وقرارات صارمة، ولذلك توقف اثنان وبقي أحمد أمين، وإذا أردت أن تخرج شيئاً فاصنع قراراً يليق به حتى توره النهايات.

❖ التركيز يبلغك أمانيك، وقد ذكر لك أحمد أمين أنه يبقى في مكانه من الثامنة صباحاً إلى الواحدة ظهراً لا يتلفت إلى غير مشروعه، ولا يتحوّل عنه، وأخبرك أنه كان يرقب الإجازات بشوق وينتظرها بلهف لذلك المعنى الكبير في حياته، وبدون ذلك لا سبيل لك إلى شيء.

هيأت لي الجامعة فرصة جميلة لرحلات خارج القطر، وقد كاد ينقضي شبابي ولم أبرح القاهرة، وما كنت أظن بأن الزمن سيسمح بهذه الرحلة يوماً ما، وكان الهدف من الرحلة البحث في مكتبات الآستانة بتركية عن كتب جغرافية قديمة، وبخاصة كتاب بيطلموس في الجغرافيا، ومكثت في رحلتي هذه أربعين يوماً، وكانت مذكراتي مملوءة يومياً بالذهاب كل يوم صباحاً ومساءً إلى مكتبات الآستانة، وما أثقل الرسميات! وهي عمل آلي لا دخل للقلب فيه وإن استفدنا منها كثيراً، وأهم ما في تلك الرحلة يوم نخرج لا لغاية، ونتجول في الشوارع لا لغرض، ونزور القرى والضواحي لتتفتح قلوبنا ونرى الناس غادين رائحين ونحن مندمجون فيهم لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد.

❖ الروتين ممــل وقاتل وقد عَبَّر أحمد أمين عــن هذا المعنى بقوله: (وما أثقل الرسميات!)، فرق كبير بين العمل الذي تمارسه وظيفةً، والعمل الذي تمارسه فكرةً ومشروعاً، ولا سبيل لك إلى الإبداع وصناعة الدهشة إلا في فكرتك ومشروعك وقضيتك التي تعيش من أجلها، وما عدا ذلك مجرد ركام من الورق ليس فيه شيء.

❖ باتت الشهرة قاتلة للحياة، ولا تكاد تهنأ بمكان، ولا سبيل لك إلى أن تمارس هوايتك وبســاطتك وروحك ومشــاعرك، وكلمــا حاولت أن تفضي إلى نفســك كما هي أقبل عليك الناس من كل جانب، وفي زمان التواصل الاجتماعي قد تذهب صورتك أقصى الدنيا ومن دون علمك. وما أكثر الصور التي وصلتني ولا علاقة لي بأصحابها في شيء!

لا يصفو الزمان حتى يكدر، ولا يُحسِن حتى يُسِيء، فعقب الحفل الذي أقيم لي في الكلية شعرت بخمود في جسمي وانقباض في صدري، فعرضت نفسي على الطبيب، فقرر أني أصبت بالسكر وألزمني الصوم عن الأكل إلا السوائل أياماً، ثم السير بعد ذلك على نظام دقيق في الأكل تُتجنَّب فيه النشويات والسكريات، ومن ذلك الحين دخلت في حياتي حُقن الأنسولين، وقد صحبني المرض إلى الآن خمس عشرة سنة أحاوره ويحاورني ويصادقني أحياناً ويعاديني، وأمتنع من أجله عما أشتهي، وأتجنب الجهد الشاق على غير رغبتي، وأحياناً يرميني بالأفكار الحزينة وألوان الحياة القاتمة، وأحمد الله إذ لم يكن من الشدة كما هو عند غيري.

❖ يذكرك أحمد أمين بقاعدة من قواعد الحياة: (لا يصفو الزمان حتى يكدر، ولا يحسن حتى يسيء) فلا تنتظر صافياً دون عناء، ولا تبتغِ جميلاً قبل أن تمتلئ عينك من قبيح كثير! وهذا المعنى يكاد يجري في كل شيء، في حياتك العامة والخاصة، وفي عملك ووظيفتك، وفي بيتك وأسرتك، ولا يكاد يخلو منه شيء فعوِّد نفسك على هذا المعنى، والفقه بالزمان يعينك على العيش راضياً سالماً من الأحزان.

❖ ما أكثر المبتلين بالسكر والضغط في زمانك! وما أقل الوعي بأمراض العصر على رغم كل ما يُبذل اليوم في سبيل التوعية بتلك الأمراض! لا يدرك الإنسان أثر المرض في تغيير مزاجه وتشكيل شخصيته ووضعه في أصر روتين ممل، إلا بعد أن يقع في فخه ويبتلى به

وتجري عليه أحداثه ويأســره في عادات تبقى معه مـا بقي الدهر، ومن سمع شكوى أحمد أمين بوعي أخذ للزمان أهبته ودافع مرضه بما يمكن من أسباب.

❖ لا أعظم في هذا الباب من وصيــة النبي ﷺ: **«ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شــراً من بطنه»**، وأوصى ﷺ: **«فإنْ كنْتَ لا بدَّ آكلاً فثلثٌ لطعامِكَ، وثلثٌ لشــرابِكَ، وثلثٌ لنفســك»**، وغالب رزايا الأمراض مــن التفريط في هذا الباب، ثم رياضة المشــي التي يجمع الأطباء على أنها أعظم علاج لتلك الأمراض، وحفاظك على صحتك من الاعتلال حفاظك على مشــاريعك من الخلل والتوقف مع الأيام.

❖ إذا ابتليت بهذا الداء أو غيره فيمــم وجهك إلى الله تعالى وارضَ بقضائه وقدره واحتســب ما أصبك في ســبيله، واقرأ أحاديث البلاء فإنها سلوة عن كل فائت، قال ﷺ: **«ما يصيبُ المسلمَ مِنْ وصَبٍ ولا نَصبٍ ولا همٍّ حتَّى الشَّوكة يُشَاكها، إلَّا كَفَّر اللهُ بها مِنْ خَطاياه»**، وقال ﷺ: **«إذا أحبَّ اللهُ عبداً ابتلاهُ، فمَنْ رضيَ فلَهُ الرضا»**، وقال ﷺ: **«ولا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ حتَّى يلقى الله ومــا عليْهِ مِنْ خَطيئــة»**، والإيمان بالقضــاء والقدر يصنع العجائب، وكم من إنسان مصاب بأكثر الأمراض خطورة على حياته وهو أبهج الناس وأكثرهم فألاً! وكم من إنســان ابتلي بالســكر الذي لا يكاد يخلو منه إنســان في زمانك، وهو قاعد يشتكي زمانه ويندب حظه وقدره وينتظر موته وأجله في كل لحظة من يومه وليله!



كان يستولي علي وَهْم أن الرجل إذا كان في منصب كبير في الماضي أو الحاضر فذاك عنوان عبقريته ودليل نبوغه، وأن له من الآراء ما يفوق كل رأي، ومن الآراء ما يتضاءل أمامها كل فكر، فزال هذا الوهم من خلال مجلس الكلية الذي شاركت فيه، ورأيت هؤلاء الكبار يفكرون كما يفكر الناس، ويخطؤون كما يخطئ الناس، وتتغلب عليهم الأهواء أحياناً كما تتغلب على سائر الناس.

❖ الأفكار لا تنضج في العادة حتى تصطلي بالواقع وتلقى حظاً من مساحات التجربة والتطبيق، لقد كان أحمد أمين يظن أن منصب الرجل عنوان عبقريته، حتى التقى بأولئك في مسرح الكلية وقاعة اجتماعاتها وسمع ما لم يكن له في الحسبان، ولذلك لا تحكم على واقع حتى تدخله وتجربه.

من تجاربي أن رأيت أكثر الناس يسيرون مع العظماء في آرائهم وأفكارهم ولو اعتقدوا بطلانها، ولكن إذا تشجع أحد ودافع عن الحق وجهر به وصمم عليه تبعه هؤلاء وانضموا إلى جانبه ضد العظماء، فليس لديهم من الشجاعة ما يبدؤون به قول الحق، وليس عندهم كذلك من السفاهة ما يناهضون به قائل الحق، وشعرت في هذا المجلس بفضل (عاطف بركات) وما علمنيه من قول الحق ولو كان مراً، والانتصار له ولو أوذيت في سبيله.

❖ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الناس كسرب القطا يتبع بعضهم بعضاً. وما أكثر مشاهد هذا المعنى في حياة العالمين! ترى هذا في بناء بيت أو شراء سيارة، أو بداية تجربة ما، والناس أشد اتّباعاً لحملة الأفكار بالذات، ومن تبنى فكرة وأشاعها وقام لها وبذل في سبيلها أقبل إليه الناس مشاةً وركباناً، ولن تتصوّر هذا المعنى حتى ترى قبول أفواج من الناس في مثل زمانك لفكرة لا قائد لها، وإنما هي من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، وهي في مرات لا صلة لها بالحقائق في شيء.

❖ كن أنت صاحب الفكرة وأول باعث لها، وأنت من يحمل السراج في الظلماء، وسيأتي العالم من خلفك تباعاً يبحثون عن الضوء الذي به يستضيئون. خذ على عاتقك هداية الناس، وابعث في عقولهم الحقائق، وأزح عنهم عتام الجهل، وكن في كل واقع ومساحة ومكان صاحب الشمعة الذي يبدد الظلام، وسترى هذه الحقائق رأي عين.

❖ قل الحق ولو كان مراً، وانتصر له ولو أوذيت في سبيله كما يقول لك أحمد أمين، وهذا أمر متفق عليه، ولكن في سياقه الصحيح ووفق المصالح التي سنتها شريعة الله تعالى بحسب الحال والمآل، وتذكر أن العيش لهذه المعاني يبقيك حياً ويجعلك كبيراً، ومثلك أكبر من أن يكون تبعاً للعوام.

استفدت من هذا المجلس تجربة أخرى وهي: أن كثيراً من الناس يتضايقون من المعارِض وقد يحاولون إيذاءه والتنكيل به، ولكنهم إذا تيقنوا أنه إنما يدافع عما يعتقد، وإذا دافع دافع بأدب وفي لياقة ولباقة

ومن غير أن يمس شعورهم وكرامتهم، كان موضع الاحترام والإجلال والكرامة من مؤيديه وخصومه معاً.

❖ يذكرك أحمد أمين بأن لك أفكارك التي تؤمن بها ومفاهيمك التي تدافع من أجلها، وتصوراتك التي تعيش في سـبيلها لا تتنازل عن شيء منها في أي مساحة، وليكن ذلك منك في سياق الأدب والجمال كما قال لك: (وإذا دافع دافع بأدب وفي لياقة ولباقة ومن غير أن يمس شـعورهم وكرامتهم)، وسـتكون النهايات (كان موضع الاحترام والإجلال والكرامة من مؤيديه وخصومه معاً).

❖ النـاس تُثمّن العلم، وتعـرف الجادين، وتُقـدِّس الحقائق ولكنها بحاجة إلى من يحملها بنور الوحي ويتمثل فيها سيرة رسوله ﷺ، ويُجري فيها نواميس الكون.

❖ لا تكن حريصاً على المعارضة، واختر لرأيك أحسـن المسـالك، وتسلل إلى قلوب الناس من أنسب الطرق وستبلغ أمانيك.

وها أنذا في عمادة كلية الآداب قد شُغل وقتي كله بأعمال إدارية أكثرها لا قيمة لها، فكل الأوراق تعرض لي حتى شراء مكنسة، وكل أعمال الطلبة والأساتذة تعرض عليّ حتى الكلمة النابية يلفظها الطالب، إلى شكاوى الطلبة وما أكثرها! وتزاحم المدرسين والأساتذة على العلاوات والدرجات وتسوية الحالات وما أصعبها! وكل هذا كان يشغل وقتي، فلم أتفرغ للعلم إلا قليلاً، ولم أتفرغ للنظر في



المسائل الأساسية كمناهج التعليم وطرق التربية إلا بقدر، وهذه عدوى من نظام الحكم في مصر، حيث تتركز الأعمال كلها في يد رئيس المصلحة، وما كان أحرى الجامعة أن تتخلى عن كل ذلك وتوزع الاختصاصات ويتفرغ العميد للمسائل المهمة، ولكن أنَّا لنا ذلك. ومكثت على ذلك سنين، وأنا آسف على ضياع وقتي ووقوف عملي العلمي فلم أؤلف في هذه الفترة كتاباً.

❖ إذا كنت صاحب فكرة وتحمل مشروعاً ولك قضية فما لك وللأعمال والمسؤوليات التي تحول بينك وبين تلك الأماني الكبار؟! وهذه المسؤوليات مكلفة وتستنفد وقتك وجهدك وفكرك وتعرضك للخصام، وتخرج في كل مرة مليئاً بالمكدرات، ولا يكاد قلبك يسلم من الشتات. دع هذه الأعمال والمسؤوليات لأهلها، وثمة أناس هذه مشاريعهم، وينفعون الأمة ألف مرة من خلالها، وهم أقدر على تحمل كل تبعاتها وتحقيق مقاصدها الكبار. فما لك ولمشاريع آخرين؟! وأنت وشأنك.

حاولت أثناء عمادتي أن أحقق ثلاث مسائل لم أنجح فيها كثيراً: الأولى: تنظيم الحياة الاجتماعية في الكلية، فقد رأيت أن الحياة فيها مقتصرة على دروس تلقى وتسمع من غير أن يكون هناك حياة اجتماعية تُرفّه عن الطلبة وتوثّق الصلة بينهم وبين أساتذتهم وتُقلّل من إضرابهم، فاتجهت إلى نادي الكلية أجهزه بكافة الوسائل ليكون أداة صالحة لتنظيم الحياة الاجتماعية. والثانية: أني حاولت تحسين



العلاقة بين الطلبة والأساتذة من ناحية الإشراف الخُلقي، فأردت أن أخصص كل أستاذ لعدد من الطلبة يشرف عليهم إشرافاً أبوياً يفضون إليهم بمشاكلهم المالية والنفسية والاجتماعية ويحاول هو علاجها ويعينهم على ذلك من الناحية المالية بمال الاتحاد. والثالثة: محاربة الطريقة التي يتبعها كثير من الأساتذة من قلبهم المحاضرات إلى دروس إملاء، فهم يملون عليهم ما حضّروا، أو يوزعون عليهم مذكرات مختصرة، وكنت أرى في هذا إماتة للروح العلمية الجامعية، والمنهج الصحيح إرشاد الطلبة إلى مرجع الدرس ثم إلقاء الدرس وتقيد الطلبة بأنفسهم لأنفسهم النقط الهامة، وعلى كل حال لم أحقق من هذه الثلاثة المطالب ما كنت أتمنى.

❖ الاعتراف من سيما الكبار، وليس بالضرورة أن تنجح في كل شيء، وحسبك أنك وضعت يدك على الخطأ، وبدأت تصحيح المسار، وأخطاؤك التي تعلنها وإخفاقاتك التي تظهرها تكون كالأرض الصُّلبة التي يقف عليها الآخرون، ويبدؤون منها ومن خلالها مغامرات الحياة في مستقبل الأيام.

❖ لله ما أحوج طلابنا اليوم لهذا الفقه (الحياة الاجتماعية)، الحياة التي تفكّهم من إصر الدرس، وتجري بهم في فلك المشاعر، الحياة التي تعتقهم من أغلال الروتين وتمكّنهم من العيش في المساحات المفتوحة، وثمة محاولات، واجتهادات من خلال نشاط غير صفي، وأندية، وبرامج ومشاريع، ولعلها تأخذ حظها في قادم الأيام.

❖ يحتاج هـذا الطالب إلى مسـاحات مفتوحة، وحريـات في تلك الأمكنـة، ولقاءات بالمعلمين والمسـؤولين، وسـماع للتجارب الخاصة والعامة حتى تكتمل منظومة شـخصيته وتمتزج مـع بعضها وتلقى تلك المعلوم والمعارف التي تعلمها صدى في نفسـه ومشـاعره. وما أكثر ما نتعاضد على إعادة جموع الطلاب إلى فصولهم من باب النظام! وما أكثر ما نحرمهم الحريات التي ينشدون!

❞

ماتت أمي وأنا أستاذ بكلية الآداب وقد ناهزت الثمانين، وكانت طيبة القلب أقرب إلى السذاجة، وكانت أمية لا تقرأ ولا تكتب، محبوبة من أهل حارتها لطيب قلبها، وكنت شديد الحب لها والإشفاق عليها؛ لأنها تألمت كثيراً في حياتها، فقد مات من أولادها وهي في شبابها وعاملها أبي معاملة شديدة قاسية سلبها من كل سلطتها، وكبت شخصيتها، وحرمها دائرة نفوذها، وطغى بشخصيته على شخصيتها، فعاشت كسيرة القلب منقبضة النفس لا يحملها في البقاء في البيت إلا حبها لأولادها، وكانت سخية اليد على قلة ما تملك ولا تعبأ بالمال إلا ما يضمن معيشتها، فإن كان لي شيء من عناد وقوة إرادة، وجَلَد على العمل، وصبر على الدرس، وسرعة غضب، وميل إلى الحزن، وكثرة تفكير في العواقب فذلك كله من أبي، وإن كان فيَّ شيء من سذاجة، وعدم حرص على المال، وحسن ظن بالناس فيما يقولون ويفعلون، وندم على غضب، وسرعة تحول



من غضب إلى هدوء ومن سخط إلى رضا فذلك كله من أمي رحمها الله تعالى. وهل نحن إلا صورة جديدة لآبائنا يعيشون فينا ويحلون في جسومنا ونفوسنا؟!

❖ ليس هناك ما هو أكثر فزعاً لقلب إنسان من أخبار الموت! ولا أشد وطأة عليه من موت ابنه ووالديه! لقد حكى لك أحمد أمين رحمته وشفقته على أمه، خاصة فيما جرى عليها فيما مضى من الزمان. وما أحوجهم إلى البر والقرب والعون! وكم من إنسان الفرص تترى بين يديه وانشغل عنها حتى فجأته أحداث الموت! وقد قال ﷺ وهو يصعد درج المسجد: «آمين» فسأله الصحابة فقال ﷺ: **«رغِمَ أنفُ، ثمَّ رغِمَ أنفُ، ثمَّ رغِمَ أنفُ مَنْ أدركَ أبويهِ عندَ الكِبَر، أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنَّة»**!

❖ ها هي حياة أحمد أمين في النهايات صورة طبق الأصل لأثر والديه، يقول لك: (كان موضع الاحترام والإجلال والكرامة من مؤيديه وخصومه معاً)، (وإن كان فيَّ شيء من سذاجة، وعدم حرص على المال، وحسن ظن بالناس فيما يقولون ويفعلون، وندم على غضب، وسرعة تحول من غضب إلى هدوء ومن سخط إلى رضا فذلك كله من أمي رحمها الله تعالى)، وما أصدق ما قال: (وهل نحن إلا صورة جديدة لآبائنا يعيشون فينا ويحلون في جسومنا ونفوسنا)! وإذا عرف الوالدان هذه الحقائق كانوا في مستوى الحدث.





"تركت العمادة وعدت أستاذاً وخلت يدي من كل سلطة إدارية فسفرت لي وجوه قبيحة من إنكار الجميل وقلة الوفاء، هذا كان صديقي يوم كنت أستطيع نفعه، فلما سُلبت مني القدرة تلمس الوسائل ليكون عدوي، وهؤلاء الذين كانوا يتهافتون على إقامة حفلات تكريم لي يوم انتخبت عميداً، لم يفكروا في إقامة حفلة وداع يوم تركت العمادة، وهذه التلفونات التي كانت تدق كل حين للسؤال عن صحتي وطلب موعد لزيارتي لم تعد تدق، وهذا صندوق البريد الذي كان يمتلئ بالخطابات المملوءة بالطلبات والرجاوات أصبح فارغاً إلا من خطابات عائلية أو مسائل مصلحية، وهذه أيام الأعياد التي كان يموج فيها البيت بالزائرين من الصباح إلى المساء يهنئون بالعيد، أصبحت كسائر الأيام أجلس فيها على المكتب أقرأ وأكتب ولا سائل ولا مجيب، للدرجة التي لم أعد أثق، بالناس كما كنت أثق ولا أركن إليهم كما كنت أركن، فكانت إذا حدثت فصول من هذا القبيل تكسرت النصال على النصال، وكنت كما قال الأول: وصرت أشك فيمن أصطفيه.. لعلمي أنه بعض الأنام. وعدت إلى الكتاب فهو أوفى وخير صديق."

❖ وهل يُنتظر من الناس إلا مثل هذه الصـــور؟! هذه الحقيقة لكل مســـؤول يحكيها أحمد أمين في آخـــر عمره ويقُصها في كتابه ويســـرد فصول ذكرياتها لتبقى الحقيقة ما بقي الزمان، ومن لم يأخذ الحقائق من أصحاب التجارب جرت عليه تلك الحقائق يوماً من الزمان، ولا يلومن الإنسان إلا نفسه.

❖ إذا هيأ لك منصباً ومسؤولية فأحسن نيتك واصدق مع ربك تعالى وسـله العون على تحقيق مقاصدها الكبار، وابسط فيها العدل، وتجنب الظلم، وكن واضحاً ومنصفاً وصاحب قرار، ولا تنظر لتعامل الناس معك في شـيء في أيام ربيعها وجمالها فإنها تخلق لك صـوراً وزيوفاً من الحقائق، وتوهمك بأن العالم من حولك وأقرب ما يكون إليك وإنما هو السراب.

❖ لن يبقى معـك بعد رحيلك إلا الصادق، ولـن يكون بجوارك إلا الذي أحبك لله تعالى لا لشـيء من تلك العوارض، وسينجفل العالم من حولك، ويتنحّون عن طريقك، فهيّئ نفسك لكل شيء، وما كنت تراه من تلك الجماهير إنما هي أسراب المصالح فحسب.

❖ إذا أردت أن يبقـى صوتـك وكلمتـك، ويزيد جاهـك ولا يقل، ويتوسع أثرك ولا يضعف فاحمل راية مشروع وعش لقضية وكن جزءاً من أمتك، عندها ستبقى حياً ومؤثراً على قدر حياة تلك الفكرة التي عشت لها والقضية التي حملتها والأفكار التي آمنت بها، وما عدا ذلك فأوهام.

ها أنا أعود إلى كتبي ومكتبتي وأبدأ في إعداد الجزء الأول من (ظهر الإسلام)، والاشتراك في نشر كتاب (الإمتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي، وأضع مع الأستاذ زكي نجيب خطة في وضع كتاب في قصة الفلسفة ثم قصة الأدب، وأشارك في تأليفها وإنجازها، وأجد بعد ذلك من الفراغ ما يمكنني من الاشتراك في المجالس العلمية والإشراف على أعمال لجنة التأليف والنشر ونحو ذلك، حياة علمية



هادئة لا خصومة فيها، ولا رجاء لأحد، ولا أخذ ولا رد، وهذا ما يتفق ومزاجي.

❖ يسرد لك أحمد أمين فصلاً من فصول التفرغ، حين تفرغ من العمل وعاد لمكتبته جرت كل هذه الفصول الممتعة في وقته وحياته، فأعد الجزء الأول من كتاب (ظهر الإسلام)، واشترك في نشر كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، ووضع خطة أخرى لمشروع مع زكي نجيب، ولن يصوغَ لك متع تلك الفصول إلا صاحب القصة أو من وجد صورة مشابهة لها، وأنا أؤكّد على كلامه، ولا أعلم لصاحب مشروع قراراً أعظم من تقاعده! ولا أعرف ربيعاً مورقاً في مشاريعي كلها إلا بعد التقاعد، ولو بقيت أعدُّ عليك ما جرى لي من أفراح التقاعد ما وسع ذلك صفحات، فلله الحمد أولاً وآخراً.

اتجهت في مشروعي اتجاهاً أدبياً، وكان ذلك امتداداً لما بدأت به في الأيام الأولى من حياتي، حين فَكّر الأستاذ حسن الزيات في إخراج مجلة الرسالة وكنت أحدهم، فكنت أكتب في كل أسبوع تقريباً مقالة، وكان هذا عملاً أدبياً يلذ نفسي بجانب بحثي العلمي، فأنا في كل أسبوع أفكر في موضوع مقال وأحرره، واضطرني ذلك إلى قراءة كثير من الكتب الإنجليزية أستعرض فيها ما يكتب وكيف يكتب، وأعتمد أكثر ما أعتمد على وحي قلبي أو إعمال عقلي أو ترجمة مشاعري، وكانت مقالاتي تتوزعها هذه العوامل الثلاثة. وأكثر ما اتجهت في هذه المقالات إلى نوع من الأدب تغلب عليه الصبغة الاجتماعية والنزعة الإصلاحية، فهذا أقرب أنواع الأدب إلى نفسي

وأصدقها في التعبير عني، وخير الأدب ما كان صادقاً يعبر عما في النفس من غير تقليد، ويترجم ما جربه الكاتب في الحياة من غير تلفيق، وكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه أو المسرور ضحكت سنه، وكنت أحس كأن نحلة تطن في أذني لا تنقطع حتى أكتب ما يجيش في صدري، فإذا استولى موضوع المقالة على ذهني فهو تفكيري إذا أكلت أو شربت، وحلمي إذا نمت، وعمل لا وعيي الباطن إذا شغلت، وانقلبت هذه الظاهرة إلى عادة، ولي تجربة في هذا الباب، وهي أني إذا عمدت إلى إعداد بحث كفصل من فصول فجر الإسلام أو ضحى الإسلام فأرى كل وقت، صالح لهذا العمل ما لم أكن مريضاً، أما في المقالات الأدبية فلست صالحاً في كل وقت بل لا بد أن تهيج عواطفي بعض الهياج وتهتز نفسي بعض الاهتزاز وأنسجم مع الموضوع كل الانسجام، فإذا لم تتيسر لي كل هذه الظروف كنت كمن يمتح من بئر أو ينحت من صخر، وأحياناً أرى القلم يجري في الموضوع حتى لا أستطيع أن أوقفه، وأحياناً يسير في بطء وعلى مهل حتى لا أستطيع أن أستعجله، وأحياناً يتعثر فلا أجد بداً من الإعراض عن الكتابة، ومن الصعب تعليل ذلك، واعتدت من أول عهدي بالقلم أن أقصد إلى تجويد اللفظ وإلى توليد المعاني أكثر من تزويق الألفاظ، ولتقديري في المعنى أميل إلى تبسيطه حتى لأسرف أحياناً في إيضاحه؛ لشغفي بوصوله إلى القارئ ولو ضحيت في سبيل ذلك بشيء من البلاغة، وقد تعودت من الأدب الإنجليزي الدخول على الموضوع من غير مقدمة، وإيضاح المعنى من غير تكلف، والتقريب ما أمكن، ومن حبي للإيضاح أفضّل اللفظ ولو

كان عامياً على اللفظ ولو كان فصيحاً إذا وجدته أوضح في الدلالة وأدق في التعبير، ولهذا لما أُصبت في عيني ونهاني الأطباء عن الكتابة صعب عليّ الإملاء، ولم أجد من غزارة المعاني ما كنت أجد عند مزاولة الكتابة بنفسي.

❖ عاد أحمد أمين يشعر بالحياة لأمرين: الأول: لأنه تفرغ من تبعات عمل ومسؤوليات لا تناغم مشروعه وفكرته، والثاني: لأنه بدأ في مجلة الرسالة في فنه وعشقه، وإذا رزق الإنسان مشروعاً وقضية يعيش لها وفكرة ممتعة وكانت هي حبه وشغفه ووجد وقتاً لهذه المعاني الكبار فهذه أعظم مشاهد الجمال.

❖ من تجليات أحمد أمين أنه يكتب ويخاطب الناس ويلقي إليهم هذه العلوم والمعارف، وحريص في ذات الوقت على كل ما يرقّيه في فنه وتخصصه وعشقه ومجاله (فأنا في كل أسبوع أفكر في موضوع مقال وأحرره، واضطرني ذلك إلى قراءة كثير من الكتب الإنجليزية أستعرض فيها ما يكتب وكيف يكتب)، وهذا الشعور بالحاجة إلى التعلم والتدريب والتأهيل حاجة عزيزة قل من ينتبه لها، والوعي بها مفضٍ لآثار كبيرة مع الزمان.

❖ ومن جمالياته الملهمة هذا الشعور بما يكتبه والعيش معه كما يقول: (وكنت أشعر بعد كتابة المقالة كما يشعر المحزون دمعت عينه أو المسرور ضحكت سنه)، وكل حرف لا يسقيه هذا المعنى فلا تكاد تجد له بريقاً في مشاعر الناس فضلاً عن أفكارهم وعقولهم.

❖ الفرق الكبير بين أحمد أمين وغيره من الكتّاب الذين يفاجؤونك بكتب مطبوعة ومقالات مكتوبة هذا المعنى الكبير، أولئك يقصون

ويلصقــون، ويختارون وينتخبون حتــى يكتمل لهم عــدد من الصفحات بخلاف أحمد أمين، فإنه يخبرك بالحقائق فيقــول لك: (وكنت أحس كأن نحلة تطن في أذني لا تنقطع حتى أكتب ما يجيش في صدري، فإذا استولى موضوع المقالة على ذهني فهو تفكيري إذا أكلت أو شــربت، وحلمي إذا نمت، وعمل لا وعيي الباطن إذا شغلت، وانقلبت هذه الظاهرة إلى عادة)، ومن لم يلد حرفه من هذه المعاناة فلا طريق له إلى قلوب العالمين.

❖ الكاتب الذي يعيش لقضية ويحلم بإيصال أفكاره ومفاهيمه، ويقرر أن يبقى حياً في قلوب وأفكار ومشــاعر الآخرين يتعنَّى لهذا المعنى كما يقول لك أحمد أمين: (واعتدت من أول عهدي بالقلم أن أقصد إلى تجويد اللفظ وإلى توليد المعاني أكثــر من تزويق الألفاظ، ولتقديري في المعنى أميل إلى تبسيطه حتى لأســرف أحياناً في إيضاحه؛ لشغفي بوصوله إلى القارئ ولو ضحيت في سبيل ذلك بشيء من البلاغة).

> كتبت في مجلة الرسالة ثم في مجلة الثقافة وفي مجلة الهلال والمصور وغير ذلك، ولما كثرت مقالاتي جمعت بعض ما كتبت وزدت عليها وأودعتها ثمانية أجزاء سميتها (فيض الخاطر).

❖ هذا من وحي القاعدة النبوية «**أدومُه وإنْ قلّ**»، وقطرات الماء تصنع أخدوداً في الصخر الأصم، فلا تحتقرن في مشروعك أي شيء، فإنه مفضٍ بك إلى الحياة مع الأيام، وكم من كتب ومصنفات هي نتيجة لهذه العادة العملية في حياة كثيرين!

أُحلت إلى المعاش بعد أن بلغت سن الستين، وكم كنت أتمنى أن أخرج من الوظيفة وأنا في غير سن الكهولة لأعمل حراً لا تقيده اللوائح والقوانين ولا يطبع بطابع الموظفين، ولكن لم يكن لي من الشجاعة ما أرفض به الوظيفة (والولد مجبنة مبخلة)، بقيت إلى الستين وخفت من الفراغ الذي سأقابله إن خلصت من الوظيفة، ففكرت ماذا أعمل، فكرت أن أكوّن هيئة لنشر الكتب القديمة أستقل بالعمل فيها ويكون لي ربحه المالي والأدبي أو خسارته، ولكن حال دون ذلك اتصالي بلجنة التأليف والترجمة وإشرافي عليها أكثر من ثلاثين عاماً، فعمل اللجنة من جنس ما أنوي أن أعمل، ولكنه مقيد بمجلس إدارة قد يقيّد حريتي فيما أنشر، ويسألني عن عملي هل خسر أو ربح، وأنا أريد عملاً لا يسألني عنه أحد، وعرضت على زملائي أن أستقيل فأبوا، ولم يكن عندي من الحماسة ما يجعلني أصمم على الانفصال، وبقيت أشرف عليها، وهي عزيزة عليّ، فقد صحبتها مبكراً وصارت جزءاً من نفسي.

❖ لا فرق بينك يا أحمد أمين وبين كثيرين في زمانك، وإذا كنت تقول (أُحلت إلى المعاش بعد أن بلغت سن الستين، وكم كنت أتمنى أن أخرج من الوظيفة وأنا في غير سن الكهولة لأعمل حراً لا تقيده اللوائح والقوانين ولا يطبع بطابع الموظفين، ولكن لم يكن لي من الشجاعة ما أرفض به الوظيفة) فغيرك كذلك! وإذا كنت أنت جبنت عن قرار كهذا وأنت تملك مواهب وقدرات وطاقات فغيرك الذي لا يملك شيئاً من باب

أولى. الوظيفة فيها نــوع من الرِّق تعطيك أمانــاً، ولكنها في ذات الوقت تحجر على حرياتك ولا تمكنك من الحركة في شيء غيرها، وتأخذ جل أوقاتك، فلا هــي التي أعطتك ما يكفيك ولا هي التــي تركتك تأكل من خشاش الأرض!

❖ ما زلت أقول لكل من لديه مشروع عمر وقضية يعيش من أجلها، وقدرات وطاقات ومواهب: يكفيك أول عتبة تصل إليها في باب التقاعد، وعش حــراً فيما بقي مــن أيامك، ويمكنــك أن تخدم دينــك ومنهجك ورسالتك في أي مساحة ومكان، وفي ذات الفكرة التي تؤمن بها والقضية التي تعيشها، أما من لم يكن لديه فكرة ملهمة ولا مشروع حياة فبقاؤه في وظيفته واحتســاب النية فيها وتطوير ذاته خيرٌ له من الفراغ الذي سيلتهم ذلك الشباب عاجلاً ويقعده قبل أوانه.

❖ إذا بقي الإنســان في عمله زمناً فينبغي أن يسيطر عليه سؤال: ماذا يصنع بعد التقاعد؟ وكما أن أهل المــال يؤكدون على الموظف مبكراً أن يدَّخر لتلك الأيام القادمة ويســتثمر ماله بصورة أوعــب وأمثل، فكذلك ادخار الطاقات والقوى والإمكانات بعد التقاعد من باب أولى.

❖ كثيرون يتقاعدون ويمنُّ الله تعالــى عليهم بطول العمر ولكنهم لم يخططوا لهــذه المرحلــة القادمة، ويأتــون إليها وهم مكبَّلــون بالديون، ويعيشــون فراغاً قاتلاً، وتعاضدت عليهم الهموم من كل جانب فدهمتهم الأمراض وأحاطت بهم الظروف البائسة وألقت بهم في فلاة من الأرض، وقضيتا الاستثمار الفكري والاســتثمار المالي قضيتان مهمتان قبل اتخاذ القرار النهائي في أي مرحلة من هذه المراحل.

عدلت عن إنشاء مكتب للنشر، ثم دعيت من المرحوم النقراشي فقابلته فعرض عليّ أن أكون رئيساً لتحرير لجريدة يريدون إنشاءها لتكون لسان حزب السعديين وهي جريدة (الأساس)، فاعتذرت في الحال محتجاً بأني لم أشتغل بالصحافة إلا على هامشها، وفرق بين صحيفة أدبية كالثقافة وصحيفة سياسية كالأساس، ثم هذا العمل يتطلب انغماساً في السياسة إلى الأعماق وقد كرهت العمل فيها من قديم، ثم هو يتطلب الكتابة في تأييد الحزب تأييداً مطلقاً والخضوع لآراء قادة الحزب وأفكارهم ومهاجمة الآراء المعارضة وتوهينها والحط من شأنها، وهذا ما لم أرتضه لنفسي في حياتي، وهذا العمل يتطلب سهراً بالليل ونوماً بالنهار ومقابلة زيد وعمرو، ولم ألبث قليلاً حتى عرض عليّ أن أكون مديراً للإدارة الثقافية في الجامعة العربية، فقبلت بكل سرور لأنه عمل ثقافي من جنس عملي.

❖ إياك ألف مرة أن تذهب إلى عمل يتعارض مع فكرتك ومشـــروعك ولو كان يصنع لك أموال الدنيا، لقد عُرض على أحمد أمين أن يدير تحرير صحيفة سياسية فاعتذر مباشرة والسبب (فاعتذرت في الحال محتجاً بأني لم أشتغل بالصحافة إلا على هامشها، وفرق بين صحيفة أدبية كالثقافة وصحيفة سياسية كالأســـاس)، ثم تأمل قيم هذا الرجل التي أعانته على قرار الرفض (ثم هو يتطلب الكتابة في تأييد الحزب تأييـــداً مطلقاً والخضوع لآراء قادة الحزب وأفكارهـــم ومهاجمة الآراء المعارضة وتوهينها والحط من شـــأنها، وهذا ما لم أرتضه لنفسي في حياتي)، ومن لا مبادئ له لا قيمة له في شيء.

ويوماً من الأيام، وكل شيء يسير على طبيعته وأنا عاكف على القراءة والكتابة والدرس والتحصيل والإنتاج، وإذا بي أرى فجأة كأن نقطة سوداء على منظاري وأمسحها ثم أعيد النظارة فإذا بها كما هي، وإذ العيب في العين وليس في المنظار، واليوم وقفة عيد الأضحى والناس حتى الأطباء في شغل بأمر العيد فأبحث عن طبيب فلا أجده، ثم أعثر عليه بعد لأي، وبدأ يكشف على عيني وأنا واجف من النتيجة خائف أترقب وهو يفحص، ثم يقول لي: مرضك انفصال الشبكية وتحتاج إلى عملية، وتحتاج إلى شهر ونصف أو شهرين مغمى العينين متخذاً وضعاً واحداً، فاضطربت لهذا النبأ وأحسست بخطورة الموقف، وأكبر ما جال في نفسي شعوري بحرماني من القراءة والكتابة مدًى طويلاً وأنا الذي اعتاد أن تكون قراءته وكتابته مسلاته الوحيدة، ولكنني قلت: لعل الطبيب أخطأ في التشخيص، وذهبت لطبيب آخر وثالث، وكلهم أجمعوا على التشخيص وطريق العلاج، ودخلت المستشفى وعصب الطبيب على عيني قبل العملية بأسبوع، وها أنا في ظلام حالك ليل نهار، دنياي كلها ليل، بل أكثر من ليل، والجلسة محرَّمة والتقلب على الجوانب محرَّم، فاحتملت في صبر وبدأت أفكر في الدنيا وهوانها، وسخافة الناس الذين يشغلون أنفسهم بالتافه من أمورها ويتحاربون ويتشاجرون على الحقير من متعها وهي عرضة في كل وقت للزوال، ولو عقلوا لما تخاصموا، وحاولت أن يكون ظلامي مضيئاً من خلال الفأل، وكنت أنجح أحياناً وأخفق أخرى، وكنت أشعر أن العينين هما الكوتان اللتان تطل منهما نفس الإنسان على الدنيا، أستجدي النوم فلا يجدي وأفزع إلى الأفكار



المطمْئِنة فلا تسعف، وأغفو إغفاءةً فأظن أن الليل انقضى ببؤسه وشقائه، ثم أتسمَّع إلى حركة الشارع لعلي أتبين منها قرب النهار، وأظل في هذا الشك زمناً بين رجاء أن يكون الصبح وخوف أن يكون الليل، وإذا بالساعة تدق الحادية عشرة أو الثانية عشرة فأجزع من أني مقبل على ليل ليس له آخر وأنشد مع الشاعر: يا ليل بل يا أبدُ.. أغائب عنك غد؟ ولم يكن لي من العزاء أحسن من الإيمان، فهو الركن الذي يستند إليه المرء في هذا الوقت الرهيب، ومن دونه يشعر بأن الهاوية تحت قدميه، ولو أدرك الناس هذا ما ألحدوا، وكان من المصادفة الحسنة أن حضر أحد أبنائي الأوفياء وأحب أن يسليني بالقراءة بعض الوقت. ويأتي الطبيب بعد خمسة عشر يوماً من العملية فيذكر لي أنه سيكشف عن قاع العين غداً، أربع وعشرون ساعة تساوي أربعة وعشرين شهراً أو تزيد، انتظار للخيبة أو الرجاء، وتردد بين اليأس والأمل ثم لا ينفع بعد ذلك إلا الإيمان، ونمَتْ عندي حاسة السمع لتعوض ما أصاب أختها حاسة البصر، فكنت أعرف كل إنسان من صوته ومن أول كلمة ينطق بها، وتكاثر الزوار فهذا زائر يحدثك الحديث فهو بلسم هموم وموضع الماء من ذي الغصة الصادي فيؤنسك ويسليك ويقول ما يحسن أن يقال، وهذا زائر قد عدم الذوق فهو يراني في هذه الحال ويطلب إليّ إذا زارني صديقي فلان أن أرجوه أن يمنحه الدرجة الرابعة، ويشكو إليّ تأخره عن زملائه ووقوع الظلم عليه، وهذا زائر كريم قد أنساه ما أنا فيه ما بيننا من خصومات عارضة فداس هذه الخصومات بقدميه وكان وفياً كريماً وقد نسي الحديث التافه في الخصومة، وزائر يحز المنظر في نفسه فتكاد دموعه تسيل على خديه لولا أنه يجاهدها، وآخر يتجلّد



ويتصنع الثبات فإذا خرج سمعت نشيجه إلى ما لا يحصى من مسموعات، وكل هذا يخزّن في النفس طول النهار وتستعيده الذاكرة طول الليل، وأتذكر بشار بن برد، وأبي العلاء المعَرّي وقد فقدا بصرهما، فأما بشار فَقَد واجه فَقْد بصره بثبات وعاش كما يعيش ذوو الإبصار يمزح ويضحك ويقول إذا عُدِم العشق بالبصر فهو يعشق بالأذن، ويستمتع بالحياة المادية ويستغرق في الشهوات كأقصى ما يفعله بصير، وهو قوي جبار لا يمسه أحد بسوء إلا نكّل به وانتقم منه، وهو عنيد فاجر لا يأنف أن يصف في شعره كل الصور التي لا يستطيع وصفها إلا البصير، من غبار النقع وجمال العين ولطف القوام، فلا تكاد ترى في شعره أثراً من حزن أو بكاء على حرمان من منظر، وأما أبو العلاء فأصابته الكارثة نفسها فحزن واسترسل في الحزن، فأعرض عن لذات الحياة الدنيا وبكى نفسه وبكى الناس وبكى كل من حوله، وتحول هذا الحزن سخطاً على الناس من الأصناف والألوان، فلم يسرَّه شيء في الدنيا لأنه فقد السرور بالعين، وحبس نفسه في البيت إذ لم يرَ نفسه صالحاً لأن يظهر أمام الناس وهو فاقد العينين، بل أضاف إلى نفسه محبساً آخر وسمى نفسه رهين المحبسين، محبسه بفقد بصره ومحبسه في بيته، ومع ذلك ملأ الدنيا بأثره، فقد انطوى على نفسه يستخرج منها كنوزاً من معارفه وتأملاته وتفكيراته، فاستضاءت بصيرته بأكثر مما كان يضيء به نظره، وتألم هو فَلَذَّ الناسُ وفقد البصر فبصر الناس، وكانت حياته نفعاً جماً في الإملاء والتأليف والتعليم والتفكير الحر الطليق الذي لم يستطعه بصير. وجاء الطبيب وأخبر أن العين بدأ التحامها ولكن الأيام التالية

أيام دقيقة تحتاج إلى شدة عناية وقلة حركة والتزام للنوم على جانب واحد، وأقل مخالفة قد تفسد ما تم، ثم يرفع الطبيب الرباط على العين السليمة بعد أربعين يوماً وهي في ظلام حالك ويبقى الرابط على العين المريضة، والعين السلمية لا ترى إلا بصيصاً من طول ما حرمت من وظيفتها فلا تميز الباب من الشباك، وأشكو للطبيب فيقول هذا طبيعي فالعين تسترد وظيفتها شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً.

❖ هكذا الحياة، صغر وكبر، وشـباب وشيبة، وصحة ومرض، ومقام وسفر وحل وترحال وستظل كذلك ما بقيت الدنيا. لقد عاش أحمد أمين زمناً ببصره وجرى عليه هـذا الحادث فجأة، وما أكثر مـا تأتي أقدار الله تعالى من دون مقدمات! ولا شيء يواجه عواصف المصائب مثل الإيمان بالله تعالى وبقضائـه وقدره، وإذا أقبـل المصاب على ربـه تولاه بلطفه وكرمه.

❖ يذكرني أحمد أمين في حال الناس في التعاطي مع مرضه وظروفه وأحزانه بذلـك الرجل الذي زار صديقاً له في مرضـه ورأى أولاده حوله فقال لهم: إياكـم أن تفعلوا مثل ما فعل أبناء صديقـي فلان، لم يبلغوني بوفاة والدهم إلا بعد أن دفنوه! وهي رسالة لذلك المريض أن أكفانه تعد وهو ينتظر تواصلهـم لإبلاغه برحيله من الدنيا، وكـم من أصدقاء أحمد أمين في ذلك الوقت بمثل هذه الصقالة من التفكير!

❖ صـدق رحمه الله، بعض الزوار (بلسـم هموم وموضـع الماء من ذي الغصة الصادي فيؤنسـك ويسليك ويقول ما يحسـن أن يقال)، وبعضهم (عدم الذوق فهو يراني في هذه الحال ويطلب إليّ إذا زارني صديقي فلان

أن أرجوه أن يمنحه الدرجة الرابعة، ويشكو إليّ تأخره عن زملائه ووقوع الظلم عليه)، وثالث ورابع وعاشـــر وكذلك النـــاس. والعلم نعمة، وليس للجهل دواء عند جملة من العالمين.

❖ إذا أردت أن تعرف الفرق في اســتقبال المصائــب والتعامل معها فاقرأ هذا الفصل الممتع الذي كتبه أحمد أمين عن أبي العلاء وبشّــار بن برد لترى من خلاله الجمال، وبين الاثنين كما بين السماء والأرض.

أأضيق ذرعاً بالمستشفى وحياته الرتيبة؟! فما يجري في يوم يجري كل يوم، والأصوات هي الأصوات والطعام هو الطعام والأنين هو الأنين والأجراس تضرب من حين إلى حين، والحركات لا تنقطع ليلاً أو نهاراً، وفي المستشفيات نقص لا يلتفت إليه، فالأطباء يعنون بمقياس حرارة الجسم وتحليل ما يريدون منه كما يعنون بنوع الغذاء الذي يلائم المريض أو لا يلائمه، ولكن يفوتهم شيء هام جداً ربما هو أهم من ذلك كله، وهو: معالجة النفس، فلماذا لا يكون في المستشفى ممرضات للنفس كممرضات الجسم، يؤنسن المريض بأحاديثهن أو يقرأن له، ويكون لهن من الثقافة ومن الحسن بلسماً للنفوس وشفاء لما ينتابها من ضيق وكآبة؟!

❖ ما أعذب هـــذه اللفتة التي دوَّنهـــا أحمد أمين فـــي عناية الأطباء بالأجساد وفوات عنايتهم بالمشاعر والأرواح! وليس بالضرورة كما يقول أحمد أمين أنه يحتاج إلى ممرضات للنفس كممرضات الجسم، ولكن من يعنون على الأقـــل بالمشـــاعر والأرواح فيقرؤون تارة علـــى المرضى ما



يؤنســـهم من أحاديث الاحتســـاب في البلاء، وتارة من تصبُّر الكبار على مشاهد العناء، وثالثة عمَّا يخرج بالنفس من هذه الأجواء إلى أجواء الراحة والجمال والفأل والأمل، وما إلى ذلك من الذي يفتح نوافذ الأمل ويقف بك على مشاهد الربيع ويجري بك في فصول ومشاهد الجمال.

❖ في مرات كثيرة لا يحتاج المريض دواءً حســـياً بقدر ما هو بحاجة إلى كلمة وتســـلية خاطـــر ومشـــاركة وجدانية وحنان وشـــيء من لطيف المشـــاعر، يا أيها الأطباء، هبوا من أوقاتكم لمن حولكم ما يعينهم على الحياة.



منعني الطبيب القراءة والكتابة، وكانت حياتي كلها قراءة وكتابة، فلمّا حُرمتهما أحاطني فراغ رهيب مخيف، والفراغ أدهى ما يُمنى به الإنسان، فليس في الحياة سعادة إلا إذا ملئت بأي نوع من الامتلاء جد أو هزل، وعمل أياً كان نوعه، فإذا طال الفراغ فالوبال كل الوبال. إن فارغي العقل معذورون في أن يملؤوا فراغهم بنرد وشطرنج أو أي حديث ولو كان تافهاً، لأنهم يشعرون بثقل الفراغ، والحياة لا تلذ إلا بنسيانها، وخير لذة ما نسي فيها الإنسان نفسه واستغرق فيها حتى نسي التلذذ بها، وفراغي هو أهم أسباب ضيقي وأهم أسباب أزمتي النفسية. وكنت أدخل المكتبة لذكرى الماضي فيزيد ألمي، غذاء شهي وجوع مفرط وقد حيل بين الجائع وغذائه، وأتساءل: هل يعود نظري كما كان فأستفيد منها كما كنت أستفيد؟ وهذه الآلاف من الكتب آلاف من الأصدقاء، لكل صديق طعمه ولونه وطرافة حديثه، وقد كان كلٌّ يمدني بالحديث الذي يحسن حين أشير إليه، فاليوم أراهم ولا

أسمع حديثهم، ويمدون أيديهم ولا أستطيع أن أمد إليهم يدي. وقد أفادتني هذه التجربة المُرة أن خير هبة يهبها الله للإنسان مزاج هادئ مطمئن لا يعبأ كثيراً بالكوارث ويتقبلها في ثبات، ويخلد إلى أن الدنيا ألم وسرور ووجدان وفقدان وموت وحياة، فهو يتناولها كما هي على حقيقتها من غير جزع، ثم صبر جميل على الشدائد يستقبل به الأحداث في جأش ثابت، فمن وُهِب هاتين الهبتين فقد مُنح أكثر أسباب السعادة. وأخيراً استردت عيني اليمنى قدرتها كما كانت وهي السليمة، أما اليسرى فلم تنجح فيها العملية ومن أجل ذلك ضعفت قدرتي على القراءة والكتابة مع الرغبة الشديدة فيهما، واضطررت أن أستعين بعض الوقت بمن يقرأ لي ويكتب، وقد اعتمدت الإملاء بعض الشيء ولم أكن أحسنه أول الأمر لأني طول حياتي العلمية كنت أعتمد على نفسي، وذهني يدرك بالعين ما لا يدرك بالسمع، وأفكاري ترد على قلمي أكثر مما ترد على قلم غيري، وذهني كثير الشرود عندما أسمع، وقراءة العين تحصره، وفكري بطيء إذا أُملي وكنت إذا أمسكت القلم تواردت عليّ المعاني وأسرع قلمي في تقييدها.

❖ الصحة نعمـــة لا يدركها إلا من فقدها وعـــاش في أكناف المرض زمناً من عمره، والبصر على وجه الخصوص نعمة ولا يعرفها إلا من فقد بصره، ولذلك جاء في الحديث: «**مَنْ فقَدَ حبيبتَيْهِ عوَّضَهُ الله منهما الجَنَّة**»، وأشـــد ما يكون فقد البصر على الذين يقرؤون ويكتبـــون، ومن الطبيعي لأديب كأحمد أمين أن يشكو تلك اللحظات من عمره ويجري مشاهد تلك النازلة في حياته.

❖ الفراغ من أعظم نعم الله تعالى على أصحاب المشاريع، وكم من قائل: يا ليت الأوقات تباع، وهو في المقابل نقمة وألم وعذاب على الذين لا يجدون فيه قضية يعيشون من أجلها، ومثل هؤلاء عرضة للضياع أو للأمراض والأسقام، ومن حق أمين أن يقول: (وفراغي هو أهم أسباب ضيقي وأهم أسباب أزمتي النفسية).

❖ إذا أردت أن تقرأ حسرةً على القراءة وألماً على فقد البصر وحديث الذكريات على الزمان الفائت مع المكتبات، فاقرأ ما جادت به قريحة أحمد أمين بعد أن عمي: (وكنت أدخل المكتبة لذكرى الماضي فيزيد ألمي، غذاء شهي وجوع مفرط وقد حيل بين الجائع وغذائه، وأتساءل: هل يعود نظري كما كان فأستفيد منها كما كنت أستفيد؟ وهذه الآلاف من الكتب آلاف من الأصدقاء، لكل صديق طعمه ولونه وطرافة حديثه، وقد كان كلٌّ يمدني بالحديث الذي يحسن حين أشير إليه، فاليوم أراهم ولا أسمع حديثهم، ويمدون أيديهم ولا أستطيع أن أمد إليهم يدي)، ويا لوعة المسكين!

❖ ويصلح ختاماً لهذه السيرة الحافلة بالجمال هذه الأحرف التي تصلح درساً للحياة (وقد أفادتني هذه التجربة المُرة أن خير هبة يهبها الله للإنسان مزاج هادئ مطمئن لا يعبأ كثيراً بالكوارث ويتقبلها في ثبات، ويخلد إلى أن الدنيا ألم وسرور ووجدان وفقدان وموت وحياة، فهو يتناولها كما هي على حقيقتها من غير جزع، ثم صبر جميل على الشدائد يستقبل به الأحداث في جأش ثابت، فمن وُهِب هاتين الهبتين فقد مُنح أكثر أسباب السعادة)، وصدق والله ألف مرة!


الفهرس


الفهرس

